مجلد ٤ — عدد ١٦
يناير ١٩٤٧



مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

يوسف كرم

مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط

كتاب يقع فى ٢٦٨ صفحة

الثمن ٥٠ قرشاً (البريد المسجل ٥٦ مليما وللخارج ٦٨ مليما)



الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها. يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI
Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : Taha Hussein



صـــفر ١٣٦٦

ينـــاير ١٩٤٧

السـنة الثانيـة
مجلد ٤ — عدد ١٦

ما وراء النهر [1]

والقراء بالطبع ينتظرون أن أرقى وأن يرقوا معى فى صحبة الشاعر إلى القصر لنرى صاحبه العظيم فى مكتبه ذاك الذى اتخذه لنفسه سجناً منذ آخر الليل. ولـكنى لن أفعل، ولن يفعلوا؛ فهم لا يستطيعون أن يدخلوا القصر، ولا أن ينظروا إلى أبهائه الفخمة وأثاثه المترف الجميـل، إلاّ إذا أتحت أنا لهم ذلك. فالربوة كلها بما عليها ومن عليها، والقصر كله بما فيه ومن فيه، سر من أسرارى أُبيح منهما للقراء ما أشاء، وأخفى منهما على القراء ما أشاء، ليس لهم أن ينازعوا فى ذلك أو ينكروا منه شيئاً. وقد أزمعت ألاّ أرقى معهم إلى القصر، ولا أبقى معهم على الربوة استجابة لأصل من أصول الفن كما أراه أنا، لا كما يراه النقاد. فلو قد رقيت معهم إلى القصر أو بقيت معهم على الربوة لأتصل الحديث اتصالا يوشك أن يكون مملاً؛ لأنه يضطرب بهم وبى فى هذه الحديقة الفيحاء، وهذا القصر الفخم، بين ألوان من الترف وفنون من الحياة الناعمة، قد يكون وصفها رائعاً، وقد يكون العيش فيها، ولو أثناء الأحلام وفى ظل الخيال، محبباً إلى النفوس، ولـكنه يُمِلّ إذا اتصل ويسئم إذا طال. وليست الحياة ترفاً كلها ولا زينة كلها، وليس العيش الواقعى أو الخيالىّ يكسب قيمته من البهجة التى يسبغها الجمال على هذا المنظر او ذاك من منـاظر الطبيعة، وعلى هذا المظهر أو ذاك من مظاهر الناس. فلهذا كله قيمته، ولـكن للقبح قيمته أيضاً، وهى ليست أقل من قيمة الجمال شأناً ولا أهون منها خطراً، ولعلها أن تكون أدعى

(١) الكاتب المصرى عدد ١٤ و ١٥ (نوفمبر — ديسمبر ١٩٤٦).

إلى المنفعة ، وأبلغ أثراً فى إصلاح النفس ، وتقويم الخلق ، وتصويب الحكم على الأشياء . ولست أدرى ! هل تعمق ابن المعتز معناه ذاك الذى أوجزه فى البيتين المشهورين :

قلبىَ وثّابٌ إلى ذا و ذا ليس يرى شيئاً فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغى ويرحم القبح فيهواه

ولكن الشئ المحقق أن القبح خليق أن يعشق وأن تصبو إليه النفوس ، وتقف عنده العقول ، ويستقصى دقائقه الكتّاب والمفكرون . وما أظن أحداً يجادل فى أن نصيب القبح من حياة الناس أعظم من نصيب الجمال ، كما أن نصيب البؤس من حياتهم أعظم من نصيب النعيم . فالكتّاب الذين يُعْنَوْن بالجمال والنعيم وحدهما ، ويُعرضون عن القبح والبؤس ، إنما يعنون بأيسر الحياة ويعرضون عن أكثرها ؛ فهم يعلمون ويعلمون الناس ظاهراً من الأمر ، وهم يجهلون ويجهلون الناس بحقائق الأمور وبواطنها .

وأنا بعد هذا كله لا أريد أن أصرف نفسى وأن أصرف القراء عن جمال الربوة والقصر ؛ لأنى كلفٌ بالقبح مشغوف بالبؤس ، وأريد أن أشرك القراء فيما أجد من كلف وشغف ؛ وإنما هى طبيعة الأشياء ومنطق الفن وضرورة الحياة ، كل أولئك يقتضينى أن أدع الربوة وقصرها حيناً ، وأن أصحب القراء إلى مكان ليس له حظ من جمال ، وليس لأهله نصيب من نعيم .

فقد رأينا فيما مضى من هذا الحديث أن هذه الربوة الرائعة لا تقوم وحدها على شاطئ النهر ، وإنما تقوم فى أسفلها قرية بائسة وضيعة يعيش فيها قوم بائسون متضعون . فهذه القرية لم تنشأ عبثاً ، ولم تقم فى أسفل الربوة بغير غاية ، وإنما هى مكملة للربوة . وإن شئت فقل إن الربوة مكملة لها ؛ فقد اختلط الأمر علىّ حقّا ، فلست أدرى أيهما يتم صاحبه ، أيهما الأصل وأيهما الفرع . فهذه القرية هى التى تستغل الأرض وتستثمرها ، وتستخرج منها هذه الثروة الضخمة التى تتيح لأهل الربوة أن ينعموا وأن يترفوا ، وأن يستمتعوا بهذه الحياة الحلوة الفارغة ، وتتيح للربوة نفسها أن تزدان بجمالها هذا الرائع الخلاب . فلولا أهل القرية البائسون ما ارتفعت الأشجار فى السماء ، ولا انبسطت الأزهار فويق الأرض ، ولا انتشر العشب على هذه الأرض كأنه البسط من السندس والحرير ، كما

يقال، ولا أتيحت لأهل الربوة هذه الصغائر التوافه اليومية التى لا تستقيم بدونها حياة للمترفين وغير المترفين. فالقرية إذن هى الأصل، وليست الربوة إلا ثمرة من ثمراتها وأثراً من آثارها. ولكن واقع الأمر الاجتماعى غير هذا كله؛ فقد استقر فى نفوس أهل الربوة، أنهم السادة المالكون، وأن أهل القرية هم العبيد المملوكون، كما استقر ذلك فى رءوس أهل القرية أنفسهم، وكما استقر ذلك فى القوانين المكتوبة والنظم الشائعة. فأنا إذن معذور إذا اختلط الأمر علىّ فلم أدر أتكون الربوة أصلا والقرية فرعاً، كما يريد النظام وتريد القوانين، أم تكون القرية هى الأصل والربوة هى الفرع، كما تريد الحقائق الثابتة التى لا يبلغها جدال أو نزاع. وإذا كان غنى زيد يكون لفقر عمرو، كما يقول أبو العلاء، فقد لا نخطئ إذا عكسنا القضية وقلنا إن فقر عمرو يكون لغنى زيد. وسواء أكانت القرية أصلاً أم فرعاً، فإنها قد وجدت فى أسفل الربوة، ولم توجد عبثاً. فلا بدّ من أن نهبط إليها وإن كرهنا ذلك، ولا بد من أن نقيم فيها وإن شق علينا هذا المقام. وأنا أريح القراء من مشقة هذا الهبوط، فلا أسلك بهم تلك الطريق العريضة الطويلة التى تزدحم فيها السيارات مصعدة ومصوبة، ولا أسلك بهم هذه الطريقة الضيقة التى يزدحم فيها الفلاحون على أقدامهم وعلى دوابهم مصعدين ومصوبين، وإنما أبلغ بهم القرية من غير طريق؛ لأنى أريد ذلك وأستطيعه ما دام الأمر إلىّ، لا إلى أهل الربوة، ولا إلى أهل القرية؛ ولا إلى القراء. فالكتّاب قديرون على شئ كثير إذا لم يفرضوا على أنفسهم ما يحبُّ النقاد أن يفرضوا عليهم من القواعد والأصول.

نحن إذن فى القرية فى زُقاق ضيق جدًّا لا يكاد يتسع لسعى اثنين أو ثلاثة إلاّ أن يتقدم بعضهم بعضاً شيئاً ما، لتجد أقدامهم موضعها من الطريق. والزقاق قذر أبشع القذارة وأشنعها، ترى العين فيه كل ما تكره، ويشم الأنف فيه كل ما يكره. قد عاش أهله عيشة البؤس والضر والإهمال، لم يُعْنَوْا بصحتهم لأن أحداً لم يعلمهم أن الصحة شيء يعنى به الناس. ولم يعنوا بنظافتهم لأن أحد لم ينبئهم بأن النظافة شيء يستحب ولأنهم لو أحبّوا النظافة والتمسوها لما وجدوا إليها سبيلاً، قد قصرت أيديهم عن وسائلها وأدواتها قصوراً تامًّا؛ فهم يعيشون كما يستطيعون، قد اختلط رجالهم ونساؤهم وأطفالهم وحيوانهم ودواجنهم اختلاطا بشعا بغيضاً. وقد رأيت ما ينشأ عن هذا الاختلاط من الشر والنكر والفساد.

وفى أعماق هذا الزقاق دار منخفضة ليست عظيمة السعة ، ولكنها على كل حال أوسع مما يجاورها من الدور قد انخفض بابها فلا يستطيع الإنسان أن يدخلها معتدل القامة إلا أن يكون قزما أو طفلا ، فأما إذا تجاوز القصر إلى شيء من الطول فلابد له من أن ينحنى ليلج من هذا الباب . وهو إذا تخطى عتبة الدار وجد نفسه فى فناء له شيء من عمق قد ارتبط فيه حمار وانطلقت فيه دجاجات ، وارتفعت فى بعض جوانبه مصطبة صغيرة ضيقة ، جلس عليها رجل قد تقدمت به السن وأدركه الضعف ، وكاد سمعه يثقل فهو لا يفقه مايلقى إليه من حديث إلا أن يرتفع به الصوت ، وكاد بصره يذهب فهو لا يرى إلا أقرب الأشياء إليه ولا يراه إلا فى قليل من الوضوح . وبين يدى هذا الرجل نعال قديمة قد تخرقت وأدركها البلى ، وقطع من الجلد الرقيق والغليظ وأدوات يعمل بها فى هذا الجلد وفى تلك النعال . وهو مطرق إلى جلده ونعاله وأدواته ، تعمل يداه أحيانا فى ترقيع نعل أو إصلاحه وتكفان عن العمل أحيانا ولكنهما لاتسكنان حين تكفان عن العمل وإنما تعبثان بما أمام الرجل من جلد ونعال وأدوات .

وقد يأخذ الرجل قطعة من الجلد بكلتا يديه يشدها إلى يمين ويشدها إلى يسار ، وقد يضع طرفا من أطرافها فى فمه كأنه يريد أن يقضمها ، وهو لا يريد قضما ولا التهاما ، وإنما يريد أن يمتحن متانة الجلد ، فهو يمسك طرفا منه بما بقى من أسنانه ، ويمسك طرفيه الآخرين بيديه ، وهو يشد إلى هذه الجهة وإلى تلك ليستيقن أن هذا الجلد متين صالح لترقيع هذه النعل أو تلك . والرجل فى أكثر أحواله صامت كالمتكلم ومتكلم كالصامت ، لا يوجه إلى أحد حديثا ، ولا يكاد يجيب إن وجه أحد إليه الحديث ، ولكنه على ذلك متحرك الشفتين دائما متقلب اللسان فى الفم دائما ، يغمغم بألفاظ لا يسمعها إلا هو والذين يدنون منه أشد الدنو . وهذه الألفاظ غامضة مختلطة ؛ فهو أحيانا يتحدث إلى جلده ونعاله يصف رثاثتها ومتانتها وحاجتها إلى الرتق والإصلاح ، وأحيانا يتحدث إلى أدواته يصف مضيها وكلالها وعجزها وقوتها ، وأحيانا يتحدث إلى نفسه فينشد محفوظات له من هذا الشعر العامى الذى تجرى به الألسنة وتسير فيه الحكم والأمثال . وعن يمينك وشمالك إذا تجاوزت عتبة الدار حجرتان ليس باباهما أقل انخفاضا من باب الدار ، ولعلهما أن يكونا أدنى منه إلى الأرض . فإذا دخلت إحدى هاتين الغرفتين لم تجد فيها إلا حصيرا قد ألقى على الأرض ، وصندوقا حقيرا قد وضع فى زاوية من

زواياها، وجماعة من هذا الخبز العريض الرقيق المستدير قد رص بعضها إلى بعض وارتفعت فى زاوية من زوايا الحجرة كأنها العمود، تأخذ منها الأسرة حين تريد أن تطعم، وما تزال تأخذ منها والعمود ينخفض ويتضاءل، حتى إذا دنا من الأرض عملت محبوبة صاحبة الدار على تجديده ورفعه، فكان إعداد الذرة وإشعال الفرن إلى جانب المصطبة التى يعمل عليها الشيخ، وانطلاق الدخان، ويضطر الشيخ فى ذلك اليوم إلى أن يأخذ جلده ونعاله وأدواته ويجلس بها على الأرض أمام الدار. فإذا دخلت الحجرة الأخرى لم تر فيها إلا حصيراً قد أُلقى على الأرض، وأغطية رثة قد نثرت هنا وهناك. فأما إحدى الحجرتين فقد كان يأوى إليها الشيخ الإسكاف، ولنسمه محموداً، وامرأته محبوبة. وأما الحجرة الأخرى فقد كان يأوى إليها أبناء الدار وهم ثلاثة أكبرهم أحمد قد نيّف على العشرين وكاد يبلغ الثلاثين، وهو فتى طُوَال مظلم الوجه قوى الجسم قليل الكلام حائر الطرف لا تكاد عينه تستقر على شىء، ولا تراه الدار إلا حين تغرب الشمس ويتقدم الليل لأنه يعمل فى الحقول. وأصغرهم علىّ لم يتجاوز الثانية عشرة بعدُ، وهو صبى قد أُهمل أشد الإهمال، يلعب إن أتيح له اللعب، ويعمل إن أتيح له العمل، ويسرق إن أتيحت له السرقة. وبين هذين الإبنين من أبناء الدار خديجة هذه التى كادت تبلغ العشرين والتى لم يُدْرَ من أين جاءت، ولا لأى أبويها يمكن أن يضاف جمال وجهها الرائع واعتدال قامتها الجميلة، وهذا الخفر الحلو الذى يصدر فى دعة وهدوء وأمن عن عينيها الجميلتين، وهذا الحياء العذب الذى يعرب عنه وجهها الهادىء المطمئن، وثغرها الذى يريد أن يبتسم ولكنه يمتنع على الابتسام، وصوتها الممتلىء الرخيم الذى لا يكاد يتكلم إلا همسا، وحركاتها الرشيقة المتزنة المعتدلة التى تدل على حياة قوية دافقة وعلى حياء شديد يمسك هذه القوة أن تندفع إلى أكثر مما ينبغى.

وهذه الفتاة الناعمة الغضة التى لا تلائم هذه الدار البائسة الخشنة، تعيش بين أبويها وأخويها عيشة صامتة أو كالصامتة، ساكنة أو كالساكنة، مقبلة فى أكثر الوقت على مغزلها تديره فى أناة ورفق ودعة. فإذا كان موسم الحصاد خرجت مع أترابها من بنات القرية إلى الحقول فصيّفت، كما يقول أهل الريف المصرى، مع المصيفات، وعادت مع الأصيل إلى أهلها بما التقطت من الحب المنتثر فى الحقول. وإذا كان موسم القطن خرجت مع أترابها من بنات القرية، فشاركت فى جنى

القطن ، وعادت إلى أهلها مع الأصيل ، بما يتاح لها من أجر ضئيل . وقد رآها نعيم فيما يظهر مصيّفة مع المصيفات أو جانية للقطن مع الجانيات ، فراقه منظرها الرائع فى ثيابها الرثة ، فلما أطال النظر إليها اشتد إعجابه بها ثم ميله إليها ، فعاود المرور بالجماعة التى كانت تعمل معها ، ثم حاول الوقوف إلى هذه الجماعة ، ثم حاول الحديث اليسير إلى هؤلاء العذارى ؛ وكان من شأن هذا كله أن يزيد إعجابه بهذه الفتاة وميله إليها وطمعه فيها ، وكان لحظُ الفتاة وصوتها هما اللذان وقعا من نفس نعيم أغرب الوقع وأعمقه وأعظمه فى نفسه أثراً ، حتى كتب فى دفتر يومياته يقول : « أوشك أن أظن بنفسى الجنون ؛ فإنى لا أنطلق فى الحقول ولا أتنزه فى الحديقة ولا أخلو إلى نفسى فى غرفتى إلا رأيت عيناً ساحرة فاترة تنظر إلىَّ فى أناة وخفر ، فتنفذ إلى أعماق نفسى وتلذع قلبى لذعا أليماً . وأنا لا أكاد أخلو إلى نفسى فى غرفتى أو خارج غرفتى ، فى القصر أو بعيداً عن القصر ، إلا سمعت صوت هذه الفتاة يبلغ أذنى حلواً رقيقاً رفيقاً ، ثم يصل إلى نفسى فيحدث فيها نشوة لا أشبهها بالطرب الذى تحدثه الموسيقى ، وإنما أشبهها بالنشوة التى تحدثها الخمر . لقد استأثرت هذه الفتاة بنفسى . وما أرى أن الأمر سينتهى بينها وبينى كما تعودت الأمور أن تنتهى بينى وبين أترابها من حسان الريف . »

والقراء يعفوننى دون شك من أن أصور لهم ما كان بين نعيم وخديجة من قرب وبعد ، ومن دنو ونأى ، ومن هذه المحاولات الكثيرة المعقدة التى ينسج الحب خيوطها بين المحبين فى أناة ومهل ، ثم فى اندفاع وعجل ، ثم يأخذهم فيها كما تؤخذ الطير فيما ينصب لها من الشراك .

القراء يعفوننى من تصوير هذا كله ؛ فهم يعرفونه حق المعرفة ، يقرءونه فى القصص وفى شعر الشعراء ، ويجده كثير منهم فى أنفسهم ويسمعونه فيما يدار عليهم من الحديث . وهم بعد هذا يستطيعون أن يصوروا نشأة هذا الحب بين خديجة ونعيم كما يشاءون ، لاجناح عليهم فيما يبتكرون من صور وما يخترعون من أحداث ، فكل هذا لا يعنينى ولا يعنى القصة فى كثير أو قليل ، وإنما الذى يعنينى ويعنى القصة ويعنى القراء هو أن هذين الفتيين قد وقعا فى شرك من أشراك الحب ، فاضطربا فيه قليلا أو كثيراً يحاولان أن يخلصا منه وأن يعودا إلى الأمن والحرية وفراغ البال . ولكن إفلات العاشقين من أشراك الحب ليس أقل عسراً من إفلات الطير من أشراكها حين تقع فيها . فقد كان إذن ما لم

يكن بد من حدوثه ، ونظر الفتى المترف الغنى القوى الموفور فإذا هو أسير لخديجة بنت محمود الحذّاء .

ونظرت الفتاة البائسة اليائسة المطمئنة إلى بؤسها ويأسها ، فإذا هى مولّهة بحبّ هذا الفتى ، الفتى المترف الغنى القوى الموفور . وكان الفتى يخلو إلى نفسه فيلقى نظرة من أعلى ترفه وشرفه وغناه إلى بؤس خديجة ويأسها وإعدامها ، فيأخذه شىء يشبه الدوار ، كيف هبط من أعلى عليين إلى أسفل سافلين !

وكانت الفتاة ترفع بصرها من أعماق يأسها وبؤسها وإعدامها فى دارها تلك الحقيرة الفقيرة ، إلى هذا القصر الشاهق على هذه الربوة الشامخة ، فيأخذها شىء يشبه الدوار حين تفكر فى أن الحبّ قد وثب بها إلى ذلك الفتى المترف الغنى القوى الموفور . ولكن الناس جميعاً يعلمون أن الحبّ لا يحتقر شيئاً كما يحتقر الرفعة والضعة ، ولا يسخر من شىء كما يسخر من تفاوت المراتب والطبقات . وهو قد هبط بالفتى إلى الفتاة أو صعد بالفتاة إلى الفتى ! لا أدرى ولكنه جعل كلاً منهما لصاحبه سيداً وعبداً . وقد انتهى أمر هذا الحبّ إلى أبوى نعيم ، فابتسما له أول الأمر ، لم يريا فيه إلا لوناً من عبث الشباب وسخرا منه بعد ذلك ، لم يريا فيه إلا شيئاً من الجموح فى العبث ، وضاقا به بعد ذلك ، رأيا فيه غلوًّا من الفتى فى هذا الجموح وصارفاً له عما يليق بمثله من الطموح إلى العظيم من الأمر ، وأخذا ينصحان للفتى فى رفق ، ثم فى عنف ، ثم فى إلحاح. ولكن أبا الفتى غلا فى إلحاحه وسخطه حتى انتهى الأمر إلى ما علمت. وانتهى أمر هذا الحبّ إلى أمّ خديجة ، فابتسمت له ابتساما مرًّا ، وفرحت به فرحاً حزيناً ، وهمّت أن تكفّ ابنتها ، ولكن نصحها لم يغن شيئاً ، وهمّت أن تكتم الأمر على الشيخ الحذاء ، ولكن لسان النساء لا يحبّ أن يستقر فى أفواههن ، وهمّ الشيخان أن يكفّا الفتاة ، فلما لم يبلغا شيئاً تواصيا بكتمان الأمر على ابنهما الفتى لأنه كان عنيفاً مخوفاً . والأمر ينتهى إلى غايته ؛ وهذا نعيم قد فُتِنَ بخديجةَ إلى أبعد حدود الفتنة ؛ فهو يعدها ويمنّيها ، وهو يرغّبها ويغريها ، وهو يختطفها آخر الأمر إن صحّ أن يكون سفرها إلى العاصمة اختطافاً ؛ فهى لم تكد تدعى إلى السفر حتى استجابت للدعاء مسرعة واستعدت له متهالكة ، وارتفع الضحى ذات يوم فلم ترَ الأسرة خديجة ، وتقدّم النهار فلم تعرف من أنبائها شيئاً ، وأقبل الأصيل فلم تعد معه إلى الدار ، وتقدم الليل فلم تعد ، وإنما عاد أخوها أحمد ثائراً

يكظم ثورته ، وفائراً يكتم فورته . أقبل متجهما فلم يقل كلمة لأحد ، ولم يلق نظرة على أحد ، وإنما ألقى أدوات عمله فى مكانها من الدار ، واندفع إلى حجرة أبويه فأخذ من عمود الخبز شيئاً التهمه التهاماً وهو قائم لا يقول شيئاً ولا يردُّ على أحد حديثاً . فلما التهم ما كان فى يده من الخبز ألقى نظرة غاضبة على ما حوله ومن حوله ، ثم أدار ظهره ومضى صامتا لا يقول شيئاً ولا يلوى على شىء . قالت محبوبة لزوجها الحذاء فى صوت مرتعد حزين : ما باله ؟ وما الذى عرض له من الخطب ؟ قال الشيخ فى صوت هادئ ثابت يشيع فيه الحزن والغضب معا : افتقد أُخته فلم يجدها ، وترامى إليه بعض ما طوينا عنه من الحديث . قالت محبوبة : وإذن ؟ قال الشيخ : وإذن فهو يسعى فى أثر أخته ، وما أدرى ! لعله لا يعود .

والناس يتمنون ويسرفون فى التمنى ، والأقدار تعبث بهم وبما يتمنون . ذلك أن الناس لا يعرفون إلا أنفسهم وقليلا مما يحيط بهم من الظروف ؛ فهم يدبرون ويقدّرون فى دائرة ضيقة لا تكاد تتجاوزهم إلا قليلا . وآية ذلك أن نعيما كان قد دبّر أمره فأحسن تدبيره ، وقدّر خطته فأحسن تقديرها . لقد أحب الفتاة حبا لم يجرّب مثله من قبل على كثرة ما جرب من العبث واللهو والحب أيضاً ؛ فهو مصمم على أن يحدث حدثا ذا خطر وهو المترف الغنى القوى الموفور . سيهبط إلى هذه الفتاة اليائسة البائسة الفقيرة الحقيرة ، فيتخذها لنفسه زوجا ويقسم بينها وبينه ما أتيح له من ترف وشرف وقوة وثراء . وهو قد قدّر غضب أبويه وعرف كيف يستعد للتخلص من أعقاب هذا الغضب . وهو قد قدّر ما بينه وبين الفتاة من اختلاف المنزلة وبعد الأمد ، وعرف كيف يستعد لإلغاء هذه المسافة البعيدة . أليس قد اختطف الفتاة فباعد بينها وبين قريتها وبيئتها وأهلها ليخلقها فى العاصمة خلقاً جديداً ! لقد دبّر وقدّر وأحسن التدبير والتقدير ، واطمأن إلى أنه بالغٌ بحبه ما أراد له من الأمن والثقة ، ومن الدعة والهدوء . ولكنه لم ينس إلا شيئاً واحداً ، وهو أن لهذه الفتاة أخا فى مثل سنه ليس مترفا ولا غنيا ولا قويا ولا موفوراً ، وهو من أجل ذلك حاقد حانق ، قد ملأ السخط قلبه وملك الغيظ نفسه ، فرآه الناس إنسانا مثلهم يغدو ويروح ويعمل فى الحرث والزرع ، ورأته الطبيعة شيطاناً مريداً ينتظر أن تتاح له الفرصة ليملأ الأرض من حوله شرًّا ونكراً . وقد أتيحت له الفرصة ؛ فهذه أخته التى

كان يحبها وحدها من دون الناس ويؤثرها بقلبه كله ونفسه كلها، قد غوت وهوت . أغواها ذلك الفتى المترف الغنى القوى الموفور . وإذن . . . وإذن ففى نفس الوقت الذى انصرف فيه نعيم عن الشاعر فرحاً حزيناً ومسروراً كئيباً، ونهض الشاعر فيه مسرعاً يرقى إلى القصر ليلقى صاحبه فى مكتبه ذاك، فى نفس هذا الوقت وقبل أن يصل الشاعر إلى صاحب القصر يستفيض فى القرية الحقيرة الفقيرة البائسة نبأ يملؤها خوفاً وروعا؛ فقد لحق أحمد بأخته فى العاصمة وقتلها وأسلم نفسه للشرطى معترفاً بأنه اقترف هذا الإثم دفاعاً عن عرضه المكلوم .

فلندع القرية تتسامع بهذا النبأ وتتبادل الحديث فى تفسيره وتأويله، ولندع الأبوين وقد أخذتهما الصاعقة حين أتاهما هذا النبأ، ولنعد مسرعين فنصعد إلى الربوة من أقصر الطرق المؤدية إليها، فسنرى الشاعر قد ارتقى سلَّم القصر . ولم يكد يبلغ البهو الأول من أبهائه حتى رأى نفسه فى مرآة هناك، ورأى أنه معتدل القامة يمشى على اثنتين، فما أسرع ما ينحنى على العصا، وما أسرع ما يدور فى رأسه هذا البيت كأنه يسمعه من صاحب القصر :

وتقول بوزع قد دببت على العصا   هلاَّ هزئت بغيرنا يا بوزع

[يتبع]   طه حسين

مشكلة الهند

تنص المادة ٧٦ من قانون هيئة الأمم المتحدة — وهى المادة الخاصة بنظام الوصاية — على : « أن تكون الأهداف السياسية لنظام الوصاية هى ترقية هذه الأقاليم وشعوبها فى النواحى السياسية . . . واطراد تهيئتها للحكم الذاتى أو للاستقلال . . . » وفى الماضى القريب نصت المادة الثانية والعشرون من ميثاق عصبة الأمم على : « أن يكون الغرض الأساسى من الانتداب سعادة الشعوب المحكومة وترقيتها ، حتى تستطيع هذه الشعوب النهوض بنفسها والوقوف على قدميها » .

وفى الحالتين لم تشأ الدول أن تنص على أقصى زمن تستغرقه الشعوب المقول بأنها قاصرة فى اجتياز مرحلة الانتداب أو الوصاية أو الحماية أو الاستعمار . فقد ظلت انجلترا مثلا تحكم فى الهند — إما حكما مباشراً أو بواسطة شركة الهند الشرقية الإنجليزية — نحو قرنين من الزمان ؛ ومع ذلك فها هى ذى انجلترا اليوم وقد أملت عليها الظروف ضرورة تعليم أهل الهند زمام الحكم فى بلادهم ، تتلفت يميناً ويساراً باحثة بدون جدوى عن الهيئة التى أعدتها للحكم والاستقلال ، فلا ترى أمامها ولا يرى العالم كله فى الهند سوى طوائف تقتتل ، ومعارك شعبية تستعر ، وشيع وجماعات متنافرة متطاحنة تكاد من عنف انقسامها على نفسها تجر البلاد وأهلها إلى حرب أهلية جامحة لاتبقى ولا تذر .

وتسأل عما فعلته الحكومة المتفوقة طوال هذين القرنين ، فيكون جواب بعضهم أنها سياسة « فرّق تسد » التى سارت عليها حكومة المستعمرين ، ويقول آخرون إن الذنب ليس ذنب الحاكم وإنما هو ذنب الهنود أنفسهم ؛ فهم بحكم اختلاف أجناسهم ولغاتهم ومللهم لايصلحون للحكم القومى الموحد . وقد يكون بعض هذا أو ذاك صحيحاً ، ولكن الشيء المؤكد الذى يؤيده الواقع

هو أن الحاكم الأجنبي مهما خلصت نياته واستنارت سياسته ، ومهما أوتى من الاستعداد الادارى والفنى ، فإنه ينساق حتما بحكم المنطق وبقوة غريزة الأثرة والدفاع عن النفس إلى قمع الروح الوطنية أو القومية فى البلاد التى يحكمها ، وإرجاء إصلاحها سياسيًّا ، حتى يرغم على ذلك إرغاما ، إما بالثورة من جانب المحكومين ، وإما انصياعا لعوامل القلق على مصيره فى أوقات الحروب أو حين يستشعر خطر الحرب .

ولقد كانت الفكرة المتسلطة على الحكومات المستعمرة إلى زمن قريب أنهم ماداموا قد سبقوا غيرهم من الشعوب الضعيفة فى ميدان الانقلاب الصناعى ، وتفتحت أمامهم سبل التجارة والاستعمار فى أرجاء آسيا وإفريقية ، فإن تفوقهم فى تلك البلاد لابد أن يبقى إلى ما شاء الله . وفاتهم أن المعرفة ليست لها حدود أو حواجز ، وأن اختراع الطباعة وسرعة المواصلات الحديثة كانا كفيلين بنقل الآراء والبحوث والعدد والآلات إلى طلابها من مختلف جهات المعمورة ؛ فلم يكن هناك بدٌّ من انعدام الفوارق العقلية والثقافية مادام الدليل لم يقم بعدُ على أن عقول أهل البلاد المتفوقة أو استعداداتهم الفطرية ستبقى على مر الدهور أرقى من عقول سائر البشر ! حتى فى الأمم العريقة التى كانت لها مدنيات وإمبراطوريات فى الزمن القديم أو المتوسط ، ثم أصابها الضعف فترة من الزمن فاستكانت حيناً ثم أفاقت وقامت تطالب من جديد بحقوقها المهضومة ، وتنافس مستعمريها فى الميادين التى كان لهم فيها تفوق ملحوظ .

لذلك ما كادت الآراء والمخترعات الحديثة تنتشر بين الناس فى أواخر القرن التاسع عشر حتى تعاقبت الأحداث وتوالت النُّذُر بأن الشعوب المغلوبة على أمرها لابد أن تنهض فى يوم قريب وتقف على قدميها ، سواء أراد الحكام لها ذلك أو لم يريدوه ؛ لأن الحاكم إذا وقف أو توانى فى الإصلاح استحثته من ورائه القوى التقدمية ؛ فإن العالم الحديث بعلومه واكتشافاته وتجاريبه فى حركة دائمة دائبة يحس بها الناس جميعاً سواء منهم السابقون فى المدنية والمتأخرون . ولقد أثبت المتأخرون فى أوائل القرن العشرين تفوقهم فى امتحان القوة الحربية والبحرية أمام أضخم دولة حربية فى أوربا إذ ذاك وهى روسيا ؛ إذ انتصر اليابانيون على الروس برًّا وبحراً فى سنة ١٩٠٥ .

وخرجت اليابان الآسيوية من الحرب فى الصف الأول بين الدول العظمى

وتهافتت عليها الدول الغربية تخطب ودها ، على حين نزلت سمعة روسيا الأوربية إلى الحد الذى عجل بتغلغل عناصر الثورة فى داخلها .

وكان انتصار اليابان على روسيا بمثابة ناقوس عظيم دق وجلجلت دقاته وسط هضاب آسيا وسهولها ، وترددت أصداؤه فى جنبات الشرق كله ، فأيقظت الشعوب المغلوبة الراقدة ، وملأت قلوب القوم ثقة بأنفسهم وأملا فى مستقبلهم وعزيمة ماضية فى العمل لتخليص بلادهم من ذل الاستعمار ووصمة الحكم



الأجنبى . ففى أوائل القرن العشرين قامت الثورة فى إيران وفى تركيا ، وقويت فى مصر الحركة الوطنية أثر حادث دنشواى ، فتألفت فيها الأحزاب الوطنية ونحى عن العمل لورد كرومر المعتمد البريطانى الذى سيطر على البلاد بقوة الاحتلال قرابة أربعة وعشرين عاما .

أما فى الهند فقد نشطت فى أوائل هذا القرن حركة المؤتمر الهندى الوطنى ، وقام الوطنيون ينقمون على الحكومة المستعمرة سياستها فى إغفال آلاف من

الوطنيين الذين تخرجوا فى المدارس والجامعات ، وتركهم متعطلين بلا عمل فى إدارات الحكومة أو الشركات ، حتى تضاعفت أعدادهم وعلت صيحاتهم ، وأصبحوا أداة صالحة طيعة للانخراط فى سلك الجمعيات السرية التى تألفت للفتك بالمستعمرين والانتقاض على قوانين الحكومة .

وأولى الهيئات التى لها فضل إيقاظ الشعور الوطنى فى الهند المؤتمر الهندى الوطنى الذى تألف فى سنة ١٨٨٥ ، وكان الداعى له موظف إنجليزى متقاعد آثر البقاء فى الهند وأسس جريدة أسماها « صديق الشعب » ، وأصدر فى سنة ١٨٨٣ دعوة إلى الهنود يطلب فيها خمسين رجلا وطنيا صادقا يؤلفون حزبا سياسيا يبحث فى كل مايرقى بالهند إلى مصاف الدول المتمتعة بالإستقلال الذاتى . وكان غرضه من تأليف الحزب ، كما أوضح ذلك للحاكم العام ، أن توجد فى البلاد هيئة تعبر عن مطالب المثقفين من الهنود ، وتتيح للوطنيين مجالا حرًّا ينفّسون فيه عما يجيش فى صدورهم من آلام وآمال . وكان أول اجتماع للمؤتمر فى بمباى سنة ١٨٨٥ ، وتألف الحزب إذ ذاك من نحو سبعين عضوا كانوا النواة لتلك المؤسسة الوطنية الهائلة التى حملت رسالة الهند ورفعت علم الوطنية الهندية عاليا بين الشعوب . وها هم أولاء أعضاء حزب المؤتمر يضطلعون اليوم بعد كفاح دام ستين عاما بمصاير الهند ويمسكون بزمام الحكومة فيها .

وإزاء هذا التيار الوطنى الجارف اضطرت الحكومة البريطانية إلى أن تجيب الهنود إلى بعض مطالبهم ، فعينت فى سنة ١٩٠٧ عضوين هنديين بمجلس الهند الذى كان يساعد الوزير الإنجليزى المسئول عن شؤون الهند ، وكان أحدهما هندوكيا والآخر مسلما . وفى سنة ١٩٠٩ صدر قانون بزيادة عدد الأعضاء غير المعينين بالمجالس التشريعية فى الأقاليم ، وأصبح من اختصاص هذه المجالس بحث الميزانيات وإصدار قرارات بشأنها دون أن يكون لها حق إقرار الميزانيات أو رفضها . وكذلك زيد عدد أعضاء المجلس التنفيذى الذى يعاون الحاكم العام وعين به عضوان هنديان .

ومع ذلك ظل الشعور الهندى ناقما وثائراً على المستعمرين . وكان الهنود كلما ازدادت ثقافتهم وارتفع مستواهم ازدادوا شعوراً بعار الاستعمار ، ونفرت نفوسهم من الإنجليز الذين ترفعوا عن الاختلاط بهم وأنزلوهم منزلة دنيا فى نظر الأجانب المقيمين فى الهند وفى نظر الناس جميعاً . وقد أثار سخط

الهنود بصفة خاصة ما كان العمال الهنود يلقونه من عنت وإجحاف فى جنوب إفريقية . وكان من مظاهر هذا العنت الذى يلقونه صدور قرار فى سنة ١٩١١ بمنع هجرة الهنود إلى ناتال . وقد رأى الهنود فى كل ذلك استبداداً بهم وخنقاً لحريتهم وحطا من كرامتهم ، فنشطت الجمعيات السرية ، وانتقل من أوربا إلى الهند سلاح القنابل ، فأخذ الطلاب يصنعونها ويتدربون على استعمالها ، واختاروا يوم الاحتفال بدخول الحاكم العام عاصمته الجديدة فى دهلى بدل كلكتا فى ديسمبر سنة ١٩١٢ ، فألقوا على الهودج الذى كان به الحاكم وقرينته فوق ظهر أحد الفيلة ، قنبلة أصابت الحاكم فجرحته ، وأصابت حارسه فأردته .

ثم جاءت الحرب الكبرى فوقف الوطنيون كفاحهم مؤقتاً ، وانحاز الأ.. ء الهنود إلى جانب بريطانيا بحماسة تجلت فيما قدمته الهند للحرب من جهود ومال ورجال طوال مدة الحرب ، حتى بلغ مجموع ما أرسلته من الجيوش ٨٠٠،٠٠٠ رجل محارب و ٤٠٠،٠٠٠ غير محارب فضلا عن مائة مليون جنيه تبرعت بها حكومة الهند ، وعما قدمته البلاد من مؤن وذخائر وأغذية .

وفى أثناء الحرب العالمية الأولى ظهر عاملان جديدان كان من شأنهما أن يمهدا الطريق لحركة الهند الوطنية الأخيرة . أما العامل الأول فهو إعلان فكرة الاستقلال الذاتى أو Home Rule وهو اصطلاح اشتقه الهنود من الحركة الارلندية . وكانت الجهود قبل ذلك متجهة إلى طلب زيادة اشتراك الهنود فى المجالس والإدارات ، فأصبحت ترمى إلى الاستقلال الذاتى وتنادى به . وقد سارت فى طليعة هذه الحركة مسز بيزانت Mrs. Besant وهى سيدة انجليزية غريبة الأطوار ، استخدمت استعدادها فى الخطابة وقدرتها على تنظيم الأعمال فى قيادة حركة هندية صرفة ، فرأست رابطة «الهوم رول» ، واختيرت فى سنة ١٩١٧ رئيسة للمؤتمر الوطنى . وكانت هذه الحركة هى التى مهدت لظهور غاندى ودعوته إلى استقلال الهند أو « سواراج » الذى صار فيما بعد «پرنا سواراج» أو الاستقلال التام .

أما العامل الثانى فهو ظهور الحركة الإسلامية واندماجها مؤقتاً فى الحركة الوطنية . وذلك أنه لما دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ظن الهنود المسلمون فى أول الأمر أن الحلفاء يتربصون بالخلافة الإسلامية الدوائر

ويبيِّتون لها أسوأ العواقب . ومع أن الحلفاء نجحوا إلى درجة ما فى تهدئة مخاوف المسلمين فى أثناء الحرب ، فإن هؤلاء ما لبثوا أن رأوا بعد الحرب كيف قسا الحلفاء على تركيا فى فرض شروط معاهدة سيفر ، وكيف مزقوا أوصال الإمبراطورية العثمانية ، حتى احتلوا إسطنبول عاصمة الدولة حينذاك ، وأذنوا لليونان باحتلال منطقة المضايق ، واقتطاع جزء كبير مع فرنسا وإيطاليا من الأناضول . فثارت ثائرة المسلمين فى الهند وقاموا بزعامة الأخوين شوكت ومحمد على يؤيدون الحركة الوطنية فى الاستقلال ، وكانوا قد دعموا هذا التأييد باتفاق المؤتمر الوطنى والرابطة الإسلامية فى مدينة لكنو فى ديسمبر سنة ١٩١٦ على توحيد أهدافهم ؛ وأعدوا مشروعا للدستور حددوا فيه عدد المقاعد التى تخصص للمسلمين فى هيئته التشريعية . وكانت تلك الحرب قد دخلت فى مرحلتها الحاسمة الأخيرة ، فرأت الحكومة الإنجليزية أن تطمئن الرأى العام الهندى ، فصرحت رسميا بأنها تعتزم أن تشرك الهنود بكثرة فى جميع أعمال الإدارة ، وأن تهيئ البلاد تدريجا للحكم الذاتى ، ثم تؤلف حكومة هندية مسئولة داخل نطاق الإمبراطورية البريطانية .

ثم أعلنت الهدنة فى سنة ١٩١٨ وأصاب الهند ما أصاب كافة البلاد المغلوبة على أمرها عقب الحرب الكبرى وإعلان مبادئ الرئيس ولسون الأربعة عشر ؛ فقد اكتسحت البلاد موجة غضب وسخط شملت جميع الطبقات ، وقد ازدادت العاصفة عتوًّا على أثر صدور قوانين جديدة سنتها الحكومة لتخويل رجال الإدارة سلطات استثنائية للقضاء على أنصار حركة الاستقلال الوطنية . فساء الهنود أن تكون مكافأتهم بعد إحراز النصر أن يشدّد عليهم الخناق وتوءد حرياتهم بمثل هذه القسوة .

وفى وسط هذه العاصفة الجامحة ظهر غاندى يدعو الناس إلى الإيمان بقوتهم الروحية ، وإلى تطهير نفوسهم بتحمل الآلام والحرمان فى سبيل بلادهم . وبذلك مزج غاندى عقيدة روحية قريبة إلى متناول العقلية الهندية بمذهب سياسى يلائم هذه العقيدة ، وهو خدمة البلاد من طريق العصيان المدنى وعدم التعاون مع المستعمرين . وهذه الخطة وإن كانت جديدة مبتكرة فى اعتبار السياسة قد كانت معروفة فى إنجيل الثائرين فى دوائر الصناع والعمال ؛ فهى فى حقيقة الأمر إضراب عن العمل ترجمه غاندى إلى السياسة الوطنية ، وقد عرفت

الاضرابات فى عالم الصناعة فى أوربا وأمريكا منذ أواخر القرن التاسع عشر. وقد ساعد على نجاح هذه الحركة فى الهند أنها لا تدعو إلى استخدام العنف. والهندوكيون بخلاف المسلمين فى الهند أقوام سلبيون منطوون على أنفسهم لا يميلون بطبيعتهم إلى العنف. وقد تدرجت فكرة العصيان المدنى من تمرد على القوانين الظالمة إلى عصيان عام، حتى إذا وصلت الدعوة إلى عامة الناس خرجوا عن أطوارهم ولم يكبحوا جماح نفوسهم، فقامت ثورة فى البنجاب شبيهة بثورة مصر سنة ١٩١٩ إذ هاجم الثوار السكك الحديدية وعطلوا خطوطها كما قطعوا أسلاك البرق والتلفون. وبلغت الثورة أسوأ مراحلها فى مدينة أمرتسار حيث اقترف رجال الحكومة جريمة سودت صحيفة الاستعمار فى الهند، إذ انقض القائد العسكرى للمنطقة على اجتماع للوطنيين كانوا قد عقدوه من غير ترخيص، فأوجس القائد خيفة وأمر رجاله بمهاجمتهم فقتلوا من الوطنيين ٤٠٠ نفس وجرحوا ثلاثة أمثال هذا العدد. وكان هذا الحادث أول تدشين بالدم لسياسة عدم التعاون التى أعلنها غاندى، وقد أصبح فى سنة ١٩٢٠ رئيساً للمؤتمر الهندى وأسبغ عليه الشعب من القداسة ما أهله للقب «المهاتما» أو الروح الأعظم.

ولما استفحل أمر الاضطرابات فى مختلف أنحاء الهند قُبض على غاندى أول ما قبض عليه فى مارس سنة ١٩٢٢ وحكموا عليه بالسجن ست سنوات، ولكنهم أفرجوا عنه فى سنة ١٩٢٤ وعاد رئيساً للمؤتمر، ثم ترك العمل لإخوانه فى المؤتمر واكتفى هو بالإرشاد والإيحاء. وفى هذه الأثناء كانت البلاد تسير قُدماً نحو أهدافها الوطنية؛ فالمجالس التشريعية قد أتاحت الفرص لعدد من الوطنيين يشتركون فى التشريع لبلادهم. وفى هذه الاثناء أيضاً نشطت حركة تحرير النساء الهنديات؛ فبعد أن كن يفتخرن ببقائهن محجبات فى بيوتهن ظهرت أولى زعيمات الهنديات السيدة نايدو الشاعرة وقد اختارها الهنود رئيسة للمؤتمر الوطنى سنة ١٩٢٦، وأخذ الرجال يصحبون زوجاتهم فى مقابلاتهم ومجتمعاتهم، وبدأت المرأة الهندية تقوم إلى جانب زوجها أو أخيها بنصيبها الفعال فى النهضة والأخذ بيد المرأة الهندية التعسة.

وفى هذه الأثناء ظهر عامل قومى آخر على جانب عظيم من الأهمية؛ ذلك أن فى الهند عدداً كبيراً من الطبقات المنبوذة يحسبون من الهندوكيين وإن كانت اعتقادات الهنود الدينية والاجتماعية تحرم اختلاط الطبقات بالزواج أو بالمصاهرة

أو بالمخالطة فى الطعام أو بالتحول من دين إلى آخر أو من مستوى اجتماعى إلى مستوى آخر . ويبلغ عدد هذه الطبقات خُمس عدد الهندوكيين أو سبع مجموع سكان الهند . وأفراد هذه الطبقات لا يسمح لهم بالاجتماع مع الآخرين حتى فى معابدهم كأنما فرض عليهم أن يبقوا مطرودين خارج النطاق الاجتماعى لذلك تحول كثير منهم إلى الإسلام أو المسيحية لكى يخرجوا من جحيمهم المقيم . وقام غاندى يدعو أتباعه إلى العطف على هذه الطبقات والتخفيف من القيود التى يرزحون تحتها منذ قرون . وقد جاء الدستور الأخير وفيه اعتراف بحق تمثيلهم فى المجالس التشريعية ، وقد اختير واحد منهم فى أثناء الحرب الأخيرة فى المجلس التنفيذى للحاكم العام .

وفى سنة ١٩٢٩ كانت اللجنة التى ألفتها الحكومة الإنجليزية برياسة سير جون سيمون لبحث دستور الهند تعمل جاهدة لدرس أحوال الهند واستطلاع آراء الزعماء وكبار الموظفين والمشتغلين بشؤون الهند ، بقصد الوصول إلى دستور صالح للبلاد . وكان الهنود قد قاطعوا اللجنة فى أول حضورها إلى الهند ، ولكن اللجنة ثابرت ودأبت على العمل مدة ست سنوات . وفى أثناء ذلك عقد مؤتمر المائدة المستديرة فى لندن سنة ١٩٣١ — ١٩٣٢ لدراسة موضوع الدستور ، واستدعى غاندى لحضور بعض جلساته ، ولكن المؤتمر لم ينته إلى نتيجة يرضاها ، فلما عاد إلى الهند تجددت الاضطرابات ، فاعتقل غاندى سنة ١٩٣٣ وأفرج عنه فى السنة التالية ، وقد أعلن بعد ذلك اعتزاله للسياسة ، ولكنه بقى الملهم والمحرك لجهود المؤتمر الوطنى إلى النهاية .

وأخيراً أعلن الدستور الحديث ، وهو أداة الحكم فى الهند إلى الآن . وهاك موجزاً لهذا النظام :

بالهند نوعان من الولايات : ولايات تحكمها بريطانيا وعددها إحدى عشرة ولاية مجموع عدد سكانها ٣٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس من مجموع سكان الهند الذين يبلغون ٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس ، وإمارات يحكمها أمراؤها الهنود من مسلمين وهندوكيين وعددها يبلغ نحو ستمائة . والولايات يحكمها حكام عامون تعين منهم حكومة جلالة الملك ثلاثة لأكبر هذه الولايات وهى البنغال وبمباى ومدراس . أما الولايات الثمان الباقية فيعين فيها من كبار موظفى حكومة الهند ، ومدة توليتهم خمس سنين . ولكل إمارة إدارة مستقلة لها جيشها ونظامها الخاص ماعدا الشؤون

المالية والبوليس والعملة فهى متناسقة فى أنحاء الهند جميعها ، وكذلك فى القضاء العالى . وإلى جانب كل أمير مستشار ، أو مقيم عام فى الإمارات الكبرى، وضابط اتصال بريطانى فى الإمارات الصغرى . وعلى الأمراء أن يستشيروهم ويعملوا بنصائحهم فى العظيم من الأمور . والسيادة فى هذه الإمارات جميعها للملك الإمبراطور . والحاكم العام للهند ، أو نائب الملك ، هو الواسطة التى تربط بين الولايات والإمارات ، وبين الأمراء والتاج البريطانى . وللأمراء جمعية تعقد سنويًّا فى دهلى عاصمة الهند برياسة الحاكم العام للتداول فى الشؤون المشتركة بينهم . ولكن كبار الأمراء مثل سلطان حيدر آباد المسلم ، وهى أكبر إمارة فى الهند ، وسلطان ميسور ، وحاكم بارودا ، لا يحضرون هذه الاجتماعات والأمراء لا يلتزمون تنفيذ ما يصدر فى هذه الاجتماعات من قرارات .

ولكل ولاية بريطانية هيئة تشريعية يعين بعض أعضائها بحكم وظائفهم ، وينتخب الآخرون وفقاً لقانون يحدد عدد الذين لهم حق التصويت . ومن الهيئات التشريعية الإقليمية يختار الحكام العامون وزراءهم . وللحكام حق الاعتراض أو الفيتو ، أى لهم أن يقفوا تنفيذ القوانين التى تقرها الهيئات التشريعية والتنفيذية إذا كان فى تنفيذها ضرر للصالح العام بحسب مايراه الحكام . والولايات حرة فى أنظمتها ، وفى تعيين موظفيها ، فيما عدا الوظائف الكبرى .

والحاكم العام للهند أو نائب الملك هو الملاذ الأعلى للبلاد ، فإليه يرجع الحكام العامون عند اختلافهم مع وزرائهم ، وبيده وحده التصرف فى شؤون الدفاع والخارجية والدين .

ويساعد الحاكم العام هيئة تنفيذية كانت مكونة فى أثناء الحرب من ١٢ وزيراً منهم ثمانية من الهنود ، فأصبحوا فى نهاية الحرب ١٤ منهم ٦ من الهندوكيين و ٥ من المسلمين و ٣ من الطوائف الأخرى . ورئيس هذه الهيئة التنفيذية نائب الملك ، ووكيله الآن هو الرئيس الهندى جواهر لال نهرو . وهناك جمعية تشريعية مركزية تتألف من ١٠٢ عضو منتخب و ٢٦ عضواً يعينون بحكم وظائفهم و ١٣ يختارهم الحاكم العام لتمثيل الطوائف الأخرى .

وينص النظام على أن تكون فى البلاد هيئة تشريعية اتحادية تمثل جميع الهند . ولكن هذا النظام الاتحادى لم ينفذ لخوف الهنود من فقد سلطانهم

من جهة ، ولاختلاف مصالح الطوائف الهندية فى الأقاليم المختلفة من جهة أخرى .

وليست الإمارات ملزمة باتباع النظام الدستورى الذى تسير عليه الولايات البريطانية ، ولكن بعضها ينفذه ، وتعتبر حكوماتهم نماذج طيبة للحكم الصالح . ولكن الوطنيين الهنود يكرهون نظام الأمراء بصفة عامة ويعتبرون حكوماتهم مناقضة للمبادئ الديمقراطيـة الاشتراكية التى يودون السير على منهاجها متى تسلموا زمام الأمور .

ولما بدئ بتنفيذ النظام الدستورى الجديد فى سـنة ١٩٣٥ اكتسح رجال المؤتمر الهندى الانتخابات فى ست ولايات من الولايات الإحدى عشرة ، ثم انضمت إلى المؤتمر ولايتان فصار له ثمانى ولايات وللمسلمين ثلاث ، وكان أعضاء المؤتمر فى أول الأمر قد قاطعوا الحكم ورفضوا الاضطلاع بأعباء الوزارات فى الولايات التى فازوا فيها ، فتألفت فيها حكومات ائتلافية من عناصر الأقليات . وكانت حجتهم فى المقاطعة عدم رضاهم عن تمتع الحكام العامين بحق الاعتراض ، فأصبح وجودهم بالمجالس التشريعية بمثابة احتجاج صارخ على النظام الدستورى القائم ، وخلقوا بموقفهم السلبى من الحكومات مشاكل ومتاعب لم تنته إلا فى سنة ١٩٣٧ حين رأى المعتدلون من أعضاء المؤتمر ضرورة الاضطلاع بالحكم فى الولايات التى لهم فيها الكثرة . وبقى المتطرفون من أعضاء المؤتمر خارج الحكم ممسكين بزمام الأمور من كثب فى اللجنة التنفيذية للمؤتمر ، وهى التى يطلقون عليها « القيادة العليا » ، وتضم عادة عناصر عرفت بشدة المراس والاستبداد فى الرأى ، وكلمتها هى القانون عند الجميع . وعلى ذلك سنحت لرجال المؤتمر الوطنى فرص لإدخال إصلاحات شعبية كثيرة فى الأقاليم ، ولو أن المسلمين والبارسيين وغيرهم من طوائف الأقليات قد أخذوا عليهم أنهم فى الولايات التى تفوقوا فيها حابوا الهندوكيين وأقصوا المسلمين وغيرهم عن كثير من المناصب والمجالس ، وراعوا الثقافة الهنـدوكية فى المدارس ، وصبغوا بعض تشريعاتهم باللون الاشتراكى الأحمر .

ولما أعلنت الحرب الأخيرة فى سنة ١٩٣٩ تنحى رجال المؤتمر عن الحكم فى الأقاليم احتجاجا على أن الحكومة لم تستطلع رأيهم فى إعلان الحرب ، كما أنها لم تعلن صراحة عن أغراضها من الحرب ، ولم تفصح عما تعتزمه بشأن استقلال

الهند . وفى الحال أعلن نائب الملك وقف دستور سنة ١٩٣٥ وعاد الحكام يضطلعون بجميع السلطات فى الأقاليم .

ثم تحرجت الحال فى الشرق الأقصى عقب دخول اليابان فى الحرب فى ديسمبر سنة ١٩٤١ وانقضاضها على سنغافورة وجزر الهند الشرقية وبورما . وقد كان اليابانيون على مقربة من حدود الهند من الشمال الشرقى ، وكانت بيدهم جزر أندمان فى خليج بنغال على بعد مائتى ميل من ساحل بورما ، وكانت سفنهم الحربية تجوب مياه ذلك الخليج ؛ ومع ذلك ظلت حكومة الهند وسط هذه العواصف راسخة كالطود . وأرسلت الحكومة الإنجليزية فى مارس سنة ١٩٤٢ الوزير الإنجليزى سير ستافورد كريس Stafford Cripps ليطمئن الهنود على مستقبلهم ، ويعلن عزم إنجلترا على منح الهند نظام الدومنيون أو الحكم الذاتى الكامل التى تتمتع به ممتلكات التاج البريطانى الحرة ، على أن يترك للهنود أنفسهم أن يصوغوا الدستور الذى يوافق حاجات بلادهم بضمانات معينة . فرحب الأمراء بالعرض البريطانى ، وأبى الوطنيون إلا أن يتولوا مقاليد الحكم فى البلاد بدون إبطاء . أما الرابطة الإسلامية فأعلن زعيمها السيد محمد على جناح رفضه لأى نظام اتحادى للهند ، وصرح أن الرابطة ترمى إلى تأليف وحدة إسلامية باسم « پاكستان » من الولايات التى كثرتها من المسلمين . ومن ذلك الوقت اتسعت هوة الخلف بين المؤتمر الهندى الوطنى والرابطة الإسلامية .

وكان اليابانيون فى أثناء تفوقهم فى شرقى آسيا قد أثاروا الشعور الوطنى أينما حلوا أو حل صنائعهم ضد الأوربيين والجنس الأبيض عامة ، ونادوا بأن آسيا لن تكون فى المستقبل إلا لأهل آسيا . وترددت أصداء هذه الدعاية فى الهند ، فوجدت آذانا صاغية ، وقامت فى يوليه ١٩٤٢ حركة جهاد وطنية بزعامة بوز الهندى ، وكان على اتفاق مع اليابان والألمان على إعلان استقلال الهند وضم الهنود إلى صفوف المحور . وقد سار وراء هذا الزعيم نحو خمسة وعشرين ألفا من الهنود والأسرى الذين كانوا تحت أيدى اليابانيين ولكن الحكومة ما لبثت أن قمعت الحركة بشدة ، فقبضت على الزعماء الهنود وأعلنت عدم شرعية الهيئات الوطنية التى ينتسبون إليها ، وقتل فى هذه الحركة نحو ٦٠٠ نفس وزج فى السجون نحو عشرين ألفا من الهنود . أما زعيم الحركة فقد استطاع الفرار على متن إحدى الطائرات المعادية .

ثم لم تلبث أن لاحت فى الأفق بشائر النصر لقوات الحلفاء ، فهدأت الحال فى الهند ، وأعلنت الحكومة الإنجليزية بقاء الباب مفتوحا للمفاوضة مع الهنود بشأن قضية الاستقلال والدستور . واستمرت الهند تعاون الحلفاء حتى انتهت الحرب ، وبلغت خسائر الهند أكثر من ١٧٧٠٠٠ نفس منهم أكثر من ٢٣٠٠٠ قتلى . ولما تولت وزارة العمال الحكم فى انجلترا أرسلت بعثة إلى الهند مؤلفة من ثلاثه وزراء ، منهم سير ستافورد كريس ، لبحث مشكلة الهند مع نائب الملك والزعماء . واستقر الرأى فى النهاية على دعوة جمعية تأسيسية تمثل جميع الهند لوضع دستور اتحادى للبلاد ، بشرط ضمان الحريات العامة للجميع وحقوق الأقليات . وتألفت بعد لأى وزارة انتقال ائتلافية ، يتولى فيها وكالة الرياسة الزعيم جواهر لال نهرو ، وقد قبلت الرابطة الإسلامية أخيرا الاشتراك فيها ، ولكنها رفضت أن تشترك فى الجمعية التأسيسية

وقد حاول مستر أتلى رئيس الحكومة الانجليزية التوفيق بين نهرو والسيد جناح زعيم الرابطة الاسلامية ، فدعاهما فى ديسمبر سنة ١٩٤٦ لزيارته بلندن ولكن ذلك لم يُجْدِ شيئاً . وإذا انتهت الجمعية التأسيسية من وضع دستور اتحادى للهند فأكبر الظن أن الحكومة الانجليزية ستدعو الحكومة الهندية المنتظرة إلى عقد معاهدة معها توضح الروابط التى سترتبط بين الدولتين فى المستقبل .

وأوجه الخلاف القائمة الآن بين المعسكرين الهندوكى والمسلم أن رجال المؤتمر الهندى يدّعون أنهم يمثلون كافة طوائف الهند بما فيهم المسلمون ، وأن بالمؤتمر أعضاء مسلمين ، وكان رئيس المؤتمر إلى وقت قريب زعيما مسلما هو مولانا أبو الكلام أزاد ، ويقولون إن انفصال أكثر من تسعين مليونا من الهنود المسلمين سيشل حركة الهند المستقلة فى المستقبل ، وخاصة لأن بالولايات المسلمة أكثر المشروعات الصناعية الكبرى الناجحة ، وبها أيضاً القبائل المشهورة بقوتها واستعدادها الحربى ، فضلا عما فى هذه الولايات من المدن العامرة ومشروعات الرى الكبرى والإنتاج الزراعى الوفير .

أما المسلمون فيقولون إنهم من جنس مخالف للهندوكيين ، وإنهم أمة قائمة بذاتها ، فلهم تاريخهم وتقاليدهم وسابق مجدهم وتفوقهم فى بلاد الهند عدة قرون وإنهم جربوا حكم الهندوكيين فى الولايات التى تألفت وزاراتها من أعضاء المؤتمر

فنال المسلمين منهم عنت واضطهاد عظيمان ؛ فهم لذلك لا يستطيعون أن يضحوا بمصالح أكثر من تسعين مليونا أو أن ينزلوا عن مصالحهم للهندوكيين بدلا من الانجليز .

والحقيقة أن المسلمين والهندوكيين فى الأقاليم الهندية جميعها يتغلغل بعضهم فى بعض ، وقد تأثروا جميعاً بالبيئة التى عاشوا فيها قرونا طويلة ، ومن المتعذر بل يكاد يكون مستحيلا فصل الأقاليم المسلمة عن الأقاليم الأخرى ؛ فللمسلمين الكثرة فى الشمال الغربى وفى الشمال الشرقى ، وبين الجهتين أقاليم شاسعة كثرتها من الهندوكيين ؛ وعلى ذلك يتعذر إيجاد وحدة أو صلة بين الأقاليم الإسلامية .

ولا سبيل البتة إلى تبادل الأقليات كما فعلت تركيا واليونان ؛ فاليونانيون الذين انتقلوا من تركيا إلى بلاد اليونان لم يزيدوا على مليون نفس ، أما المسلمون فى الهند فعددهم تسعون مليونا من الأنفس .

وهناك ، عدا الخلاف الطائفى ، مشكلات على جانب عظيم من التعقيد ، منها حال طبقات المنبوذين ووجود نحو ستة ملايين من المسيحيين الهنود والأوربيين ، فضلا عن الفقر المدقع الذى يطحن عشرات الملايين ، وعن الجهل والمرض والمجاعات التى تهدد البلاد من آن إلى آخر .

يضاف إلى ذلك مشكلة اللغات وفى الهند منها مئات . واللغة الشائعة نوعا هى الهندوستانية أو الأوردو ، وهى التى يستعملها المسلمون والهندوكيون ويكتبونها بالحروف العربية ومن اليمين إلى اليسار ، ويأبى الهندكيون تدولها رسميا اللهم إلا إذا كتبت بالحروف اللاتينية ومن اليسار إلى اليمين وهو أمر يعترض عليه المسلمون أشد الاعتراض . وحينئذ لا تبقى إلا اللغة الإنجليزية وهى اللغة التى يتقنها المتعلمون من الهنود كافة سواء منهم المسلمون والهندوكيون وهى اللغة التى يتفاهمون بها فى اجتماعاتهم ومكاتباتهم . فهل يتفق مع الروح الوطنية أن تكون لغة المستعمرين هى اللسان القومى للحكومة الهندية الوطنية؟

ولا ننس أن العالم كله متجه نحو الوحدة أو الاشتراك الاتحادى ، وقد جاهر كثير من السياسيين أخيرا بضرورة تأليف اتحاد أوربى من مختلف دول أوربا على ما بينها من خلافات فكيف يستساغ أن تنفصل طائفة كبيرة عن جسم الهند ، وأن تنشق الأمة الواحدة إلى شعبين مستقلين !

ومع أنه ليس من عمل كاتب التاريخ أن يتكهن فإن له أن يقيس الأمور

باشباههما فى التاريخ . ويبدو لى أن الحال فى الهند لا تدعو إلى التفاؤل ؛ لأن الانقسام السياسى الواقع الآن يقوم مع الأسف على الخلافات الدينية ، وهى شر ما تنقسم على أساسه الشعوب . وستتطور الأمور فى الهند إلى شئ يشبه ما هو واقع فى إرلندة فكثرة السكان فيها تابعون لجمهورية إرلندة الكاثوليكية وهناك فى الشمال ولاية الستر البروتستنتية التابعة للتاج البريطانى . وتحاول الجمهورية الارلندية الآن أن تضم إليها إقليم الستر فلا تستطيع ذلك للخلاف الطائفى المستحكم بين القسمين . ويبدو أن الحال ستكون كذلك فى الهند ولكن بمقياس أكبر كثيرا .

فالولايات الهندية ستؤلف اتحاداً بينها ينضم إليه كثير من الإمارات الهندية . وقد اقترح الزعيم نهرو أخيراً أن تقرر الجمعية التأسيسية إعلان الجمهورية تشبهاً بما فعلته إرلندة ، وهى دائماً المثال الذى يحتذيه الوطنيون الهنود فى سياستهم نحو بريطانيا ، وتبقى الولايات المسلمة ؛ فقد تحدث المعجزة كما حدثت فى الماضى وتشترك فى الاتحاد بضمانات يتفق عليها . وقد تتشبث الرابطة بسياسة الباكستان كما يتضح من تصريحات الزعيم السيد محمد على جناح . ويصعب أن تنفذ هذه السياسة بغير موافقة الحكومة الإنجليزية سراً أو علانية . فإذا تم ذلك أصبح الباكستان شوكة فى عنق الدولة الهندية المرتقبة ورأس الرمح الذى تصيب به إنجلترا قلب الهند إذا ما استشرى الخطر .

محمد رفعت

يوم فى نيويورك . . .

[فى إبريل الماضى رحل الكاتب إلى أمريكا تقله إحدى الطائرات . وهو فى هذا المقال يصور مشاهداته ويسجل خواطره فى اليوم الأول . يوم هبطت به الطائرة فى نيويورك . . .]

. . . تركنا الطائرة مهرولين .

واجتزنا ممشى مظللا كأنه عريش بستان ، ثم بلغنا مبنى المطار : حُجَر وممرات تمتاز بالطابع الأمريكىّ ، ساذجة فى جمالها وحسن تنسيقها . . . وحللنا حجرة ليست بالفسيحة ننتظر ، وتفرق فى جوانبها الرفاق جماعات شُغِلت كل منها بشأنها ، ولبثنا ننتظر ، وطال علينا الأمد ، فَلُذنا بسلاحنا الماضى الكريم : الثرثرة ننفى بها عن نفوسنا ملل الانتظار .

وكان يمر من بيننا أمريكىّ قمِىء من موظفى المطار ، يخطو بين الجماعات خُطاً متزنة ، غير موجه نظره إلى أحد ، ولا يكاد يطويه الباب حتى يعود ثانية يذرع الحجرة ويجوس خلالها لا يعنيه من أمرنا شىء . وكان كلما ظهر تعلقت به أنظارنا تستنجده . وظل بين جيئة وذهاب على نحو أثار السخط والعجب . أفى شغل عنا هو حقا ؟ إن بين هؤلاء الموظفين من يُشبع بمثل تلك المظاهر الكاذبة رغبات نفسه الطموح !

وأخيراً تعالى صوت ينادى أسماءنا . . .

ومثلنا لحظات قصيرة أمام الطبيب ، ذلك الفتى الفارع ، المشرق الوجه ، يؤنسنا بابتسامة ترحيب ، ويعفينا من مضايقات الفحص والسؤال . . .

وتجمعنا فى مقصف على الأسلوب الأمريكى أنيق رشيق ، تبلّغنا فيه بأشتات من الشطائر والفطائر ، واحتسينا أقداح القهوة . . .

وتمت إجراءات « الجمرك » على أيسر وجه ، حتى إنى راجعت نفسى فى أمر هذه المؤسسة ، وبدا لى أنها مؤسسة عظيمة جليلة الفائدة والنفع !

وانصرفنا عن «الجمرك» خلفنا الزنوج يحملون حقائب المتاع ، وركبنا سيارة أجرة ذكّرتنا بفخامتها وأناقتها عربة الخيل التى طافت بنا أحياء باريس . . .

« وبضدها تتميز الأشياء » !

وأحسست مشاعرى تهتز وتهتاج اهتياج مشاعر الطفل أمام جديد مستور بدأ يتكشف له .

وثارت بى ثورة تطلع وفضول ، فكنت أبعثر النظرات حولى فى تعجل أخشى أن يفلت منى شئ ، فإذا بى يَنِدّ عن نظرى أعظم شئ . . . إنها رقعة من الأرض شاسعة ، خُطّت فيها طرق ممدودة معبّدة تنتهبها السيارات انتهابا ، وإنها جسور عظيمة تعلو بنا وتهبط ، تتقاذفنا جسراً بعد جسر . ولكن أية جسور هذه ؟ أعلى الماء هى أم على أديم الأرض ؟ لا أكاد أتبين الأمر !

وبدأنا ندخل منطقة المبانى ، فكلما أوغلنا فيها تكاثفت وتعالت . . . ورأينا الطرق تزدحم بالسابلة ، فأخذت سيارتنا تهدئ من سيرها ، حتى ألفينا أنفسنا بين نواطح السحاب . وخُيِّل إلىّ أننا فى سفينة بدأت تجتاز خليجاً تقوم على جانبيه شوامخ الجبال !

إنه حقاً لشعور غريب ، ذلك الذى يستولى على المرء حين يشرئب بعنقه وهو يمر بين هذه الصروح الشاهقة . . . إن المرء ليحس نفسه قد تصاغر وتكمّش أمام تلك المدنيّة الماردة العاتية . . . فى لحظة واحدة تتجلّى لنفسك عظمة أمريكا الجبارة . . . هذه الآطام العالية تركّز لك فى مظهرها حقيقة « أمريكا » بمدنيّتها ، ثروتها ، عقليتها ، نشاطها ، جاهها ، طموحها ، ماظهر من ذلك كله وما بطن . . . هذه الآطام كأهرام مصر تختزل لك فى مظهرها الرائع مدنية مصر الغابرة . . . إنها لتصور لك فى لحظة دقائق تلك المدنية وأسرارها ، فتعلم جلياً أن القبر كان كل شئ فى مصر السحيقة ، فهو مستودع العلم والفن ونظام الحكم : الحى يعمل جاهداً فى إعداده دار قرار ، والميت ينعم به مثوى حتى تحين ساعة البعث والخلاص . . .

ما أروع الحجارة الصامتة فى الإبانة والإفصاح !

إنها باقية على الدهر ؛ إذا استلهمنا منها معالم الماضي فقد أمنَّا الزلل والعثار في تمثُّل حياة الأقدمين . إنها لتكشف أدق خوالج النفس البشرية ظاهرها الواضح وباطنها الدفين !

هذه نواطح السحاب بقوامها الفارع تستعلي ولا تني تستعلي ؛ فهي تفصح لك عن مركَّب النقص في النفس الأمريكية تكمن فيها نزعة تلك الأمة الفتيَّة الناهضة التي أصابت ثروة واقتداراً ومكانة لاتزاحمها فيها أمة أخرى على بساط المعمور . . . نزعة كأنها تريد أن تصرخ قائلة للملأ :

— لستُ إلا أمة عظيمة زعيمة !

إنها لتحس أنظار البريطانيين مازالت ترمقها بنظرة إشفاق لا تخلو من حسد ، نظرة الوصي الذي نفض يده من الوصاية على قاصره الذي بلغ سن الرشد ، ذلك القاصر الذي ما فتيء يذكر لوصيته ضروبا من القسوة والحرمان يعلو بهامته اليوم متحديا ، يريد أن يمد قامته ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ليثبت أنه أصبح نداً قويًّا لوصيته في الزمن السالف !

على أن الأمريكي والإنجليزي على الرغم مما بينهما من تنافس وتسابق ، تصل بينهما وشائج وثيقة من لغة وعقلية وجنس ؛ فهما في المحنة يتساندان ويتآزران ، ينسى كل منهما عهد الوصاية وما يدور حول تركتها من حزازات وأضغان !

وأثارني عن تأملاتي وقفة السيارة . . .

لقد بلغنا باب الفندق .

ودلفنا إلى الردهة الكبرى . وكان علينا أن نلبث حتى نتبيَّن أمر الحجرة التي أُعدت لنزولنا . ووقفت أتأمل الردهة المضاءة بالكهرباء ومن يختلف إليها من الناس .

وراعتني المصاعد لا تهدأ لها حركة ؛ فهي دائبة الصعود والهبوط ، لاتكاد تفرغ حمولتها حتى تغص بحمولة أخرى من تلك البضاعة البشرية الرائجة السوق في هذا المكان . . .

وأخذت عيني ركناً رشيقاً ينيره ضوء جذّاب ، تمثَّل لي مسرحاً يستهوي أعين النظارة ، فتدانيت منه ، فتبيَّن لي أنه حانوت حوى طرفاً من كل شيء . . . إنه سوق مصغَّرة تسعف كل طالب بما يطلب : فمن لفائف تبغ ، إلى كتب وصحف ، إلى حلوى أفانين ، إلى لُعَب وتحف وطرائف . فقصدت إلى معرض

الكتب أقلب فيه البصر . وما هى إلا أن بدا لى رجل فى مقتبل العمر ، باش المحيا ، وديع النظرات . فبادرنى بقوله :

— طاب يومك ياسيدى . . . يلوح لى أنكم من نزلاء الفندق الجدد .

— قدمنا الساعة .

— أأول زَوْرَة هى لنيويورك ؟

— إنها أول زَوْرة لأمريكا كلها . . .

— من أى المواطن أنتم قادمون ؟

— من القاهرة .

— حقاً إنها لشقة بعيدة قطعتموها . . .

— لم تستغرق رحلتنا أكثر من ثمان وأربعين ساعة .

فأخذ الرجل يحملق فينا دهشا ، ثم مالبث أن ابتسم قائلا :

— إنها لإحدى معجزات الطيران . . . أرجو لكم إقامة طيبة .

— نشكر لك .

— لقد أحسنتم اختيار الفندق حقا .

— إنه اختيار صديق كريم ، حجز لنا أماكننا فيه .

— لقد كفاكم مؤنة البحث ومتاعب الاختيار . يتعذر أن يجد القادم سعة فى فنادق نيويورك على كثرتها . . .

وتلفتُّ أردّد البصر حولى فى الردهة ، فعاجلنى الرجل بقوله :

— إنه فندق مُريح على صغره . . . ست عشرة طبقة تحوى أربعمائة حجرة .

— أصغير هذا ؟

— إذا قيس بكبريات الفنادق . . . ولكن موقعه يجعله ممتازاً ؛ إنكم فى الشارع الخامس والأربعين ، قلب المدينة الخفّاق . . . خطوتان إلى الأمام تسلمانكم إلى الشارع الخامس ، أعظم شوارع نيويورك بل سيد شوارع العالم كله . . . خطوتان إلى الوراء تسلمانكم إلى برودواى أكبر ملتقى للملاهى وأفتن معرض للأنوار فى العالم أجمع . . . مُوَفَّقٌ حظكم ، إن القنصلية المصرية منكم عن كثب ، وكذلك دار البريد ، و . . .

وكانت يدى أثناء الحديث تعبث بالصحف والكتب ، وتعلقت أناملى ببعض المصورات الخاصة : بمعالم المدينة وطرقها ووسائل مواصلاتها . . .

فانثنى الرجل يقول :

— حسن اختيار ... هذه المصورات ستفتح لك أبواب نيويورك على مصاريعها ، فتجوس خلالها على هدى ...

وما كدت أنقده الثمن ، حتى سمعت غلام الفندق يقول :

— تفضلوا بالصعود إلى الحجرة .

فحييت صاحب الحانوت ، فودعنى بقوله :

— إنى فى خدمتك كلما دعت الحاجة .

ودخلنا المصعد فى حشد من الناس ، فإذا عاملة المصعد زنجية فى لبوسها الرسمىّ ، تولينا ظهرها ، واقفة دائماً وقفتها الجامدة ، لا تعيرنا أى التفات ... إنها ليست أكثر من أذن تصغى لمطالب الركاب ، ويد تتحرك إلى باب المصعد فتحا وإغلاقا ...

وخطونا إلى حجرتنا ...

هُرِعتُ إلى الحمام ، لأطيح بتلك اللحية التى بدأت تطلع مع النهار ، وتعيث فى الوجه فساداً ...

وجعلت أعمل الموسى فى ملل وفتـور ، وأنا أهمهم :

ربِّ لِمَ أنبَتَّ فى وجوهنا نحن الرجال هذه اللِّحى ؟ أو لِمَ تركتنا نهتدى إلى حَلْقها ؟

وما كدت اتمّ حـديث نفسى الضائقة بهذه الدقائق ، حتى أحسست أريج الطيب يفعم أنفى ، فرحت أخالس النظر ، فوجدت الحقيبة النسوية قد تثاءبت ، فأطلّت منها حِقَاق الأدهان والمساحيق ، وقوارير الطيوب والعطور ، تتلوها مناشف الوجه والمناديل والأمشاط ومشابك الشعر وشِبَاكه ...

فرغْت ببصرى ، وعدت أتابع الحلق فى همة ورضا ، وأنا أُغمغم :

— حمْدَك اللهم على ما قسمتَ لنا ... إنك بنا نحن الرجال رءوف رحيم !

ولم تمض غير لحظات ، حتى كنت قد فرغت من مهمتى ، وبدأت أنتظر إقفال حقيبة العطور والمساحيق ، إعلاناً لانتهاء مهمتها ... ولـكن بضع نظرات خاطفة أفهمتنى أن الأمر ما يزال يتطلب مديداً من الوقت ...

إذن فلأشغل وقتى بشىء ...

لم لا أبدأ ارتياد المكان الذى حللت فيه !

وقمت أجول فى الحجرتين الرشيقتين اللتين أُعِـدَّتا لنزولنا ... كل شىء أراه حولى يشعر بتوفير الراحة فى سذاجة وبساطة ويسر ، راحة ترتفع عن كلفة التنميق والزخرف .

وأخذت يدى تتحسس الأثاث ، ففتحت أول درج صادفنى فى الخوان المجاور للسرير ، فطالعنى فيه كتاب ضخم فخم أسود الجلد ثمينه ... وقَـدَّرت بادئ الرأى أنى أمام مجموعة من روائع شكسبير ، إنه يماثل طبعات تلك المجموعات ... وجذبت المجلد ، وفتحته اغتباطًا ، فقرأت :

« جلس يسوع تجاه الخزانة ، ونظر كيف يُلقى الجمع نحاساً فيها ، وكان أغنياء كثيرون يلقون كثيراً ، فجاءت أرملة فقيرة ، وألقت فلسين ، فدعا يسوع تلاميذه ، وقال لهم : الحق أقول لكم ، إن هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا فى الخزانة ؛ لأن الجميع من فضلهم ألقوا ، وأما هذه فمن إعوازها ألقت كل ما عندها ، كل معيشتها !... »

ليس حديث شكسبير هذا ... إنه حديث من وحى السماء ! ... إن فلسفة شكسبير على حكمتها وعمقها وروعتها لتتضاءل أمام هذه الكلمات الساذجة التى يستمد منها الصغير والكبير نقاء السريرة ويقظة الضمير وطمأنينة الوجدان ... ما زال حديث السماء على تطاول الزمن وترادف الحقب وتطور العقول هو صاحب السلطان الأول على المشاعر والنفوس ... لطالما سمعنا فلاسفة الفكر ينادون بأن العقيدة الدينية على وشك الانهيار ، بل إنها لم يعد لها من سطوة وجاه ، ولكننا لا نلبث أن تواجهنا حقائق تسخر من هذا الزعم الموهوم ... إن العقيدة مثلها كمثل كرة المطاط إذا قذفتَ بها ورأيتها جادة فى هُوِيِّها إلى الأرض لم تحسب لها من رجوع ، ولكنك لا تعتم أن تراها قد وثبت إليك فى عنفوانها أقوى مما كانت قبل ... لو مُنِيتْ مدنيَّتنا بالزوال ، وهلكت بهلاكها روائع الشعراء وحكم الفلاسفة وعبقريات العلماء ، لألفيت العقيدة الدينية تكمن فى النفس البشرية كمون الحياة فى الحَبِّ النابت !

كفى ثرثرة أيها الإنسان المتعالى بماديته ، المغرور بعلمه ... ألا فاشدد لسانك إلى حلقك ، وأقصر عن التشدق والمباهاة ... إنك أنت أنت ، ولن تتغير أبد الدهر ، سواء أخفتْكَ المغاور والكهوف أم سمت بك نواطح السحاب تظن أنك مزاحم بشعافها قوائم عرش الله فى ملئه الأعلى !... ما زلتَ

فى حاجة إلى كلمة ساذجة تزخر فيها عناصر الأمل والطمأنينة والرضا لتردّ عنك العواصف من حيرة العقل وجفاف النفس وظلمة الحياة ! . . .

وأعدتُ الإنجيل إلى مستقره ، وعدت أتابع جولتى ، فرأيت لافتة من الورق المقوّى خصصت لتعلق على أبواب الحجر عند الضرورة . وقرأت فيها بحروف واضحة : « من فضلك لا تقلق راحتى » .

ومثلت خاشعاً أمام هذه الرقعة الغالية . . . إنها لتنيلك ما تنشد من راحة وهدوء فى ركنك الصغير . . . إذا حرستك هذه اللافتة على باب حجرتك ، فلن يجرؤ على أن يطرق بابك احد ، وإنك لآمن فى مستقرك تنعم بما تريد من خلوة وسكون .

هذه آية صغيرة تكشف لك جانباً كبيراً من عقلية الأمريكىّ الدقيق . تكشف لك ما يعانيه المرء فى هذا البلد من جهد وكدّ وحمْل على الأعصاب ، فهو فى حاجة إلى الراحة يتشبث بها ما وسعه التشبث ، ويلتمس إليها كل السبل ، ويحيطها بالتقدير والإعزاز . . .

لَشدّ ما نحن مفتقرون إلى مثل هذه « اللوافت » . . . نعلقها على أبواب المنازل فى مصر ، أولا أقلّ من أن نعلقها على أبواب « التلفونات » لو كان لها أبواب !

وتناولت اللافتة بيدى ، وأودعتها فى رعاية وعناية مكاناً كريما لأستخرجها منه حين أريد . . .

ورجعت إلى الحمام ، أستطلع أنباء حقيبة العطور والمساحيق . . . أما آن لتلك القوارير والحقاق أن تعود إلى قواعدها ؟

ووقع بصرى بغتة على رقعة صغيرة تحتل الركن المخصص لمواسى الحلاقة ، فقرأت فى الرقعة :

« نرجو أن تقوم بنصيبك فى الإقلال من أخطار المواسى المستعملة . . . لا تقذف بها حيثما اتفق . »

أين ترمى بموساك القديمة ؟ إنها حقا لمشكلة خطيرة على الرغم من مظهرها التافه ، إنه لينجم عنها أعظم الأخطار . . .

وتذكرت بابت ، وهو شخصية خلقها الكاتب الأمريكى سنكلر لويس فى أحد مؤلفاته . . . فقد كان بابت يقف كل صباح أمام المرآة وقفة حيرة

بمضة بعد أن يتم حلق لحيته، وقفة مسائل : أين يرمى الموسى ؟ أفى سلة المهملات حيث لايؤمن شرها؟ أم فى ركن واحدةً بعد الأخرى ؛ فتتجمع لديه طائفة كريمة من المواسى الصدئة المثلمة! إنه ليقف هذه الوقفة الحيرى مرة كل يوم، ولايجد له مخلصا إلا بأن يقذف بالموسى فوق الخزانة، وليكن من أمرها ما يكون !

وفى هذه الأثناء وضعت الحقيبة أوزارها، فتهيأنا للانصراف . . . ولم أنس أن أتزود بالمصورات أحشو بها جيبى لأستعين بها على ارتياد الطريق . . .

ودخلنا المصعد نسأله الهبوط . . . الزنجية على حالها تستدبرنا، وهى فى خطتها الرسمية : دمية ماثلة ليست أكثر من أذن تصغى ويد تمتد . . . أتراها تمثالا آليًّا يتحرك ؟ أم هى حقًّا مخلوق من طينة البشر ؟

وغادرنا الفندق نقصد عيادة الطبيب . . . ولكن فى الوقت سعة، إذن فلا بأس بجولة نلتمس بها متعة وسلوى .

وخطونا إلى الشارع السادس، فألفينا أنفسنا فى عباب زخار : الناس فى حركة موصولة، كلٌّ فى شغل بنفسه، والسيارات تذهب وتجىء، مارقة مروق السهام . . .

ومررنا بحانوت يعرض « الفشار » . . . تلك الذرة التى تقلى على النار فيخرج قلبها ناصع البياض، كأنه الزهرة تتفتح لاستقبال الحياة . . . لقد كان هذا الحانوت يعرض « الفشار » عرضاً لطيفاً يجتذب العيون، فعرجنا عليه كما يعرج الطفل إذا تعلقت عينه بشىء، وأخذنا منه نصيبنا، وانصرفنا مشغولة أيدينا، ووالينا السير نأكل « الفشار » كما يفعل غيرنا لا نشعر بغضاضة ولا استنكاف !

وبعد قليل مررنا بحانوت عظيم، يفد عليه الناس فوجاً بعد فوج، ويصدرون عنه فى زحمة تبعث على العجب . أى حانوت هذا ؟ ماعلة ذلك الازدحام عليه ؟ ولكن مالنا نسأل ؟ إن الناس يدخلون فلنكن معهم من الداخلين، وإن الناس يخرجون فلنكن وراءهم فى الخارجين !

إن روح الطفولة تتحرك بين جوانحنا بما فيها من خفة وتطلع وابتهاج بكل شىء وعدم مبالاة بأى شىء . . . كنت أحس الطفل يستيقظ فى قرارة نفسى ويطل بنزواته وبوادره، فيبدو أثر ذلك فى نظراتى وخطواتى، وفى إحساسى بما يدور حولى من مشاهد وأحداث !

وما هى إلا أن خجلت من نفسى : كيف أعود طفلا ؟ وبدأت أراجع النفس وأناقشها الحساب . ولكن نظرة واحدة حولى ، نظرة عاجلة إلى الناس يتدافعون فى غير اكتراث ، كَشَفَتْ لى أنى أحيا بين أطفال ... أطفال يمرحون ويعابث بعضهم بعضاً !

إن الطفل ليكمن بين نفوسنا سجينا مهما ينضج العقل وتكتمل الرجولة ، وإن هذا السجين ليظل متربصاً خلف أسوار سجنه يرصد الفرصة ويلتمس المنفذ ، حتى إذا واتاه التوفيق حيناً لم تلبث الأسوار أن تنهار فى طرفة عين ، ولم يلبث السجين أن ينطلق من قيوده وعقاله ظافراً شروداً يلهو ويعبث ذات اليمين وذات الشمال !

ووجدنا أنفسنا ندخل الحانوت خلف شخص اخترته رائداً لنا دون إذْن منه ، وجعلنا نتفقد ما حولنا : موائد حافلة ، وأخْونَة ممتدّة ، وصحاف عامرة تغدو وتروح ، روائح الأطعمة تداعب الأنوف ، الناس بين جلوس ووقوف لا مشغلة لهم إلا أن يأكلوا ويشربوا . ليس هناك للكلام مجال ، إنما هى أضراس تطحن ، وألسنة تلوك ، وحلوق تزدرد ... أنكون قد طرقنا وليمة على الأسلوب الأمريكى ؟ أنكون قد دسسنا أنفسنا بين المدعوين تطفلا وفضولا ؟

أين ذلك الذى اخترناه يرود لنا الطريق ، علنا نستبين منه ما غمض ؟ ... ووقعت عينى عليه وهو يشق لجثمانه مسلكا بين الجموع ، فاستقر أمام خوان رُصّتْ عليه أدوات الطعام ، ولا طعام ... ورأيته يتناول صينية ويعمرها بما يلزم من أشواك وسكاكين ، فما هى إلا أن وجدتنى أحذو حذوه ... وقَفَوْنا أثَرَه ، فقادنا إلى خوان مستطيل تزدحم عليه ألوان الأطعمة والأشربة ، بين لحوم وخُضَر وفطائر وحَلْوَيات ... وخلف الخوان خَدَم يعينون الطالبين على الظفر بما يشتهون .

حقا إنها لوليمة فاخرة . ولكن أية وليمة هذه ؟ وما خَطْبها ؟ ... ورأينا الرجل ينتقى ماراقه مما هو معروض ، يرصّه على الصينية ويسارع إلى الانصراف ، فلم نعتم أن نفعل كما فعل ، وأن ننتقى لأنفسنا ما انتقى لنفسه من الألوان ، لا ننقص منها ولا نزيد عنها دون إرادة أو تفكير !

وهرعنا فى أثره بصينيتنا نجلس منه على مقربة ، فإذا هو ماض مجدٌّ فى

التهام طعامه ، كأن وراءه من يتعجّله ، أو كأنه يخشى فوات شئ ، فمضينا نلتهم حظنا من الطعام كشأنه سواء بسواء !

ونهض الرجل فنهضنا ، وخطا إلى الباب نخطونا . . . وهناك فى ركن خاص انثنى الرجل يُلقى بضع قطع من النقود ، فانثنينا نلقى مثلها ، ودفع الباب يفتحه ليخرج فكنا وراءه تابعين !

وهنا وقفنا . . . لقد انتهت مهمتك أيها الرائد الكريم ، صَحِبَتْك السلامة ، وشكراً لك على أن أرحتنا من متاعب الحيرة والارتباك فى سُوق البطون !

وسَمَوْتُ بعينى إلى جبين الحانوت ، فقرأت : « كافيتريا » .

أنكون قد دخلنا دون أن ندرى أحد تلك المطاعم الشعبية المشهورة التى لا يخلو منها رجاً من أرجاء نيويورك ؟ تلك التى يطرقها الآلاف من الأهلين فى كل ساعة من نهار ليصيبوا طعاماً طيباً بثمن مقبول لا يزعج الجيوب ؟

لقد أنْسَتنا سُوقُ البطون موعد الطبيب ، فلنعجَلْ إليه . . .

وحثثنا الُخطا ، مخترقين الشارع السادس إلى الخامس ، نساير ذلك الخِضَمَّ العظيم ، ذلك الطوفان العميم ، تلك الجموع المتدفقة من الناس ، فسرعان ما وجدنا أنفسنا تلقّنا أمواجه ، وتقذف بنا إلى الأمام . . . ليس لنا طاقة بمناوأة هذا التيار الجارف ، لقد أصبحنا قطرة ضئيلة فى عُباب متلاطم ، فلا حيلة لنا إلا أن نندمج فيه ، وأن نترك أشخاصنا تفنى فى مُزْدَحَمِه . . .

كنت وأنا أتحرك فى مسيرى حركاتى الآلية أتطلع فيما يحيط بى من بَشر وجماد ، فكأنما اختلط الجماد بالبشر ، ليس إلى التمييز بينهما من سبيل !

إنها قوالب ، قوالب تتحرك فى الطريق بلا روح ولا حس ، وقوالب أخرى قائم بعضها فوق بعض . . . حجارة تتوالى متحركة ، وأخرى تتراصّ متعالية !

يا لله من أمر هذه القوالب ! . . .

وويل للإنسانية من طابع تلك الحضارة التى تقوم على أساس من المادة كله صلابة وجفاف ! . . .

إنى لأخشى أن تكون القلوب البشرية قد غَدَتْ هى الأخرى قوالب لا تنطوى على عاطفة ولا يصدر عنها نبض ولا خفوق !

وتنبهت إلى أننا نتابع السير ، لا ندرى إلى أية وِجْهَةٍ نحن ماضون .

والطبيب ؟ . . .

واجتهدنا أن ننتزع أنفسنا من بين تلك القوالب المرصوصة ، ثم انتحينا ناحية من الطريق ، واستخرجت ماحواه جيبي من المصورات والرسوم ، أستهديها وسيلة الوصول إلى دار الطبيب . . . إن المصورات لتتحدث حديثاً مستفيضاً عن مركبات الترام والسيارات الحافلة ، وعن القطارات التى تسرب فى باطن الأرض أو تجرى على معابر الجوّ . . . ووقفت ُفاضل واماِيز : ماذا أركب ؟ وطالت بى المفاضلة ، وإذا بعينىّ تزيغان ، وتتراقص أمامهما الخطوط والكلمات . . . ولكنى ما لبثت أن أحسست بنفسى أندفع داخل سيارة أجرة ، فما إن ثُبْتُ إلى وعيي ، حتى ارتفع صوتى بعنوان الطبيب ا ُعلم به السائق . . . وتسللت المصورات إلى جيبي واحدة إثر الأخرى تخفى عن الضوء خزيها وخيبة أملها فى أن يكون لمشورتها َمقام !

ودلفنا بالسيارة إلى بارك أفنيو . . .

إن العظمة والروعة لتتجليان بحق فى ذلك الشارع العجيب . إنه لخليق بأن يحمل ذلك الاسم الذى أطلقوه عليه : « شارع الأرستقراطيين » لو كان للأرستقراطية معنى فى معاجم الأمريكيين . . . شقة فسيحة طويلة لايحدها الطرف ، تنبسط فى تنسيق وتنميق ، وتمتاز بالدقة فى الهندسة والرسم ، كأنما قيست فيها الأبعاد والمسافات بالسنتى والملى . . . يشقها مايسمونه « الحديقة » وما هى إلا بساط من سندس طرزت حواشيه بأشتات من شجيرات . . . أما شواهق هذا الشارع العظيم فإنك حين تنظر إليها تحس بأنها وإن كانت تماثل نواطح السحاب فهى تبدو هنا أجل مظهراً وآنق زخرفا وأبهى . . . إن السماء فى هـذا الشارع الوسيع لتجد فرجة رحيبة تطل منها علينا وتبادلنا التحية فى غير ضيق . . . وهذه الأسراب المتكاتفة من السيارات يلاحق بعضها بعضاً كأنها حلبة سباق . . . وهذه المصابيح الملوّنة المتكاثرة على َمدّ البصر ، هى َحرَسُ الطريق وشرطة المرور ، يتغير لونها تارة فيتحرك الشارع طولا ويسكن عرضاً ، ويتغير لونها تارة أخرى ، فإذا السكون حركة وإذا الحركة سكون . . . إنه لمهرجان رائع من النور والحركة يسوده نظام دقيق فريد يأخذ بمجامع القلوب !

وعرّجنا على شوارع أخرى نقطعها خطفا ، وما هى إلا بضع لحظات حتى

كنا أمام دار الطبيب . فهرع إلينا البوّاب فى حلته الرسمية الأنيقة يعيننا على النزول ، أو بالأحرى يوهمنا أنه يفعل من أجلنا شيئاً قيناً بالكريم من التقدير . . . وكان على الرغم من شيبته واستبانة الشيخوخة فى تجاعيد بشرته صلب القامة أمرد الوجه خفيف الحركة مشرق القسمات . . . وتقدمنا إلى البهو حيث يقـوم فى ركن منـه مكتب « السكرتيرة » . . . فاستقبلتنا بابتسامة تقليدية ، وكانت سمحة المحيا فى لبوس أبيض ناصع ، معنية بأناقتها أتم عناية ، حتى إنها لتحرص على أن تزيّن جانب صدرها الأيسر بمنديل يزهو فى حواشيه وَشْىُ الربيع . . . فكأنما المنديل يستمد من نبع قلبهـا الدفاق نضارة الحياة !

وتبادلنا كلمات فهمتْ هى منها ماذا نريد ، وفهمنا نحن منها أنها من أمر قدومنا على بينة .

أخذنا مقاعدنا بين الزوار : بهو أنيق بهرتنى منه تلك الصور الزيتية التى تزدحم بها الجدران ، وتلك الأنوار الكهربية المسلطة على تلك الصـور فى مسايرة ولباقة .

أفى عيادة طبيب نحن أم فى متحف فنى ؟

وانصرم الوقت وأنا فى شغل بهذه الروائع أتملاّها فى نشوة واستمتاع .

ثم طُلِبْنا لنصعد ، فواجهتنا بباب الطبقة الأولى « سكرتيرة » فى لَبُـوس أبيض ناصع ، يطل من صدرها ذلك المنديل يُوَشّـيه زهر الربيع ، إنها نسخة من « السكرتيرة » الأولى فى كل دقيق من مظهرها وجليل . . . وتراءت لنا فتيات اخَـر فى لبوسهن الأبيض ومناديلهن المُزْهِرة يغدون ويرحن قائمات بما بين أيديهن من الأعمال . إنهن نسخ متشابهة ، كأنهن جميعا فتاة واحدة يتكرر ظهورها أمام ناظريك . . .

أثمة قوالب أخرى تواجهنا فى تلك الدار الوادعة ؟

تلك هى الظاهرة الواضحة فى الحياة الأمريكية : تشابه وتماثل فيما تراه العيون من صغير وكبير ، صور متكررة لشىء واحد لا تغيير فيه ولا تبديل !

ودخلنا حجرة صغيرة ، وحُشرنا بين زمرة من الناس ، إنها إحدى تلك الحجر الزاخرة بطلاب الصحة . . . وما كدت أقتعد مقعدى ، حتى طالعتنى صورة كبيرة تزحم حائط الحجرة ، وقد سلطت عليها الأنوار تجلوها أروع

جلاء . . . إنها صورة بروميثيوس طريح صخرة عاتية تثقله الأغلال ، وهو يرنو ملتاع النفس جزعاً إلى النسر الجاثم على مقربة منه بمنقاره المعقوف الحاد ، يتوضح فيه سعار الجوع وتلهّب الظمأ ، وعيناه تتلظى فيهما شهوة الفتك والشرّ . . . وهذا النسر يتأهب للانقضاض على ذلك الإله المنكود لينهش كبده ، شأنه معه فى كل يوم !

إن روعة الأسطورة اليونانية وما يتدفق فيها من حيوية وجلال ، ليتمثل فى فن هذه الصورة قوىّ الأداء ، صادق التعبير !

لله أنت من فنان أيها الطبيب !

إن المرء ليطمئن إلى مبضعك المتألق دون وجل أو تهيّب . . . لن تكون إلا فنانا فى طبك كما أنت فى ذوقك فنان !

إن المريض الذى يحيا فى عيادة هذا الطبيب وقتاً لينسى أنه فى مثابة علاج ودار استشفاء ، إنه ليتخيل نفسه فى معرض عامر بألوان التحف الفنية التى تقرّ بها العيون وتنشرح لها الصدور . . . إن الساعات لتتلو الساعات دون أن يحس المريض للوقت طولا !

أحيلة هى التمستها يا صديقى الطبيب ليغفل المريض عن مرضه ، ويوقظ فى نفسه الأمل وراحة البال ؟ أنت بهذا تضرب المثل الصالح ، وتعطى القدوة الحسنة . . . ألا يفكر غيرك من الأطباء فى ابتكار وسائل أخرى تحيل ذلك الجو القاتم المملوء بالفزع والرهبة جوًّا رخيًّا تشيع فيه نسمات الطمأنينة والثقة بالحياة ؟

وانتقلنا إلى حجرة ثانية : متحف آخر يتألق بما فيه من روائع الصور وباهر الأضواء !

وأخيراً طرقنا محراب الطبيب : حجرة صغيرة أنيقة ، ولكنها على صغرها حوت كل جديد فى فن العلاج الحديث . وبدا أمامنا الطبيب ، صديقنا المنشود : قامة ضئيلة ، ووجه ضامر بعينين تائهتين تشرد نظراتهما هنا وهنالك دون مبالاة ، وظلُّ ابتسامة ترفّ على شفتيه ، أكبر الظن أنها كل ما فى جُعبته من تحية واحتفاء !

وحوّمت فى الرأس خواطر خاطفة . . . أذلك حقًّا هو بيت القصيد فى رحلتنا إلى العالم الجديد ؟ أهذا هو مناط الرجاء ومَجْز التمنى ؟ أهذا هو الذى من أجله طوينا بساط الريح على جناح العُقاب ، لا نبالى صعاب الرحلة ووحشة الاغتراب ؟

وسرعان ما بدأ الطبيب عمله . . . إنه لشحيح بالوقت ، ضنين بالكلام ، مقتصد فى الحركة والإشارة ، يحيط به سرب من فتيات متشابهات ، كل منهن مَنُوطٌ بها عمل خاصٌ لا تَتعدُوه ، وإنهن ليَحْزِرْنَ ما يريد الطبيب من وحى نظراته ، فيؤدين عملهن صامتات . . .

وانقضت الزيارة فى هذا الجو الساكن ، حيث لا كلمة تقال إلا بمقدار ، ولا حركة تؤدَّى إلا بميزان !

وأحيل أمرنا إلى كبيرة « السكرتيرات » : رداء ناصع ، ومنديل يزهو على الصدر ، وابتسامة تتخايل على الثغر . . . وفى بضع لحظات عرفنا كل شىء ، العلاج : موعده ، مدته ، نفقاته ، سائر ما يتعلق به . . .

وغادرنا مكتب « السكرتيرة » الكبرى ، هابطين إلى ردهة الدار . . .

وبينما نحن ندير الحديث فى شأن العلاج ، تدانَى منّا شخص يطارحنا الكلام بلغة الوطن . . . هذا مصرى آخر رمت به النوى مراميها لمثل ما قدمنا من أجله ، وقد أوشك علاجه أن ينتهى . وفى لمح البصر زالت بيننا الكلفة ، وكأن الود يربطنا به منذ أعوام . . . ألسنا مصريين غريبين ها هنا ؟

« وكل غريب للغريب نسيب » !

واستطرد بنا الحديث إلى نفقات العلاج ، فتبين لنا أن الطبيب لا يسوِّى فى النفقات بين مَرْضَاه ، وإن كان العلاج على نحو سواء . . . وعلمنا أن هذه سنّة جديدة يتبعها كثير من أعلام الطب الأمريكيين . . . إن الطبيب هنالك ليقدر النفقة وفقاً لاعتبارات خاصة بالمريض كما يقول . . .

نظرية أمريكية حقّاً . إنها لنظرية طريفة تبدو عادلة راحمة ، ولكنها فى حقيقتها وجوهرها مرتع خصيب للمداورة والتلاعب من جانب المريض تارة والطبيب تارة أخرى . . . إن توحيد الثمن فى العمل الواحد والسلعة الواحدة ركن من أركان الاقتصاد القانونى ودقة المعاملة فى حضارتنا الحديثة . ولطالما عِيبَ علينا نحن الشرقيين أسلوب المساومة والتفاوت فى ثمن السلعة الواحدة ، وما يحيط بذلك من الألاعيب وضروب الاستغلال والانتهاز للفرص ، حتى لقد كانت السوق الشرقية مضرب المثل عند الغربيين فى فوضى الأثمان ، والتغابن فى البيع والشراء . . . إنى لأخشى على كُبْرَى المدائن المتحضرة أن تنقلب بعد حين سوقاً شرقيـة تسودها فوضى المعاملات تحت ستار بهرج

من النظريات الاجتماعية الطريفة ، ظاهرها فيه العدل والرحمة ، وباطنها من قبله الجور والاعتساف ! . . .

إن حضارة اليوم القائمة على مبادئ إنسانية رفيعة جديرة بالتقدير نراها قد رقت من بعض جوانبها فإذا بها عرضة للتمزق . ولو استمر الحال على ذلك لأصبح غزوها مطلباً ليس بالعسير ، ولأصبح انهيارها أمراً ليس بالبعيد . . .

زايلنا دار الطبيب . . .

لم نستمتع بعدُ ببهجة الشارع فى نيويورك . . .

إذن بنا إلى الشارع الخامس نجوب أرجاءه ، نروح عن النفس ، وننأى عن حديث المرض والعلاج . . .

الناس أجمعون فى هذا الشارع يبين عليهم سيماء اليسر والرخاء : أناقة فى الزى وترف فى الملبس ، ورفاهية تفصح عنها المظاهر . . . النساء فى معاطف الفرو الثمان ، السيقان تكسوها غلائل الجوارب الفاخرة . ليس ثمة من ساق عارية . ولكن أى فرق بين الساق العارية والساق المصبوبة فى جورب رقيق النسج نمام عن دقائق الفتنة والجمال ؟ . . . لا وحدة فى الزى ، ولا مراعاة لمألوف من التقاليد والعادات . إن بعض النساء لا يبالين أن يظهرن فى لبوس الرجال ، متخذات تلك السراويل الشائعة ، كأنهن فى البيوت متنقلات ، أو على الشواطئ متنزهات . . . ثمة طالبات يتخذن هذه السراويل تيسيراً للحركة ومسايرة للنشاط ، وثمة عجائز يتخذنها اجتذابا للأنظار إلى أطلال نضارة عفت عليها السنون ، أو ستراً لسيقان ألح عليها الضمور والهزال !

وهذه وجهات المتاجر والمخازن . . . إن العبقرية الأمريكية فى الأناقة والتنسيق والتألق لتبدو فى هذه الوجهات بالغة الإبداع . . . إن الكماليات لتنافس الضروريات فى معارض تلك المتاجر ، فتغدو هى ضروريات ليس عنها غنى . . . ولم لا يكون الأمر كذلك ونحن فى عاصمة النعيم والثراء ؟

واسترعت نظرنا وجهة تزهو فى تألقها ، فوقفنا لحظة نتأمل فيما تعرض من ضروب الأحذية ، وما هى إلا أن وجدنا أنفسنا فى داخل المتجر نطلب حذاء راقنا شكله . وبدا حيالنا رجل أنيق حيانا فى أدب تحية خاطفة ، وسألنا :

— فيم نرغب ؟

إشارة منه إلى ذلك المصعد ، ليبلغنا القسم الذى نجد فيه طلبتنا .

وصعدنا . . .

رجل آخر أنيق يحيينا تحيته الخاطفة ، ويدلنا في عجلة على المكان المنشود . . . واتجهنا حيث أشار .

أنيق ثالث يرحب بنا على ذلك النحو المعهود .

يا لله من هؤلاء الأنيقين الوجهاء ! . . . كأننا في قصر سيد غطريف تستقبلنا حاشيته !

وأشار الرجل بيده إلى ناحية قائلا :

— المشتري يتجه يميناً ، والمرافق يتجه إلى اليسار . . .

نخطوت يسرة ، فوجدت نفسي في زمرة من الرجال يقتعدون مقاعد الانتظار . . . في ذلك الركن يروض المرء نفسه على فضيلة الصبر والاحتمال !

وجلست أبادل الرفاق نظرات الاستسلام ، والتفتُّ يمنةً ، فإذا بالمشترين طابور كلٌّ ينتظر دوره . . .

وامتد بنا الانتظار ، فنهضت من ركن المرافقين أحاول أن أقتحم منطقة الشراة ، فما أسرع أن بدا الأنيق يعترض طريقي ، ويعيدني إلى حيث كنت . . .

يا عجبا ! . . . ها نحن أولاء في هذا البلد الذي يوزن فيه الوقت بميزان الذهب ، نرانا أكثر الناس إضاعة لأوقاتهم وأشدهم تفريطاً فيها . . . ولكن ما الحيلة ، ونحن في متجر عظيم لا تستقيم فيه الأمور وتدق المعاملات إلا بنظام مفروض له مزاياه وله مساوئه الجسام ؟ . . . إن هذا النظام قد جعل شراء زوج من الأحذية يبلغ من التعقيد مبلغاً يزهد مثلي في احتمال تبعاته ! . . . إني لأوثر الحفاء على أن أبقى رهينة حزب اليسار ، أشقى بعوصول الانتظار ! . . .

وبعد لأي خرجنا من المتجر ، بخُفَّيْ حُنَيْن . . .

وأحسست بأعصابي تتهافت . . .

ولم نكد نمشي خطوات حتى شعرنا بوطأة الجوع ، فطرقنا مطعما خلبتنا وجهته : صبغة وردية بهية تزهو تحت الأضواء الألاقة ، فتكسب المكان جواً سحريا . . . ووجدتنا أنفسنا قد انتظمنا في صف طويل . . . وهذا طابور آخر . . . نحن في بلد القوالب والطوابير ! . . . ذلك البلد الذي يروضنا على فضيلة الصبر والاحتمال . . .

وكنا نتحرك كالآلات ، نخطو إلى الأمام كلما خلا من أول الصف مكان .

وحانت منى التفاتة إلى الخلف ، فإذا بى أشهد طابوراً آخر سرعان ما ائتلف . . . فابتسمت ابتسامة امتزج فيها الإشفاق بالارتياح : إنى لمشفق على أولئك اللاحقين الجياع الذين ينتظرون دورهم البعيد ، وإنى لمرتاح على أية حال لما أصبته من سبق يعفينى من مضّ الانتظار . . .

وظهر أنيق يلقانا بوجهه الطلق ، ويولينا نظرته العَجُول ، وأصدر أمراً فى شأننا ، فتحركنا طوع أمره إلى المائدة التى فرضت علينا لا تفضيل ولا اختيار . . . وبدا سرب من فتيات المطعم يتنقلن بالصحاف بين الموائد خفاف الحركة رشيقات كأنهن ظباء بين الخمائل تنساب . . . وكن فى حلل وردية وميادع ناصعة البياض قصار ، يشهد الله أنها لم تتخذ لتصون ما تحتها من ملبس ، وإنما اتخذت للزينة واختلاب العيون ! . . . إن هذه الظباء ليمثلن فى هذا المطعم فاتحة ألوانه الكريمة . . .

أية حاجة إلى المشهيات بعد لقائهن ؟

وأقبلنا على الطعام . . . وكانت القاعة على ما فيها من حركة دائبة ، واكتظاظ بالرُّوَّاد ، لا تزعج أحداً بصوت ينكره السمع . كل شئ يسير على نظام دقيق ، إنه نظام الآلة الصمّاء ، حتى إن الأكل نفسه ليجرى على أسلوب آلىّ . . . يجب أن تأكل نشيطا ، وأن تخص جلستك للأكل وحده ، حتى تخلى لغيرك المكان . . . إنك لتحس صوت الطابور يهتف بك مُستحِثًّا !

وزايلنا المطعم ، فواجهنا الشارع ، وقد اكتسى حلة من مختلف الأنوار ، وتبدّت وِجْهات المخازن والمتاجر فى زخرفها الفتّان . ولكن الوقت مساء ، والأبواب موصدة ، فليس إلا أن نتبادل النظرات قانعين ! . . .

والآن . . . إلى أين ؟

سؤال ألقيناه على أنفسنا ، فكانت الأجوبة شتى متباينة ، ولكننا لم نجد بينها جواباً يُزَيِّن لنا أن نعود إلى الفندق ! أنزُجّ أنفسنا فى حجرة الفندق تاركين مباهج الليل ويقظة الحياة ؟

وألفينا أقدامنا تدفع بنا إلى برودواى . . .

ورحنا نمخر عبابه المتلاطم : مواكب من الناس تسبح فى فيض زاخر من الأضواء . . . إن برودواى علم من أعلام النور ، بل إنه اسم من أسمائه ومعنى من معانيه . . . إنه الحىّ الذى يجد فيه كل امرئ ما تصبو إليه نفسه

من ضروب الملاهى وألوان التسليات . . . هذه دور اللهو والطرب ، تتخللها مطاعم ومشارب رشيقة فاخرة . . .

لا أثر هنالك لماندعوه « بالقهوات » . . . إن الناس لايجدون وقتاً ينفقونه فى الثرثرة ولغو الحديث ، وإنما يحلون تلك الأماكن ليطفئوا الظمأ ويردّوا الجوع !

وطرقنا مشربا ، أو سمه مطعما ؛ فالمطاعم هى المشارب ، وهذه هى تلك على حدٍّ سواء . . .

رجعة إلى نظام الطوابير . . . حتى للحصول على قدح من شراب !

واحتللنا مائدة ، فجلست أدور بعينى ، فرأيت صفّـا من الروّاد على منضدة الخانِ قد جلسوا أزواجاً ، كل امرئٍ وصاحبته ، وهما يمزجان المدام ، بمناجاة حب وهيام . . . وخلف هذا الصفّ صفّ آخر من رُوّادٍ ينتظرون دورهم فى الجلوس ، ونصيبهم فى تناول الصهباء ونجوى الغرام ، وهم ينظرون إلى صف الجالسين أمامهم نظرات التعجُّل والاستحثاث ! . . .

إن الحب هنا محدود يقاس ويوزن . . . باب الغرام يطرق دون مداورات ومقدمات . . . إن المحب ليقتحمه اقتحاما فيحظى بلبابه ميسور المنال ، خالصاً من هموم الدلال والمطال !

قل لحبيبتك كلمة خاطفة ، وبادلها بسمة خاطفة ، واقتطف من وجنتها قبلة خاطفة ، وأخلِ مكانك لمن خلفك قد أضناه الهوى وضاق بالانتظار !

أين أنت ياعمر ؟ يابن أبى ربيعة ؟ . . . ماذا يكون موقفك من هذا الخان الأمريكى ، مثابة ذلك الحب الخاطف ؟ أكنت ترضى بمثل تلك الجلسة العجلى ، وقد تعودنا أن نسمع منك فى صبوتك آهات كل آهة منها تتطلب ليـلة كاملة ؟

عفا الله عن ذلك الحب الكسول فى دنيـاك القديمة ، وحيا الله ذلك الغرام الأمريكى العجلان !

حسبنا ذلك الآن من برودواى . . .

وإن لنا إليه لرجعة بل رجعات . . .

محمود تيمور

تراث الأندلس

إن بلداً كأسبانيا لن يستطيع أن يستكين لحظ تافه . فهذا المضلع الشاسع القائم عند طرف أوروبا الغربى ، ذو التضاريس المتعرجة المتعددة والآفاق المتباينة ، يؤلف مجموعة جغرافية هى أقل المجموعات تناسقاً . فالحياة تختلف فيه بين إقليم وآخر ؛ فهى سهلة ناعمة هنا ، وخشنة قاسية هناك . ويتفاوت أهلها تفاوتاً عميقاً تبعاً لجنسهم وأرومتهم ؛ وقد لا توجد بقعة على وجه الأرض مثلها تتباين فيها خصائص أهلها ، حتى لقد تؤدى إلى الاصطدام أحيانا بطريقة مروعة . وقد كان حظها — حتى نهاية العصر المتوسط على الأقل — خاضعا لمركزها الجغرافى ولظرف تاريخى غير عادى عظيم المدى : هو وجود الإسلام على جزء كبير من أرضها ، فكان ذلك يتطلب من الفريق الآخر بذل مجهود أشبه بمجهود الحروب الصليبية ، واستذكاء هذا المجهود عدة أجيال متعاقبة .

إن لأسبانيا واجهتين بحريتين ، تشرف إحداهما على البحر الأبيض المتوسط ، وهو طريق المدنية القديمة ، وتطل الأخرى على المحيط الأطلنطى الذى بقى أمداً طويلا محيط الظلمات ومقر المجهول المخيف . وتتصل ببقية أوروبا بحاجز مؤلف من سلسلة جبال وعرة عسيرة الاجتياز هى جبال البرانس . أما إلى الجنوب ، فانها على العكس ، تكاد تلمس أفريقيا ، ولا يفصلها عنها إلا مضيق جبل طارق . إنها فى الواقع جزيرة ، وهى جزيرة بغير ما شك هائلة ، ولكنها جزيرة مشاعة — بفضل تكوينها الطبيعى — بين أوربا وأفريقيا . فهى بمثابة المزلاج ؛ لأنها توصد باب البحر الأبيض المتوسط فى الغرب ، وهى بمثابة الجسر لأنها على الرغم من العوائق الطبيعية التى تعزلها عن بقيـة أوربا وأفريقيا ، بمثابة الطريق الأرضى الوحيد الذى يصل بين هذين الجزأين من العـالم ، والحضارات التى تستطيعان تمثيلها .

لقـد أدرك العرب تمام الإدراك صبغة أسبانيا الجزائرية إذا أطلقوا عليها اسم « جزيرة الأندلس » . ويخال أنهم أدركوا بسرعة أن هذه الولاية الشاذة عن إمبراطوريتهم والتى ضمت إليها بفضل مغامرة فجائية جريئة غير منتظرة ، كأنها ، فى تلك الإمبراطورية ، بمثابة « زحف » حقيقى إلى جوار الغرب المسيحى مباشرة ، وإلى أبواب أوربا التى كانوا يجهلونها ويقتصرون على تسميتها ، بغير تحديد ، باسم « الأرض الكبيرة » . وعند ما انشقت الأندلس سياسيا عن تلك الإمبراطورية ، بعد بضع عشرة سنة ، لتصبح دولة لأحد الأمراء المهاجرين من الأسرة الأموية التى حكمت فى سوريا ، وجدت هوة زادت مع الأجيال عمقاً واتساعا ، فلم تلبث أن انفصلت عن الشرق العربى فزاد صبغتها الجزائرية ، وفى نفس الوقت ، زادت خصائصها .

على أن خصائص أسبانيا الإسلامية لم تنشأ فقط عن عزلتها عن بقية العالم العربى والبون الشاسع الذى يفصلها عن الشرق ، بل كانت هناك شتى الأسباب الداخلية : اختلاط الأجناس فى شعب قليل التجانس مؤلف من أقلية من العرب ، ومن البربر الذين جاءوا من أفريقيا الشمالية ، ومن الفرنج ، ومن السلاف ، ولكن بصفة خاصة من جمهور الأهالى الذين اعتنقوا الإسلام ، والمولدين ؛ ثم وجود جماعات هامة من سكان المدن والريف الذى ظلوا على مسيحيتهم دون أن يضطهدوا بفضل التقليد الحر فى النظام السياسى الأندلسى ؛ ثم اختلاط طوائف يهودية نشيطة فى وسط المجتمعات ، أيًّا كانت أهميتها ، تحت حماية السلطة المركزية الإسلامية . وهى خصائص ترجع أيضاً إلى استعمال اللغة الرومانية المشتقة من اللاتينية ، إلى جانب اللغة العربية ، وأحياناً لغة البربر ؛ وهى خصائص ترجع فى النهاية — وهذا هو العامل الجوهرى بغير شك — إلى الإطار الجغرافى الذى يختلف جدًّا ويمتاز كثيراً فى مجموعه عن إطار جميع الجهات الأخرى من دار الإسلام . وإنه لمن المؤكد أن سكان المدن ، والقرويين ، وسكان الجبال ، والفلاحين المقيدين بأعمال الأرض ، كل هذه المجموعة التى كانت تؤلف الشعب الأندلسى فى جنوب شبه الجزيرة ، فى العصر الإسلامى ، كانوا أقل شبها منهم اليوم بمواطنيهم فى أودية أسبانيا الوسطى المرتفعة ، وأقل ذلك طبعاً ، بأعدائهم الألد فى مملكة ليون وقشتاله المسيحيتين . على أن أندلسى السهول والجبال والمناطق الساحلية الخصبة أو أعالى الجبال الوعرة القاحلة ، كانوا مع ذلك متقاربى

الشبه إلى حد أنه قد رسخ فى أذهانهم ، رويداً رويداً وبغير ما إدراك ، شعور بأنهم ووطنهم يؤلفون شيئاً فذًّا فى عالم الإسلام .

على أنه يجب الاعتراف مع ذلك بأن الأدب العربى فى أسبانيا لم يعبر صراحة عن هذا الشعور إلا نادراً . وإنه لخليق أن نذكر بإكبار محافظة الأندلس — إبان تاريخها بأكمله — على تمسكها ببقية العالم العربى وعبقرية حضارته تمسكاً يملؤه الإجلال القريب من الشعور البنوى . ولقد تجلى هذا التمسك ، أول ما تجلى ، فى الدين . فما أن اعتنقت أسبانيا الإسلام حتى جاهرت بحزم بأنها محافظة ، وظلت بعد ذلك مرتبطة ، من ناحية السنّة والشرع ، بتقاليد العصور الأولى . وشاع المذهب المالكى فى جميع أنحاء الأندلس حتى النهاية . واهتم بنشاط لا يعتوره وهن بقمع كل محاولة ترمى إلى نشر التيارات الجديدة . واضطهد الزندقة . واحتفظ للبلاد بتعلقها الوثيق بأهداب الدين . وحارب بقسوة المفكرين الذين كانوا يسعون إلى التحرر من قيوده كابن مسرة وابن حزم دون أن نذكر غيرهما . وتخف تلك الشدة ردحاً من الزمن خلال حكم المرابطين ؛ إلى أن جاء الموحدون وفرضوا على الأندلس سنّة للتوحيد أشد صرامة وقسوة .

على أن هـذا الاتجاه المحافظ يتجلى كذلك فى أسبانيا فى عدة نواح غير الدين . أما من ناحية الحياة الاجتماعية بصفة خاصة ، فاننا لو نظرنا إلى تلك البلاد عن كثب فإننا نجد أنها تظهر — حتى القرن الثانى عشر على الأقل — بمظهر عتيق جدًّا هو نفس الذى ظلت تحافظ عليه مراكش الوريثة الفعلية للحضارة الأسبانية الإسلامية وعقائدها إلى عهد قريب جدًّا ، وظلت مدنها الـكبيرة ، فاس ، ورباط ، وتطوان بصفة خاصة ، تحافظ على مظهرها الوفى للمدن الأندلسية . فنى هـذه المدن ، وفى خلال العصر المتوسط من أوله إلى نهايته ، ظلت إحدى طبقات المجتمع ، وهى طبقة الفقهاء ، تتمتع بمكانة ممتازة . ولم تكن هذه التسمية تشمل علماء الشرع فقط ، ولـكنها تتجاوزهم إلى جميع ممثلى العلوم العربية الدينية كما كانت تزدهر ، فى نفس الوقت ، فى الشرق ؛ أما فى أسبانيا ، فيجدر القول بأن عدد الفقهاء من أصل بربرى أو المولدين كان يزيد على من كانوا من أصل عربى .

وهذا الاتجاه المحافظ الذى يقوم على احترام التقاليد الشرقية ، يفسر أيضاً

لماذا ظل عدد كبير من المعاهد الإسلامية القديمة قائماً فى أسبانيا فى حين أنها كانت، فى بقية العالم العربى، تنهار شيئاً فشيئاً وتتلاشى. إننا نعلم إلى أى حد من الغيرة استطاعت أسبانيا أن تصون التراث الذى نقلته إليها خلافة دمشق وتحتفظ به كاملا، وإن مجرد بقاء « تقليد سورى » قائماً واستمراره أمداً طويلا، لهو من الصفات البارزة للحضارة الأندلسية، حتى فى الوقت الذى اضطرت فيه تلك الحضارة إلى قبول ما دخل عليها، وبصفة خاصة، فى الوقت الذى تركت فيه بعض تيارات حضارة بغداد — المتشبعة بدورها بالحضارة الفارسية — تطغى عليها.

وقد كان من نتائج هذا الاتجاه — فى عالم الأدب — أن كف إلى الأبد عن الإنتاج الممثل للعبقرية الأندلسية على حقيقتها، وظل الأدب العربى الأسبانى، حقبة طويلة، لايؤلف إلا جزءاً من مجموع الأدب العربى وإن كان بالفعل مشرقاً فهو عار عن كل شخصية. وكان يخال أن أغلب الكتاب فى أسبانيا الإسلامية، وفى جميع العصور، قد أجمعوا على عدم الاهتمام — إلا فى بعض مؤلفاتهم المتناثرة فى النثر الفنى والنظم العامى — بالوسط الجغرافى والمركب الجنسى المميزين لهم واللذين يتألف منهما إطار حياتهم اليومية. فقد كانوا يؤثرون الانتقال بالفكر إلى شرق كان أكثرهم لايلمون عنه بمعلومات أكثر مما هو مدون فى الكتب ليستلهموا منه نفثات وحيهم. لقد ازدروا الموارد التى تنطوى عليها تربتهم الخصبة العذراء، ومالوا إلى سبر غور غيرها مما نفد استغلاله منذ عهد بعيد ونضب معينه. وكان اللغويون وكتاب النحو والعروض، ومصنفو المعاجم، وشراح الغرر الأدبية، يكتبون فى أسبانيا وهم ينتقلون بشخصيتهم إلى بلاد العرب أو العراق. فكاتب مثل ابن عبد ربه يهتم بوضع ديوان من الشعر الشرقى، ولغوى مثل ابن سيده يضع موسوعته دون أن تجد فيه اللغة العربية الأندلسية، وهى لغته الشخصية، أدنى مجال. بل الشعراء أنفسهم، فقد كان أكثرهم يرتاح إلى الوضع الذى جرى عليه أسلافهم الشرقيون، وكان لابد لهم من وقت طويل ليدركوا فى النهاية، أنه توجد، تحت أنظارهم، طبيعة منسجمة جميلة جديرة بأن توصف هى أيضاً دون أن تفقد من قيمتها. بل إنهم، عندما أدركوا ذلك، كانوا لايحسنون التخلص دائماً من تأثير التقاليد الشرقية المستبد والذى كان يتجلى فى شكل استعارات أدبية، وذكريات،

واستشهادات . وكثيراً مايرى الإنسان نفسه أمام مقتبسات أو كتابات أحسن فيها التلاميذ تقليد أساتذتهم .

ولن تكون مقاومة هذا الاتجاه دائما إلا مجرد محاولات فردية . فبعض النقاد ، وبعض كتاب المختارات الشعرية ، أمثال الفتح بن خاقان وابن بسام ، يشيرون أحياناً إلى المحاولات المتواضعة التي يقوم بها بعض الأدباء الذين يفكرون فى التخلص من قيود أدب كلاسيكى لا تناله يد ووصل إلى حد الاتقان . على أن مسألة ابن حزم ، الذى يقرر فى مقدمة « طوق الحمامة » بأنه أندلسى ، وأنه لا شأن له باستلهام الوحى بذكر صحراء العرب والبدو الذين يخترقونها ، ستظل مسألة فردية للغاية ، وستظل أكثر البحوث الملهمة مقترنة بالعالم العربى الشرقى .

وكان لابد أن تزدهر أنواع جديدة من الأدب ذات صبغة شعبية وموجهة إلى جمهور أكثر انتشاراً لا إلى فئة مختارة ذات ثقافة كلاسيكية ، ليتم التوازن إلى حد ما ، مع ذلك التمسك بالمدارك التقليدية البحتة . وإننى أقصد بصفة خاصة ، وبدون إفاضة هنا ، أنواع النظم المعروفة بالموشحات والزجل التى زانها كثير من الأندلسيين ، وبصفة خاصة ، أبو بكر بن قزمان . لقد يتسنى قريباً ، متى عرفت مؤلفات هذا الشاعر معرفه تامة ، أن تعرض بوضوح تلك المسألة المركبة التى طالما نوقشت ، وهى احتمال تأثير شعر الزجالين الأندلسيين فى المداحين البروڤانسيين ، وتأثير الشعر العربى بلهجته الأسبانية فى الشعر الرومانى فى الغزل الرقيق . ويجدر بالذكر هنا أن هذه الأنواع الجديدة ، بمرورها السريع من أسبانيا إلى الشرق ،بتيار معكوس، إذا صح هذا التعبير ، وانتشارها العظيم فى الحال ، قد توجد تعليلا قيما يجعلنا نفرض أن هناك تأثيرات أندلسية كان يمكن أن تسيطر على العالم العربى لو أن أسبانيا — بعد أن تكون قد جددت نفسها — أرادت أن تعنى بذلك .

على أن دورها الحقيقى حيال الحضارة العربيـة كان غير ذلك ، بل ربما كانت قد فهمت هذا الأمر فى شىء من الغموض . إن دورها الحقيقى ، الذى كان يجب أن تؤديه كاملا ، هو أن تشرق بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، على غرب أوروبا ، وأن تنقل إليه على الأقل جزءاً من التراث الذى ورثته بدورها عن الشرق واحتفظت به بشغف فى أرضها ، سواء أكانت قد طبعته بطابعها الخاص أو لم تطبعه .

فنى أسبانيا بالطبع ، وبعد مرور مايقرب من نصف الألف من السنوات منذ نهاية استرداد أسبانيا نهائيا ، يظل تراث الأندلس خالداً وأقرب منالا ، فأثره العميق مازال واضحا فى جميع أنحاء شبه جزيرة إيبريا، ولـكن ،كما هو طبيعى ، فى المقاطعات القبلية والشرقية التى ظلت تدين بالإسلام طويلا . وهناك نكهة من العربية تضوع فى جو كثير من المدن ، كبيرة وصغيرة ، لم يتغير فى الغالب تركيبها منذ العصر الإسلامى . إن طابع أسبانيا العربية يتجلى فى الفن الشعبى والاصطلاحات الصناعية ، وطرق استغلال الأرض ، وطرق الزراعة والرى . لقـد أثر هذا الطابع تأثيراً عميقاً فى الخرافات الشعبية ، وموسيقاه ، بل فى طريقة المعيشة والتصرف والتفكير عند جماعات هامة من الشعب . إن اللغة العربية الأندلسية ،باصطلاحاتها اللفظية الخاصة ومقاييسها الخطابية ، قد ساعدت كثيراً على تكوين مفردات لغـة قشتاله ، وهى كما هو معلوم ، لغة أسبانيا الوطنية ؛ على أن الـكلام الدارج فى بلنسية ومرسية وغرناطة يشتمل على نسبة أكبر من الألفاظ العربية . هذه الاستعارات المباشرة تؤلف معجماً متنوعاً جداً ؛ إذ يتضمن الاصطلاحات الفنية الزراعية ، وأسماء الأعشاب والنباتات ، والأشجار ، والفاكهة ، والأقمشـة ، والأثاث ، والألوان ، بل تسمية مئات من المعاهد العامة ، مع معاهد الموظفين التابعين . إن جزءاً كبيراً من الـكلمات والاصطلاحات لأسماء الأثاث الفاخر والزينة ما زالت إلى اليوم من مصدر عربى . وإنه ليس من الجرأة فى شىء أن نستنبط أن الأسماء قد مرت إلى أسبانيا المسيحية فى نفس الوقت الذى مرت فيه المسميات ، وأنه اعتباراً من القرن العاشر على الأقل ، دخلت أزياء قرطبة ، وأشبيلية ، وطليطلة ، وسرقسطه الإسلامية فى دور الأمراء المسيحيين فى شمال البلاد ، حيث حملت للمرة الأولى ، إلى أرستوقراطية تملؤها الفضائل الحربية ولـكنها غير مثقفة ، معنى البذخ والترف ، أو ما هو أبسط ، معنى الرفاهية والراحة . وبعد قليل من تحرير ولايات أسبانيا الوسـطى وعودتها إلى أحضان المسيحية ، لعبت التأثيرات كذلك بقوة أشد، خصوصاً عن طريق المستعربين الذين ، مع إنكارهم للإسلام ، لم يتخلوا إطلاقاً عن ثقافته ولغته . إن فى استمرار استعمال اللغة العربية فى جميع الاتفاقات ، وفى جميع عقود البيع فى طليطلة زهاء جيلين أو ثلاثة أجيال بعد فتحها التاريخى بمعرفة الفونس السادس عام ١٠٨٥ ، لدليل واضح على الطابع

الذى خلفته هذه الحضارة . وبعد ذلك العهد أيضاً ، حين تلاشى استعمال العربية أمام الأسبانية عند طوائف الموريسك الذين ظلوا على إسلامهم ، فإن الكتابة بالعربية ، لا باللاتينيـة ، هى التى كانت تستعمل لتحديد النطق ؛ وبالحروف العربية أيضاً كانت تدون كتب التعاليم المسيحية ، ومختارات الصلوات ، بل كذلك بعض المؤلفات أو المستندات ذات الصبغة العلمانية .

ففى نقل هذا التراث الإسلامى الأندلسى ، يجب أن يراعى ، إلى جانب الدور الذى لعبه المستعربون ، الدور الذى لعبه الوسطاء اليهود بين الثقافتين . كان يهود أسبانيا الذين يتكلمون لغتين (خلاف العبرية لغتهم الدينية) كثيرى التنقل ، بحجة الأعمال ، من الولايات الإسلامية إلى الولايات المسيحية ؛ وكانوا كثيراً ما يتجاوزونهـا إلى فرنسا حيث كان يجذبهم وجود طوائف يهودية كبيرة فى مقاطعتى اللانجدوك والبروفانس .

إنه لابد من صفحات كثيرة لـكى نحلل تماماً الأسباب المتعددة التى سهلت بل فرضت أيضاً ، بصفة عامة وبطريقة غير مباشرة وبمساعدة المراحل المتعاقبة ، الحصص التى قدمتها الحضارة الإسلامية لأوربا الغربية التى لم تفكر إطلاقاً فى نبذها بسبب موردها . إن ما يهم هو أن نحاول ، فى مقال بسيط ، أن نستخلص الدرس الذى تتضمنه هذه الحصص وتنطوى عليه .

إن المؤرخين يدركون اليوم — وتلك نغمة جديدة — أن أوربا ، اعتباراً من القرن الثانى عشر ، لم تحصل من انتصاراتها الحربية على الإسلام ، سواء فى غرب البحر الأبيض المتوسط أو فى شرقه ، على أرباح مادية فقط ، ولـكنها حصلت أيضاً على أرباح لاتقل شأناً ، إذ هيأت لها الفرصة لتفتح عينيها على عالم آخر وتوسع ، بطريقة عجيبة ، أفق مداركها العقلية . لقد استطاعوا أن يقولوا ، وليس ما قالوه اغتباطاً ، إنه وإن كان من غير الحكمة أن يسند إلى علماء الإسلام الفضل الوحيد فى كثير من الاستكشافات المنسوبة إليهم بحكم التقاليد ، سواء فى عالم الفلسفة أو العلوم الصحيحة ، إلا أن هذا لا يمنع من الاعتراف بأنهم ، فى الشرق وبصفة خاصة فى أسبانيا ، قد أذكوا بنشاطهم الذى لم يعتوره كلل أو ملل ، شعلة لولاهم لأوشكت أن تنطفىء : وهى النظر إلى الأمور نظرة علمية . ومن ثم ، هدوا أوربا إلى الطريق ، ووضعوا فى متناول يدها مجموعة من المؤلفات الرئيسية ، وقطعوا شوطاً بعيداً فى طريقة معرفة اللغات والآداب القديمة وفى طريق النهضة العلمية .

ففي القرن الثاني عشر إذن ، وبينما كانت الممتلكات الإسلامية في الأندلس قد تضاءلت تماماً ، بدأ يتجلى تعاون الثقافتين ، العربية واللاتينية ، تعاوناً وثيقاً مثمراً . لن تكفي الإشارة مطلقا إلى أهمية مدرسة المترجمين التي أسسها أمير أسباني مثقف هو الفونس العاشر العالم ، وأدارها تحت رعايته في طليطلة ابتداء من عام ١١٣٠ . فقد صدرت عن هذا المجمع المنقب الذي تعاون فيه المسلمون واليهود والمسيحيون ، عدة مؤلفات علمية كانت إلى ذلك العهد مجهولة في أوربا ، ونقلت إلى الغرب : كمؤلفات أُقليدس ، وبطليموس الإسكندري ، والخوارزمي ومسلمة الأندلسي .

إن يكن دور أسبانيا الإسلامية ، بحسب الحوادث والأزمنة ، دور ملهمة للمبادئ التي تجلت عنها عبقريتها بالذات ، أو ، مع التواضع ، إن تكن قد اتخذت مرحلة للعلوم العربية والثقافة الشرقية ، فإن فضلها في ذلك لن يكون أقل أثراً أو شهرة ، وإنه ليكفي تماماً ليسوغ ذلك الحب الرقيق الطاهر الذي يبديه نحوها جميع ممثلي الثقافة العربية العصرية ، والفلاسفة ، والعلماء ، ونقاد الأدب ، وكذلك الشعراء والروائيون ، وكتّاب المسرح . ففي اليوم الذي تقوم فيه مصر بصفة خاصة ، بالمهمة التي تهيأت لها بكرم ونبل لتنشر المؤلفات الرئيسية العديدة التي لم تنشر بعدُ عن الأدب الأندلسي والتي تتضمن لمحة من الحضارة الهسبانية ، في ذلك اليوم يتجلى تراث الأندلس الروحي أكثر مما هو عليه ، ويسترد مكانته الكاملة ، ويصبح خط اتصال أوجدته العناية بين الشرق والغرب عند حدود الأزمنة العصرية .

ا . ليفي - بروفنسال

نقلها إلى العربية سنيم سعده

المصريون والمحافظة على القديم

يقال عن المصريين إنهم من أشد الأمم محافظة على القديم . فالمدنية المستقرة نشأت فى بلادهم منذ أقدم العصور ، بل هى قد تكون فى مصر أقدم منها فى أى بلد آخر ؛ ومع ذلك فقد سارت الحياة على وتيرة واحدة أو وتائر متقاربة متشابهة من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر ، قد توارث الناس مقومات الحياة وأسس الحضارة والمدنية ، واحتفظوا بتقاليدهم وعاداتهم ، بل حافظوا عليها ودافعوا عن قديمها ، فلم يستهوهم التغيير ولم تغرهم النزعة إلى التجديد . وكثيراً ما يكتب الكاتبون ويقرأ القارئون أن الفلاح اليوم يعيش ويفلح الأرض كما كان أجداده يفعلون أيام الفراعنة ، بل قبل أن يطلع فجر التاريخ ؛ فالحاضر فى مصر صورة منعكسة من الماضى ؛ والأيام تمر فى مصر ولكن الحياة لا تسير ، وإنما هى ثابتة على أصولها لا تتحول ولا تتبدل ؛ والسنون بل القرون يتداعى بعضها إثر بعض فى وادى النيل ، ولكن الحضارة الزراعية المصرية لا تتحور ولا تتطور . فاليوم أمس متكرر ، والغد لا يعدو أن يكون يوما من أيام الحاضر ، فهو أمس ينشر قبل أن يموت !

على أن هذا الكلام إن كان صحيحاً فى بعض نواحيه ، فإنه مع ذلك لايكاد يثبت للبحث العلمى الصادق ؛ لأنه لايمثل غير صورة منقوصة من الحقيقة . وقد يكون من المفيد أن نحاول فى هذا المقال أن نلم بطرف أو أطراف قليلة ندلل بها على أن استمرار الحياة والحضارة فى مصر لم يكن معناه الجمود ، ولم يكن مرده فى كل الحالات ، بل ولا فى غالبها ، إلى نزوع المصريين إلى المحافظة على القديم . فنحن إن سلمنا بهذا القول على عِلاته وجب أن نسلم بأن البيئة المصرية بيئة عقيمة ، ولدت مرة ثم أصابها العقم والإجداب بعد ذلك ؛ بل وجب أن نسلم بأن روح مصر وإن بقى حياً لم يمت ، فإنه روح خامل ، قد قنع أصحابه من الحياة بما نفخ الله فيهم أول مرة ، فهم لم يتعدوا فى آخر مراحل تاريخهم

ما بلغوه فى أولى مراحله ، بل هم لن يجاوزوا فى آخر الدهر ما كانوا عليه فى فجر التاريخ . . . وهم إن استطاعوا ذلك فلن يكون تجاوزهم إلا على قدر معلوم !

الواقع أن البيئة فى مصر من ذلك النوع الذى يكرر نفسه فى نظام فعلى عجيب . فالنيل يرتفع وينحسر فى كل خريف ، والفيضان يجدد ثروة الأرض فى كل عام ، والعمل الزراعى يتطلب نشاطاً معيناً لا يخرج عن نطاقه المرسوم متى قسمت الأرض إلى حياض ترويها الترع وتحدها الجسور ، وحياة الجماعات فى قرى الوادى ينظمها عرف عريق فى القدم ، قد وضعت اسسه ونواميسه الأولى عند ماتحول السكان من الحالة القَبَلية ، أى التى كانت فيها القبيلة وحدة المجتمع ، إلى الحالة القروية أى التى صارت فيها القرية نواة المجتمع . كذلك الاتصالات بين الجماعات فى جنوب الوادى وشماله حدثت كلها أوجلها عن طريق النهر وجسوره ؛ إذ مهدت الطبيعة لأن يتم التعارف بين الشمال والجنوب ، بل لأن تمتاز الحياة فى الوادى ودلتاه عنها فى غير مصر مما يقع فيما وراء الصحراء أوماوراء البحار... واستمتعت مصر خلال تاريخها الطويل بنوع من العزلة النسبية وراء دروع الصحراء ، فاستطاعت أن تحتفظ بطابعها الخاص بين الشرق والغرب ؛ وحفظ ذلك على مصر شخصيتهـا الحضارية المميزة ، وإن كان قد أظهرها فى أعين الباحثين بمظهر الجمود والثبات على القديم فى عالم كثر فيه الاتصال ، وصار من الصعب على أمة من الأمم أن تحتفظ بطابعها المميز فى الحياة والمدنية لأكثر من أجل معلوم . . . أما مصر فقد عاشت وعاش طابعها على الزمن ، على حين تتابعت ودالت من حولها أمم كثيرة فى أرض سومر وأرض بابل والجزيرة العليا وهضبة الحيثيين وأرض سوريا وفلسطين وجزائر أقريطش وإيجـة وأرض اليونان والرومان . . . كل هذه مناطق نشأت فيها مدنيات قديمة ، ولـكنها ماتت أو جرى عليها الزمن فطغت عليها معالم جديدة من المدنية المحلية أو الخارجية ، بخلاف مدنية مصر التى جمعت إلى القدم والعراقة دوام الاتصال والاستمرار... ولعل هذا أول ماحدا بفريق من الباحثين إلى أن ينسبوا إلى أهلها شدة التمسك بالقديم والثبات عليه .

على أن خير ما يعيننا على أن نحقق أكان المصريون محافظين على القـديم أم مجددين ، أم آخذين من كل المحافظة والتجديد بطرف ، إنما هو أن نستعرض معالم حضارتهم التاريخية ؛ متتبعين عناصر الدوام والثبات من جهة ، وعناصر

التطور والتجديد من جهة أخرى ، مقسمين الحياة والحضارة المصرية إلى جانبيها الأساسيين : الجانب المدنى المادى ، وهو الذى يتصل على الخصــوص بالزراعة ، والحياة الزراعية ، وما يرتبط بهما من نشاط واقتصاد قومى عام ؛ ثم الجانب الفــكرى والروحى ، وهو الذى يتصل بالثقــافة المصرية ، وما امتازت به من طابع أو طوابع معينة خلال أعصر التاريخ .

فأما عن الجانب الأول فمعروف أن الزراعة كانت عماد الحياة والمدنيــة فى مصر منذ البــداءة ، وقد بقيت كذلك حتى يومنا هذا ؛ وأغلب الظن أنها ستبقى كذلك فى قابل الأيام ، رغم ماينتظر من ازدهار بعض الصناعات فى التعدين أو الإنتاج الصناعى الحديث . على أن الشىء المهم والذى ينبغى أن نلحظه ونسجله هو أن الزراعة فى مصر لم تكن فى يوم من الأيام زراعة فطرية من ذلك النوع الذى نلحظه فى بعض جهات إفريقيــة الداخلية مثلا ، والذى يعتمد على المطر ، فيحفر الزارع حفرة صغيرة يضع فيها الحب ثم يتركه للأمطار تغذيه حتى موسم الحصاد . وإنما الزراعة فى مصر كانت منذ الألف الرابعة قبل الميلاد على الأقل معتمدة على فلاحة الأرض التى يغمرها الفيضــان ؛ وقد اتصلت من أجل ذلك بأعمال هندسية تمثلت فى إقامة الجسور ، وحفر الترع ، وتنظيم جريان الماء إلى الحياض وانصرافه عنها إلى النهر بعد أن يرسب غرينه ؛ وتلك كلها عمليات كبرى تحتاج إلى هندسة وتعاون وتنظيم . لذلك لم يكن ممكناً للزارع المصرى أن يعمل بمفرده ، ولا أن يفلح أرضه مستقلاً عن جاره ؛ وإنما كان عليه أن يعمل كفرد فى مجموعة من الزارعين الذين يتعــاونون فى عمل زراعى هندسى ، هو الأساس الذى قامت عليه مدنية مصر الزراعية ، وامتازت به على غيرها من المدنيات الزراعية الفطرية التى لم ينته بها الأمر إلى قيــام مجتمع زراعى معقد النظام ، كما حدث فى وادى النيــل الأدنى . ولذلك كله نشأت المدنية الزراعية فى مصر معقدة منذ فجر التاريخ ، وربما كانت قبل ذلك . بل إن من الجائز أن نقول إن ظهور الوحدة السياسية وبروز الأسرات الحاكمة إنما قام فى الأصل على أساس من المصلحة المادية المشتركة لسكان الوادى ومزارعيه ؛ فــكان فرعون ورجال حكومته الإقليمية هم القوّامين على مشروعات الرى ، وتنــظيم الجهود الاجماعية المتصلة بالزراعة ؛ بل كان فرعون مهندس الرى والزراعة الأول فى ذلك العصر ، إن جاز لنا أن نستعير مثل هذا التصوير . وبذلك كله اكتملت لمصر

عناصر الحياة المادية التى يتداخل فيها الاقتصـاد القومى بالإدارة الحـكومية ؛ وهو أقصى درجات التقدم والتعقيد فى نظام المجتمع ، بل هو ماتأخرت فى تحقيقه عن مصر أمم كثيرة ، ننظر إليها الآن على أنها تمثل أرقى الأمم وأعـدها أخذاً بوسائل التجديد ! وقد يبـدو عجيباً أن تكون مصر قد احتفظت باقتصادها القومى الموجه خلال أعصر التاريخ ، وأنها لم تحد عن كثير من نظمها الزراعية فى الرى والإنتاج وما يتصل بهما من تنسيق جهود الفرد والجماعة منذ اكتملت وحدتها الحـكومية فى أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد . ولـكن هذا العجب لا يلبث أن يزول إذ نلحظ أن البيئة فى مصر هى من ذلك النوع الذى يقضى بالوحدة والتنظيم والتنسيق الدقيق ، والذى يغلب جهـود الأفراد بل الجماعات البشرية متفرقة ولا يخضع لها إلا مجتمعة . وقد يكون هذا هو السر فى أننا كنا خلال تاريخنا كله شعباً يسلس تنظيمه وتنسيق جهوده بل قيـادته متى وجد الحـكم الصالح . . . فقد تعلمنا ذلك فى ميـدان الزراعة ، ومن صلتنا بنهر النيل أول الأمر ؛ ثم انطبع ذلك فى نفوسنا ، فهو يتمثل فى عمل المجموعات الصغيرة من الأفراد والعمال حين يجتمعون فيعملون معاً ، ويحتاج الأمر إلى رئيس أو «خولى» لا يساهم فى العمل الفعلى ، ولـكن وجوده وقيادته ضروريان لإنجاز العمل ؛ كما يتمثل أيضاً فى الإدارات القروية والحـكومات المحلية ، ثم الحـكومة المركزية العـامة . ولعل احتفاظ المصريين بهذه الخاصة التى جبلتهم عليها طبيعة بلادهم ونوع الزراعة المعقد الذى مارسوه من أول الأمر ، هو الذى أظهرهم فى أعين الباحثين ممن لا يتعمقون الأمور بمظهر المحافظين على القديم ، المستكينين للعرف والتقاليد ، مع أن كل ماحدث هو أن مجموعة من النظم الاجتماعية والاقتصادية نشأت فى البيئة المصرية وكانت صالحة للبقاء ، بل ضرورية لحياة المجتمع وتنظيم نشـاطه ، فبقيت وعمـرت ، بل أصبحت مقياساً لازدهار الحياة فى مصر ؛ ففى الأوقات التى استمسكت فيها مصر بنظمها الحـكومية التى تستند إلى الوحـدة المحلية فالوحدة الإقليمية فالوحـدة القومية الشاملة ، ازدهرت الحياة فى وادى النيـل ، وبلغت هذه الأمة شأو قوتها ؛ وفى الأوقات التى انصرف فيها الناس عن النظام والتضامن التقليديين انحلّـت عرى المجتمع ، ودخلت مصر فى عهد من عهود الإقطاع المظلمة ، وبقيت كذلك حتى يبعث الله الوحدة ، فيعاود المجتمع سيرته الأولى ، وتعود إليه الحياة والقوة من جديد .

ومع ذلك ففى ميدان الزراعة والنشاط الزراعى فى ريف مصر نستطيع أن نميز بين ثلاثة أشياء : أولها وسائل الزراعة والرى ؛ وثانيها أنواع النباتات والمحاصيل الزراعية ؛ وثالثها الحيوانات المستأنسة والمستخدمة فى الزراعة. وفى كل من هذه الأشياء الثلاثة نستطيع أن نتبين مبلغ تمسك المصريين بالقديم أو سعيهم إلى التجديد . وقد كان المصريون أول الأمر يفلحون الأرض بوساطة فؤوس حجرية ينقرون بها الثرى بعد انحسار الفيضان مباشرة ، ثم اكتشفوا استعمال المحراث فى أواخر الدولة القديمة (الأسرة الخامسة على الأقل) ، وكان فى أول الأمر يشبه الفأس الحجرية القديمة ، ثم تطور فى شكله حتى صار لهسلاحه المعدنى المعروف . ومع ذلك فمن الطريف أن نلحظ أن ظهور المحراث لم يؤد إلى اختفاء الفأس ، وإنما سار الاثنان جنباً إلى جنب ؛ حتى فى عهدنا الحديث نرى الفلاح يستخدم الفأس والمحراث القديم ، وبعض المحاريث الآلية الحديثة فى المزارع الكبيرة ؛ وكثيراً ما يستخدم آلتين أو أكثر من هذه الآلات فى الزرعة الواحدة ، فيحرث أرض القطن مثلا حرثتها الأولى بمحراث آلى ، ثم يعيد حرثها بمحراث قديم ، ثم ينقر الأرض للزراعة ووضع البذور بوساطة الفأس . وفى هذا كله يتجلى كيف أن ظهور آلة جديدة لم يقض على ما سبقها من آلات ؛ وإنما كانت الوسائل والآلات يضاف بعضها إلى بعض ؛ وفى هذا معنى للاحتفاظ بالقديم احتفاظاً لا يمنع من التجديد . وقد تمثل هذا بعينه فى آلات الرى وأدواته ؛ فهناك الشادوف ، ولا بد أنه من أقدم الآلات ، ثم هناك الساقية وهى شادوف آلى معقد يدار بالقوة الحيوانية ، ثم هناك آلة أرشميد أو « الطنبور » وقد ظهرت فى العهد الإغريقى الرومانى ، ثم أخيراً هناك الآلات الرافعة الحديثة ؛ ومع ذلك نلحظ فى مصر استمرار هذه الآلات والأدوات جميعاً ؛ لأن الجديد فى مصر لا يمحو القديم ولا ينسخه ، خصوصاً إذا كان القديم ملائماً لنوع معين من الزراعة ، كما هى الحال فى الشادوف ، فهو آلة مناسبة جدًّا لرى المساحات الصغيرة والجسور الضيقة على حافات الترع وجنبات النيل ، حيث لا يجدى غيره من الآلات .

ومثل هذه الظاهرة نلحظها أيضاً فى المزروعات والمحاصيل . فقد زرع المصريون أول ما زرعوا الشعير والقمح ، وهما محصولان شتويان مناسبان جد المناسبة للبيئة المصرية ؛ إذ يزرعان فى الخريف ، أى عقب انحسار الفيضان

مباشرة ، ويستمران في الأرض خلال أشهر الشتاء أي في موسم الأمطار الشتوية ، وينضجان في أواخر الربيع . ويقال إن الشعير البري ينمو بطبيعته في شمال إفريقية الشرقي وشرقها ؛ فلا بد انه استنبت في ذلك الإقليم لأول مرة . أما القمح فمن الجائز أن يكون استنباته بدأ في جهة أو أكثر من جهات الشرق الأدنى والأوسط ثم أدخل إلى مصر . وسواء أصحت هذه الآراء أم لم تصح ، فإن مصر عرفت الشعير والقمح منذ العصر الحجري الحديث ، أي منذ أواخر الألف السادسة قبل الميلاد . وبعد ذلك استنبتت نباتات أخرى من بقول الشتاء وأفواله ، وكذلك الكرم والزيتون وغيرهما من مزروعات حوض البحر المتوسط . كما أن مصر كانت تضيف باستمرار إلى ثروتها النباتية والزراعية خلال تاريخها الطويل ، فدخلتها على الخصوص محاصيل الجهات الدفيئة والحارة من الشرق الآسيوي (جنوب آسيا وجنوبها الشرقي) ، ومنها قصب السكر والقطن ، اللذين لم يتوسع في زراعتهما إلا في القرن الأخير ! وكذلك الأرز والبرسيم ، وقد اتسعت زراعة الأول عقب إدخال الري الصيفي ، أما الثاني فقد عرف منذ بضعة قرون ، وكان لإدخاله أثر كبير في ثروة مصر الحيوانية من جهة ، وفي تغذية التربة وتجديد قوتها من جهة أخرى . كذلك أدخلت إلى مصر محاصيل أخرى من العالم الجديد بعد استكشافه، أهمها من غير شك الذرة البيضاء ، التي لم تعرفها مصر قبل قرن ونصف قرن من الزمان ؛ ومع ذلك فقد صارت الآن ، وبفضل الري الدائم ، الغذاء الأساسي للفلاح ؛ وربما كان هذا من شر ماجرته علينا الثورة الزراعية الحديثة . فقبل إدخال هذه الذرة كان القمح هو الغذاء الأصلي للفلاح ، وهو بالطبع غذاء أصلح وأوفى . بل قد لانكون مغالين إذا ما نحن قررنا أن الفلاح المصري في العهد الفرعوني وخلال القرون الوسطى كان يحصل على غذاء أفضل مما يحصل عليه الآن . . . ومن يدرينا ! فقد يكون اختلاف التغذية وضعفها في العهد الحديث من أسباب ما نلحظ من اضمحلال في حيوية الفلاح وضعف في قواه الإنتاجية، في وقت تعرّض فيه أيضاً لكثير من الأمراض الطفيلية الناتجة عن إدخال نظام الري الدائم .

المهم من كل هذا أن الريف المصري قد تطور في مظاهره تطوراً شاملا خلال أعصر التاريخ ، فتواردت المحاصيل ، وبعضها من إفريقية وبعضها من

آسيا ، وبعضها الآخر من العالم الجديد ؛ وهى محاصيل كثيرة لا سبيل إلى حصرها فى مثل هذا المقال [1] . وقد زاد من مقدرة مصر على إنتاج هذه الأنواع جميعاً اعتدال مناخها وإدخال نظام الرى فى أشهر الربيع والصيف ، مما يسر نمو المزروعات على طول العام . ولو أن فلاحاً مصرياً من عهد الفراعنة بعث اليوم فى الريف المصرى فى أشهر الصيف لهاله ما يرى من اختلاف مظاهر البيئة فى كل شئ . فالحقل المصرى من هذه الناحية قد أصابه من التطور والتغيير ما غير معالمه الأولى تغييراً كاملا شاملا ، لاسيما فى أراضى الدلتا الفسيحة ، حيث لامجال إطلاقا لأن يتحدث متحدث عما يمكن أن نسميه محافظة على القديم ؛ اللهم إلا إذا اعتبرنا احتفاظ مصر بأنواع صالحة من محاصيلها القديمة كالشعير والقمح محافظة على القديم .

ومثل هذا تكرر فى حالة الحيوانات المستأنسة والزراعية . فقد كانت الثروة الحيوانية فى تجدد دائم ، وأضيفت إليها أنواع جديدة دخلت أو أُدخلت من الجنوب أو من الشرق أو من الغرب فى أعصر متتابعة . فعرف المصريون الأولون البقر الإفريقى ذا القرون الكبيرة المقوسة ، عرفوه فى الألف السادسة قبل الميلاد ، واستمر فى مصر حتى قل ثم انقرض فى أواخر العهد الفرعونى أو فى أعقابه على مايظهر ، ولو أنه لا يزال سائداً فى السودان . ثم عرف المصريون البقر الآسيوى ذا القرون الصغيرة المستقيمة فى آخر الدولة القديمة وحل بالتدريج محل البقر الإفريقى ، وصار الآن هو السلالة السائدة فى البلاد . أما الجاموس فحيوان حديث جداً فى البيئة المصرية ؛ ذلك أن السلالة الإفريقية منه لم تستأنس على الإطلاق ، ولا تزال تعيش وحشية فى أعالى النيل ؛ أما السلالة المستأنسة فآسيوية وصلت إلى مصر من الهند عن طريق إيران والشرق الأوسط فى أواخر القرون الوسطى اى حوالى القرن السادس عشر على مايظهر . فالجاموس المستأنس لم يكن معروفاً فى مصر الفرعونية ولا مصر العربية الأولى ؛ رغم ما قد يبدو فى ظاهر هذا القول من غرابة ، ولا يزال عدد الجاموس إلى اليوم أقل قليلا فى ثروة مصر الحيوانية من عدد البقر . أما

---

(1) هناك أنواع مختلفة من الخضر كالطماطم والبطاطس وغيرها وكذلك من الفواكه الدفيئة كالبرتقال والموالح والموز والمانجو وغيرها ؛ وكلها أدخلت إلى مصر فى أوقات مختلفة .

الأغنام والماعز فقد عرف المصريون الأقدمون منها سلالات مختلفة ، يقال إن بعضها إفريقي شمالي وبعضها الآخر آسيوي . كما عرفوا الخنازير ، ومنها سلالة إفريقية شمالية ، ربما كانت بداية استئناسها في مستنقعات الدلتا في الألف السادسة قبل الميلاد أيضاً ؛ ثم سلالة أسيوية هندية أُدخلت في عهد الإغريق والرومان . . . ثم قلّت تربية الخنازير حتى كادت تنقرض في العهد الاسلامي . ومن دواب الحمل عرف المصريون الحمار في الألف الخامسة أو الرابعة قبل الميلاد ؛ ويقال إن موطنه الأصلي شرق إفريقية أو غرب أسيا أو الاثنين معاً وما جاورهما من داخلية أسيا . والمهم أن هذا الحيوان الخدوم عاصر الحضارة المصرية في أدوار تكوينها الأولى ، واستمر حتى يومنا هذا ، وكان له دور خطير في النشاط الزراعي في الحقل والقرية على حد سواء ، ولم يزد تقدم الزراعة وتنوع المزروعات ثم ظهور الثورة الزراعية الحديثة ، أهمية هذا الحيوان ونصيبه من الكدح والجهاد إلا تأكيداً ؛ فهو حيوان نافع في حمل الأثقال كما هو نافع في الانتقال الريفي . ويظهر أن المصريين الأقدمين استخدموه في الغرض الأول دون الركوب ، ثم تعلموا بعد ذلك أن يمتطوه ، وكان طيّعا في الحالتين ! حتى إذا ما جاء العهد الحديث والري الدائم ، وظهرت حاجة التربة المصرية إلى التسميد ونقل الأتربة بين الحقل والقرية وبين القرية والحقل ، نهض الحمار بهذا الحمل الذي لولاه ما احتفظت التربة بخصبها وقوتها . والحق أن واجب الاعتراف يقتضينا أن نذكر لهذا الحيوان فضله ومكانته في البيئة المصرية . وليس بمستكثر أن يضيف الباحث أنه لولا وجود هذا الحيوان في بيئتنا لنقص تلك البيئة شيء كثير . ولو قد أتيح لهذا الأخرس أن ينطق لأفصح عن معاونته الخطيرة فيما بنته يد الإنسان ، ولتحدث عن غير قليل مما سبق إليه من فضل على الناس ! أما الحصان فجاء متأخراً ، ولم يعرفه المصريون إلا أيام الهكسوس ثم في الدولة الحديثة . وهو حيوان أسيوي ، موطنه وسط أسيا . استؤنس في الألف الثالثة قبل الميلاد ، ودخل مصر حوالي عام ١٧٠٠ ق . م . ، ثم ظهرت فصيلته العربية قبل الإسلام بقرون ؛ وادخلت إلى مصر مع سائر البلدان المجاورة للبادية العربية . وقد كان للحصان فضل مشهور في حروب مصر وفتوحاتها القديمة . أما الجمل فيقال إنه كان معروفاً في الصحاري المجاورة لمصر في العهد الفرعوني ؛ ولكنه على كل حال لم

يستخدم فى مصر ذاتها إلا فى العهد الرومانى ، بل فى أواخره . ويقال إن الجمل لم يستخدم فى طرق إفريقية الصحراوية إلا فى القرن الرابع الميلادى وما بعده . وعلى كل حال فالجمل لا يزال حيواناً غريباً بعض الشىء فى البيئة المصرية ، ولا تزال مصر بحاجة إلى أن تجدد ثروتها منه فى كل عام بما تجلبه من جمال الصحراء ، حتى يحتفظ النوع بقوته وحيويته .

وغير هـذه الحيوانات التى ذكرنا كثير . ولكن فيما أتينا به ما يكفى لأن يدلل على أن الريف المصرى قد تغيرت ثروته الحيوانية تغيراً ظاهراً فى أعصر التاريخ ، فاحتفظ ببعض حيواناته القديمة وأهمها الحمار ؛ ولكنه جدد ونوّع ؛ واختفت منه بعض الأنواع والسلالات على حين دخل بعضها الآخر إلى هذا المسرح الذى تداولت من فوقه أمم الحيوان .

كل هذا من مقومات الحياة والمدنية المادية فى الزراعة المصرية وما يتصل بها من نشاط فى استنبات النبات وتربية الحيوان ؛ وهو الجانب الذى تعمدنا تفصيله بعض الشىء فى هذا المقال نظراً لقلة ما هو معروف عنه بصفة عامة. ولا يتسع المجال الآن لأن نتتبع بعض الحرف والصناعات الأخرى التى قامت إلى جانب الزراعة أو تفرعت عنها . ومع ذلك فان ما ذكرناه عن الزراعة ينصرف إلى تلك الحرف الكثيرة من حيث المحافظة على القديم وإضافة الجديد إليه .

فأما الجانب الآخر من حياة المصريين وحضارتهم ، وهو الجانب الثقافى ، فمعروف عنه الكثير ؛ وقد سبق أن عالجناه فى مقال سابق[1] ، فيكفى أن نجترىء الآن بما له صلة مباشرة بالموضوع . وقد يكفى أن نذكر أن هذا الجانب من حياة المصريين وحضارتهم لم يختلف عن الجانب المادى فى كثير ، من حيث إن المصريين احتفظوا ببعض عناصر ثقافتهم القديمة ، ولكنهم أخذوا عن غيرهم من الأمم بمثل ما أعطوا وقدّموا للعالم الخارجى فى الشمال والجنوب وفى الشرق والغرب . فقد تطورت لغة المصريين مثلا وكتابتهم أيام الفراعنة ، فظهرت الكتابة الهيراتيقية والديموتيقية ثم القبطية ، واستخدمت الإغريقية فى بعض مدائن مصر لا سيما الإسكندرية ؛ حتى إذا ما جاء العرب أخذ المصريون عنهم لغتهم التى يتكلمون ويكتبون . وكان المصريون الأقدمون

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٣ (ديسمبر ١٩٤٥) .

قبل ذلك قد أثروا بكتابتهم الهروغليفية أو ببعض عناصرها فى كتابة الفينيقيين عن طريق شبه جزيرة سينا، وبذلك ساهموا فى نشأة الكتابات والأبجديات اللاحقة فى الشرق ثم الغرب .

وفى ميدان الدين كانت للمصريين الأقدمين معتقداتهم وعباداتهم القديمة التى نشأت كلها تقريباً فى أرض النيل، وتأثرت بظروف البيئة المحلية . ولكنهم مع ذلك احتكوا بغيرهم فى مدرسة عين شمس أول الأمر ثم فى الإسكندرية فى عصر لاحق، وأثر الفكر الدينى المصرى فى الفكر الإغريقى ثم المسيحى ؛ حتى إنه ليقال إن قصة مريم العذراء والمسيح عليه السلام كما تصورها المسيحية لتشبه من بعض الوجوه قصة إيزيس وابنها الإله حورس فى مصر القديمة، وإن خروج المسيحية عن التوحيد الخالص وأخذها بفكرة الثالوث إلى جانب فكرة التوحيد ليذكرنا بما كان فى مصر القديمة من ثواليث بين الآلهة، رغم سيادة إله معين على غيره من الآلهة . ولكن الشىء المهم على كل حال أن اتصال مصر بالفكر الدينى الشرقى فى العهد المسيحى مهد السبيل لأن تتقبل مصر أفكار الشرق الموحد، وتزاوج بينها وبين أفكارها هى، على نحو أدعى إلى الاستقرار والدوام مما حدث أيام أخناتون فيلسوف مصر الموحد فى العهد الفرعونى ؛ فقد تأثر ذلك الفيلسوف — فيما يرى بعض الباحثين على الأقل — بلون من ألوان الفكر الدينى الموحد، وحاول أن يفرضه على الفكر الدينى المصرى، ولكنه لم يوفق ؛ لأن الأفكار الدينية التى نشأت فى مصر وفى البيئة المصرية كانت أقوى من أن تزعزعها استعارة من الخارج أو وحى جديد لا يمت إلى الفكر المصرى الأصيل بسبب قوى . أما المسيحية فكانت فى ثوبها الذى ظهرت به فى القرنين الثانى والثالث وما بعدهما خليطاً من الفكر الشرقى الصارم فى توحيده والفكر المصرى الإغريقى الذى يأخذ من الآراء والمعتقدات القديمة بطرف أو أطراف . لذلك كان يسيراً على الفكر المصرى أن يتقبل الديانة الجديدة، بل أن يتعصب لها ويدافع عنها ضد اضطهاد الرومان . . . وقد لا نغالى إذا قلنا إن توغل المسيحية فى مصر يمثل مرحلة انتقال ضرورية مهدت السبيل لما جاء بعدها، وأنه لولا هذه المرحلة ما استطاع الإسلام، وهو دين شرقى جديد صارم فى توحيده، أن ينتشر فى مصر . ومع ذلك كله فان الإسلام لم ينتشر فى أرض النيل دفعة واحدة، وإنما دخل الناس فيه تدريجيا . ويبدو

أن الكنيسة القبطية بقيت قوية متماسكة حتى القرن الثالث عشر ، عندما اضمحلت وكثرت فيها المشاحنات الداخلية ، فدخل كثير ممن بقى من أتباعها فى الدين الجديد أفواجاً . وفضلاً عن ذلك كله فإن الإسلام عندما شمل مصر لم ينسخ كل ما قبله من عقائد وتقاليد تتصل بالعادات والعبادات ؛ وانما استمر كثير مما تعارف عليه المصريون منذ أيام الفراعنة كالعادات الجنائزية وصلات الأحياء بالأموات ، ثم العادات الاجتماعية فى الموالد والأفراح ، والصلات الشعبية والروابط القروية والأسرية وغير ذلك مما ينظم العرف والتقليد أحياناً كثيرة ، وينظم القانون فى بعض الأحايين .

وهكذا انتهى الأمر إلى ما نراه فى العهد الإسلامى من جمع بين الفكر القديم والفكر الحديث فى رباط ظاهره التناقض والمتناقضات ، ولكن باطنه ينطوى مع ذلك على كثير من التوافق والتكافل . ذلك أن الانتقال فى الفكر الدينى المصرى لم يكن مفاجئاً كما ذكرنا ، ولم يأت عن طريق الثورة الجامحة على القديم ؛ وإنما جاء عن طريق المزاوجة والتكافل بطريقة آلية بين هذا الجديد الذى أخذناه عن الخارج وذلك القديم الذى احتفظنا به عن تراثنا الخالد . وواضح أنه لا يجوز ولا يمكن ان يعتبر من الإنصاف العلمى فى كثير أو قليل أن نلتفت إلى القديم الذى احتفظنا به فنقول إن المصريين جامدون محافظون ، وأن نُعرض فى الوقت نفسه عن الجديد فلا نقول إنهم متطورون مجددون . فنحن أمة قد جمعنا بين القديم والجديد . وليس هذا التناقض الظاهر فى حياتنا الفكرية والروحية غير مظهر لا يمس الجوهر ؛ لأن جوهر الروح المصرى قادر على أن يجمع بين القديم والجديد فى غير حرج ؛ بل قادر على أن يجد غذاءه ويستمد لبانه من الاثنين . وترجع مقدرته هذه إلى أنه روح طويل العمر ، قد عاصر التاريخ كله ، فكانت له من تجاريبه التى توارثتها الأجيال ، تلك المقدرة النادرة التى امتازت بها مصر على كثير غيرها من أمم الأرض التى لم تتصل حياتها ولم يحفل تاريخها بدروس العِبَر وأحداث السنين .

ونستطيع أن نستطرد إلى جوانب أخرى من حياة المصريين فى غير اللغة والدين والعادات والتقاليد ، فنلاحظ احتفاظ مصر ببعض قديمها ، ونزعتها إلى التجديد فى الوقت نفسه ؛ وهو أمر ماثل فى كثير من مظاهر حياتها الحديثة بعد أن اتصلت بالغرب فى العصر الحديث . ولكن أمر هذا الاتصال معروف

بما لا يدع حاجة إلى إطالة . ويكفى أن نذكر أن مصر رغم ما أصابته فى نهضتها الحديثة من تغيير شمل كثيراً من جوانب الحياة مادية وثقافية ، فإن التغيير والتجديد فيها اتخذ صورة التطور المتئد والتحول الهادئ تارة ، واتخذ صورة الثورة العنيفة والتبدل السريع تارة أخرى . ولعلنا إن دققنا النظر وأنعمناه واجدين أن مصر كانت دائما تعمد إلى الطريقة الأولى ، فتتهادى ولا تنفض القديم كله ، إذا مس التغيير عنصراً من عناصر المدنية والحضارة الأصيلة ، أى التى نشأت فى البيئة المصرية ، كتغيير وسائل الزراعة فى الحقل المصرى الصغير ، أو تغيير التقاليد والعادات الاجتماعية والروحية وغيرها من تراث مصر القديم ؛ فكل ما حدث فى هذا الميدان إنما كان إضافة من الجديد إلى القديم ، أو تهذيباً للقديم بما يزاوج بينه وبين الجديد فى صورة تحفظ من القديم روحه حيناً ومظهره حيناً آخر ، وتلائم بين الجديد وبين ما تقتضيه البيئة وظروف الحياة فى مصر . أما إذا مس التغيير والتجديد عنصراً من عناصر الحضارة أو الثقافة التى استعارتها مصر من الخارج فى فترة من فترات تاريخها الطويل ، فإن المصريين لا يجدون حرجاً فى أن يندفعوا فى طريق التغيير والاستبدال السريع . ومن آيات ذلك ، إن أردنا التمثيل ، ما أصاب المجتمع الحضرى فى مصر إبان عهد الأتراك من عادات كثيرة تتصل بالأسرة والحجاب بين النساء ، والقطيعة بين المرأة وبين أن تساهم فى الحياة والثقافة العامة ؛ فإننا ما لبثنا أن خرجنا على ذلك كله ونفضناه فى العهد الحديث . وكان خروج المرأة إلى الحياة العامة فى المدن المصرية ومساهمتها فى النهضة الحديثة ثورة ، أو هو أدنى إلى الثورة منه إلى التطور البطئ ؛ لأن الأمر لم يَعْدُ أن يكون استبدالا لعادة أجنبية بعادة أخرى دخيلة . كذلك الحال فيما أخذنا بسبيله من التجديد فى التعليم والتشريع على نسق أمم الغرب ؛ فإننا فى التعليم لم نبن على النظام الأزهرى الشرقى القديم ؛ وإنما أخذنا فى شئ من العنف بلون جديد من التعليم المدنى ؛ وترتبت على ذلك ثنائية غريبة فى تعليمنا القومى . وحتى الأزهر نفسه لم يأنف أن يأخذ بالأسلوب الجديد ، فداخله التجديد وغزته العلوم الحديثة فى عقر داره . أما فى التشريع فإننا لم نجد حرجاً فى أن نضيف إلى الشريعة التى أخذناها عن الإسلام قوانيننا الحديثة التى أخذناها عن الغرب ، فحلت هذه القوانين محل الشريعة فى أمورنا المدنية والجنائية ، وأخذنا بذلك كله فى يسر .

وسلكنا طريق الثنائية التشريعية فى غير ضيق ولا حرج. بل كذلك الحال أيضاً — إن أردنا مثالا ملموساً من الحياة العملية — فى لباس المصريين؛ فمنذ عهد الإغريق والرومان خلع المصريون تدريجيا لباسهم المصرى التقليدى والذى يلائم بيئتهم، واستبدلوا به ألوانا مختلفة من اللباس الفضفاض الذى تغير من عصر إلى عصر خلال العهد العربى والتركى ثم العهد الحديث. ومامرجع هذه الفوضى وتلك الثورات العنيفة فى لباس فئات الأمة المختلفة، وانتقالها من زى معين إلى آخر فى ثورة وتبرم، أو فيما يشبه ذلك، إلا لأن هذه الأزياء جميعاً مستعارة؛ فلا يجد المصرى حرجاً فى أن يثور ويبدل زياً بزى، فى غير ما ضابط يجمع بين طبقات الأمة ويوحد المظهر بين فئاتها المتباينة. وليس أدل على أننا فى مصر لا نستنكف التغيير والاستعارة المتجددة فى هذه الأمور، أو لا ننظر إليها نظرة الجد والاهتمام، من أننا أمة تتباين بين أفرادها الأزياء وتختلط بصورة لافتة إلى أبعد الحدود، ومع ذلك كله لا نكاد نهتم لما قد يترتب على هذا التباين أحياناً من مساس غير مباشر بمقومات وحدتنا القومية.

إلى هنا ونخرج بأننا إذا تحدثنا عن المصريين وطابعهم القومى والحضارى العام فإننا لا نستطيع فى يسر أن نقول عنهم إنهم أمة محافظة على القديم؛ فمثل هذا الحكم لا يجوز أن يطلقه على علاته غير من لا يتعمقون الأمور؛ وهو إلى جانب ذلك حكم لا يشمل غير جانب من الحقيقة؛ فاذا كان المصريون قد حافظوا على بعض تراثهم القديم، فإنهم لم يقفوا جامدين من نزعات التجديد، وإنما حفل تاريخهم الطويل بكثير من عناصر التقدم والتطور والابتكار والاستعارة، وشمل ذلك حياتهم المادية والروحية جميعاً، وحضارتهم المدنية والثقافية سواء بسواء. والذين يدرسون الأمم الحديثة ويتصدون لاستشفاف مصايرها والتعرف على أقدارها المستقبلة يشبهون الأمم بالأفراد، فلكل أمة شخصية ذاتية، وصفة قومية، يعبر عنها الباحثون الآن بما يسمونه national character. ولن يكون من الإنصاف فى حق هذه الأمة العريقة أن نرميها بالجمود، وما بها من جمود؛ ولا أن نقول إنها محافظة إلى حد يقطع بينها وبين أن تساير سنة التطور والتقدم والاجتهاد والتجديد. ولو أن مصر كانت جامدة فى تاريخها الحافل الطويل ماعاشت على الزمن، بل لسبقتها الأيام واندثرت حياتها

ودالت أمتها كما دال غيرها من الأمم . ولئن كانت مصر قد عاشت كل هذه القرون الكثيرة ما ذلك إلا لأنها لم تتقاعد عن أن تأخذ بأسباب التجديد . وغاية ما هنالك أن هذا التجديد فى مصر لم يؤد دائماً إلى محو كل قديم . وما كان من الخير أن يمحق قديم صالح لمجرد قدمه ، ولا أن يستبدل به جديد غير صالح لمجرد أنه جديد . ولو أخذ المصريون بكل جديد صادفهم فى تاريخهم الطويل لتغيرت معالم حياتهم بما لا يدع مجالا للتعرف على شخصيتهم القومية ، تلك التى بقيت على الزمن وغالبت الأيام . وقد يكون من الخير لأبناء مصر ، وهم يترسمون خطاهم ويرسمون خططهم للمستقبل ، أن يعودوا إلى تاريخهم فيدرسوا فيه شخصية أمتهم المميزة ؛ وعندئذ يعلمون أنهم محافظون يجيدون المحافظة ، ومجددون يحسنون التجديد ؛ بل عندئذ يعلمون أن لشخصيتهم القومية مقومات أساسية نشأت فى مصر وتغذت بلبان بيئتها ؛ فلا سبيل إلى أن تنفضها فى عنف ، ولا إلى أن نثور عليها ثورة مصيرها إلى الإخفاق ؛ لأنها تغاير طبيعة الأشياء ؛ كما أن لتلك الشخصية مظاهر أخرى كثيرة جلها مستعار ، ويمكن أن نستبدل به غيره متى كان فى الاستبدال ما يفيد وينفع . ولا خوف من أن يندفع الشعب إلى مثل هذا التجديد اندفاعاً ، فهو آخذ به فى غير حرج ؛ لأنه شعب عرف فى تاريخه كيف يساير الزمن ، وكيف يجدد حياته ويغذى حضارته بما يبتكر أو بما يقتبس عن حضارات الآخرين فى الشرق أو فى الغرب .

وبعد ، فليس يضيرنا فى شىء أن يجمع شعبنا بين القديم والجديد ، وأن يجنح فى نهضته الحديثة إلى أن يتئد ويستمسك بالماضى فى أشياء ، وإلى أن يندفع ويجدد ويقتبس فى أشياء أخرى . فمن يدرى ! لعل هذه الخاصية العجيبة فى شعب مصر أن تكون هى سر الحياة ؛ أو لعلها أن تكون فى القليل دليل الحيوية واليقظة التى لا يلهيها غد عن أمس . بل من يدرينا ! فقد يجد أولئك الذين يقودون نهضتنا القومية فى دراسة هذه الخاصية العجيبة وتفهمها على وجهها الصحيح مفتاح النجاح لما يرسمون من خطط فى المستقبل .

سليمان حزين

اللغز الأكبر

تأملتُها - زَوْجي - فمنظرُها الغضُّ ... ومعقولها الراسي ومخبرُها المحضُ
بدائع خَلقٍ قد تألَّف نَظمُها ... فما إنْ يُوَفيهنَّ نثرٌ ولا قرض
لقد دِنْتُ بالحبِّ الذي انتظم الدُّنى ... فلاقت كمالاتٌ به بعضَها البعض

إلى أن دعا داعي المنون بزوجتي ... وصار إلى عُقم الفلا ذلك الفيض
وعُفِّي على هذي الكمالات كلها ... وهِيلَ عليها التربُ واستوت الأرض
تَوَلَّيتُ كالمجنون أعولُ مُنكِراً ... إلى أيِّ حدٍّ راح بالقدر البغض

مضى العامُ لا أقضي التعجب مذ قضت ... كأنَّ البرايا منذ آدمَ لم يقضوا
تُساور عقلي في الحياة وفي الردى ... هواجسُ عقلٍ لا يقوم له نَهض
يُقِضُّ عليَّ الحدْسُ بالليل مضجعي ... ولا فرضَ إلا بات ينقضه فرض
أقابل بين الحالتيْن ، وأنثني ... أوثِّق إيماني مخافةَ يَنقضَ
فيعصمني أني إذا هاج لاعجي ... وجار عليَّ الفكرُ واستفحل المضّ
يراجع قلبي هاتفٌ من تصوُّفٍ ... ينادي أنِ اخشعْ، ذلك البسط والقبض

عبد الرحمن صدقي

رسائل الزهاوى [1]

حضرة الأستاذ

بعد التحية والاحترام أشكر لك حسن ظنك بى أما ميلادى من حيث الزمان والمكان فتراه فى ترجمة حياتى ، وكان عدد سكان بغداد فى العهد الذى ولدت فيه مائتى ألف نسمة تقريباً وحالتها الاجتماعية يومئذ منحطة ولا غاية لأكثر رجالها إلا التزلف إلى الحكام الأتراك وولاتهم ولا منافسة إلا فى الرتب والألقاب .

واليوم قد بلغ عدد سكانها ٣٥٠٠٠٠ الفاً على وجه التقريب والأخلاق بعد الاحتلال آخذة فى التقهقر والأزمة الحالية شديدة وقد منعنى الكبر والمرض أن أبسط لك المقال فى عادات القوم وتقاليدهم وآمالهم وآلامهم وما تستحقه من إصلاح وتجديد .

واما حالة العراق العامة أيام مولدى فكان فى رخاء على الأكثر غير أن الجهل كان يسود أكثر أهله ولم تكن فيه يومئذ مدارس للذكور ولا للإناث إلا الكتاتيب وإلا المدارس القديمة الدينية وكان التعصب شديدا .

وقد بنيت الأدب على أنقاض عبد الباقى العمرى والأخرس وكلاهما من الشعراء الوزانين المقلدين فلا جزالة فى ألفاظهما ولا ابتكار فى معانيهما واذكر أن شاعريتى بدأت وأنا ابن ١٥ سنة ومن أوائل شعرى .

أما آن أن نأبى على الوطن العارا   فنركب أخطارا ونقضى آوطارا

ولك أن تنشر ترجمتى فيما تشاء من الصحف على أن تهدى إلى نسخة منها وعليك لسلامى .

فى ٨ أيلول سنة ١٩٣٢   جميل صدقى الزهاوى

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١٥ (ديسمبر ١٩٤٦) .

ترجمة حيـاتى ملخصة

ولدت فى بغداد من أبوين كرديين فى يوم الاربعاء ١٨ حزيران سنة ١٨٦٣ أما أبى فهو مفتى العراق محمد فيضى الزهاوى الـكبير ويرجع نسبه إلى امراء السليمانية (البابان) وهئولاء ينتمون فى نسبهم إلى خالد بن الوليد . وشهرة والدى بالزهاوى هى لأن أباه (جـدى) احمد بك هاجر إلى « زهاو » (بلدة ملحقة فى يومنا هذا بإيران) وسكنها سنين وتزوج فيهـا بسيدة زهاوية فولدت له أبى فلما رجع إلى السليمانية مع نجله (أبى) اشتهر أبى بالزهاوى .

وأما أمى فاسمها « بيروز » وهى سيدة عصبية المزاج من أسرة كردية وجيهة (ولعلى ورثت العصبية منها) وكنت فى صباى أدعى بالمجنون لحركاتى غير المألوفة وفى شبابى بالطائش لخفتى وإيغالى فى اللهو وفى كهولتى بالجرىء لمقاومتى الاستبداد وفى شيخوختى بالزنديق لمجاهرتى بآرائى الحرة الفلسفية المخالفة لآراء الجمهور .

تعلمت كثيراً من علوم الأولين فلم تشبع عقلى وكثيرا من علوم الغربيين فيما ترجم إلى التركية والعربية على اساتذة خصوصيين فولعت بها ودأبت على المطالعة وتوسعت فيهـا وكان أول نظمى بالفارسية ثم بالعربية ونشرت لى المجلات والصحف فى مصر وبيروت والشام وبغداد مقالات كثيرة وقصائد ثائرة وأنا أول من دافع عن المرأة فى العراق وأول من قاوم الاستبداد فى عهد السلطان عبد الحميد وأول من نظم القصائد القصصية وأول من تمرد على القديم وعنى بالتجديد وقاوم التعصب .

ولم أتعلم لسوء الحظ لغة غربية وقد تزوجت فى سن الثلاثين بالآنسة زكية هانم وعمرها يومئذ ١٦ سنة وهى من بيت تركى شريف ولم يولد لنا ولد وقد خدمتنى فى شيخوختى باخلاص وأمانة .

وعينتنى الحـكومة التركية فى أول شبابى عضوا فى مجلس المعارف ببغداد ثم مديرا لمطبعة الولاية ومحررا للقسم العربى من جريدتها الرسمية (الزوراء) ثم عضوا فى محكمة الإستئناف وسافرت بعد سنوات إلى مصر فمكثت فيها أسبوعا ثم أبحرت إلى اسلامبول عاصمة البلاد العثمانية يومئذ .

وبعد سنة أرسلتنى الحـكومة بإرادة سلطانية إلى اليمن واعظاً عاماً وعضوا

فى الجمعية الاصلاحية وبقيت فيها ٩ أشهر ثم دعيت إلى العاصمة بارادة سنية واجتمعت فى هذه المرة بالترك الأحرار وجاهرت بالسخط على نظام الحكم يومئذ ونظمت فى ذلك عدة قصائد نشرت فى جرائد مصر بتوقيع مستعار وأصبحت معقبا بالجواسيس وكانت النهاية أن أبعدنى السلطان إلى بلادى براتب شهرى قدره ١٥ جنيه .

وأكثر شعرى الذى كنت نظمته قبل الدستور العثمانى نشر فى ديوانى الأول « الكلم المنظوم » ولما أعلن الدستور العثمانى عدت إلى العاصمة فعينتنى الحكومة الدستورية أستاذاً للفلسفة الإسلامية وأستاذاً للآداب العربية فى جامعتها وقد نشرت دروسى التى كنت القيها فى الفلسفة بمجموعة دار الفنون باللغة التركية . ثم اشتد بى المرض فألجأنى إلى الرجوع إلى بغداد أستاذاً للقانون المدنى فى كلية الحقوق .

وفى ولاية ناظم باشا كانت جريدة « المؤيد » فى مصر قد نشرت لى مقالة أدافع فيها عن حقوق المرأة فقامت حول هذه المقالة ضجة كبيرة وأخذ المتعصبون يرغون ويزبدون ويقذفوننى بالسب واللعن .

والمهذبون من الكتاب فى مصر وسورية يناصروننى ولكن التعصب فى بغداد كان يومئذ ذا صولة فلم يسع الوالى غير عزلى من وظيفتى إرضاء للرأى العام ثم جاء جمال باشا والياً عوضاً عن ناظم باشا فارجعنى إلى وظيفتى .

ثم انتخبت نائبا عن لواء المنتفق فى البرلمان العثمانى فحضرت جلساته فى اسلامبول ثم انفسخ المجلس فعدت إلى بغداد وانتخبتُ من بغداد نائبا عنها فذهبت إليها ثانية وألقيت الخطب أدافع عن حقوق العراق وعن الحق وقامت حولى الضجات فلم أبال ثم بعد سنتين أو ثلاثة وقعت الواقعة وأعلنت الحرب العظمى واحتلت الجنود الانكليزية بغداد وأرادت أن تأخذنى إلى الهند أسيرا ولكننى أبرزت ورقة فيها صراحة بأنى مكاتب لجريدة المقطم المصرية (وكانت هذه الجريدة موالية للانكليز) فأفرجوا عنى .

وعينتُ فى عهد الاحتلال عضواً فى اللجنة التى تدير أمور المعارف ثم رئيساً للجنة تعريب القوانين التركية فعربت ١٧ قانونا بين صغير وكبير ثم ألغيت اللجنة وجاء جلالة الملك فيصل الأول المعظم وتوج ملكا على العراق واحتفل به فى بغداد احتفالات باهرة كنت المغرد فيها .

ثم هاجرتُ إلى سورية فمصر وأقيمت لى فى الشـام وبيروت ومصر عدة حفلات ونشرت لى فى الشام وبيروت ست قصائد وفى مصر أكثر من ثلاثين قصيدة وبعد أن أعلن الدستور فى العراق رجعت إليه فعينني جلالة الملك عضواً فى مجلس الشيوخ ثم بعد ٤ سنوات خرجت من المجلس بالاقتراع الذى كان قد نص عليه الدستور العراقى .

ثم تمت المعاهدة بين الحكومة العراقية وبريطانيا العظمى وكانت يومئذ تنشر لى « السياسة الأسبوعية » (مجلة كانت تنشر فى مصر) كل أسبوع قصيدةً فعطلتها حكومة مصر وقد بلغتُ السبعين من عمرى وبان على الهرم وشُلت أصابع قدمى اليسرى منذ أكثر من عشرين سنة وما زالت الأوجاع العصبية تنتابنى وتبرح بى .

وأما مؤلفاتى فأولها رسالة باسم « الكائنات » فى الفلسفة أبديت فيها آرائى الحرة فى المكان والزمان والقوة والمادة والحياة والجاذبية وقد طبعت فى مطبعة المقتطف بمصر ونفدت نسخها . والثانى رسالة فى سباق الخيل أودعتها تجاربى الخاصة فى ركض الخيل وقد طبعت فى مجلة الهلال بمصر . والثالث رسالة فى « الخط الجديد » نشرها المقتطف بمصر ثم فى شكل رسالة وقد نفدت نسخها وهذا الخط لايشبه الخط العربى ولا الحروف اللاتينية ويقدر أن يتعلمه التلميذ فى أسبوع وهو جميل ويكتب متصلا من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين ويطبع مقطعاً وفيه تسهيل للطباعة فإن كل حرف منه إذا قلب كان حرفا آخر من الحروف الأبجدية فقام كل حرف بوظيفة حرفين وتعلم ما فى ذلك من الاقتصاد ويمكن لهذا الخط أن يتخذ خطاً عاما لجميع اللغات . والرابع هو دروسى الفلسفية التى كنت ألقيها على تلاميذى فى جامعة الآستانة . والخامس ديوانى « الكلمُ المنظوم » وقد نشر فى بيروت بأول سنة للدستور العثمانى ونفدت نسخه . والسادس هو « الفجر الصادق » فى الرد على الوهابية وقد طبع فى مصر قبل الدستور العثمانى ونفدت نسخه . والسابع رسالة « الجاذبية وتعليلها » وقد طبعت فى بغداد بعد رجوعى إليها أستاذاً فى كلية الحقوق . والثامن هو ديوانى الذى طبع بمصر باسم « ديوان الزهاوى » . والتاسع هو « المجمل مما أرى » رسالة فلسفية أودعتها آرائى التى خالفت فيها علماء عصرى وبسطت فيها الناموس الدورى العام وعللت الجاذبية العامة بالدفع العام للأثير

الجارى إلى المادة طلباً للموازنة وقد طبعت بمصر قبل ثمانى سنوات . والعاشر رسالة فى لعبة الداما تحتوى على ١٥٠٠ لعبة ٥٠٠ منها لأصحابها و١٠٠٠ من مستنبطاتى وهذه لم تطبع بعد . والحادى عشر ديوان رباعياتى وقد طبع فى بيروت قبل ثمانى سنوات طبعاً رديئاً مغلوطاً فيه . والثانى عشر ديوانى الذى طبع ببغداد قبل ٤ سنوات باسم « اللباب » وأضفت إليه ١٨٠٠ رباعية من رباعياتى منقحة صحيحة وكثيراً من قصائدى المنشورة فى « ديوان الزهاوى » منقحة وما نظمته من القصائد بعده . والثالث عشر « ترجمة رباعيات الخيام » وقد ترجمتها رأساً من الفارسية نثراً ونظماً بعد إثبات الأصل الفارسى فى الصدر وهى ١٣٠ رباعية . والرابع عشر رواية تمثيلية باسم « ليلى وسمير » طبعت فى بغداد قبل سنتين ونفدت نسخها . والخامس عشر رسالة فى تسهيل القواعد العربية لم تنشر بعد . والسادس عشر هو مانظمته بعد قصائد « اللباب » باسم « الأوشال » وقد نشرت قصائده فى مجلات مصر وصحفها والشام وبيروت وبغداد ولم تنشر بعد فى شكل ديوان .

والسابع عشر هو « نزغات الشيطان » وقصائد هذا الديوان لم تنشر بعد فى المجلات والجرائد وسوف تنشر بعد موتى لأنها تصادم آراء المتعصبين وتثيرهم علىَّ إثارة لا أحمد عقباها ، والثامن عشر هى قصيدتى «ثورة فى الجحيم» وعدد أبياتها ٤٣٣ وقد نشرت فى العام الماضى فى مجلة الدهور وكانت يومئذ تصدر فى بيروت . وقد قامت حولها ضجة كبيرة ، وقد سبنى بسببها بعض المتعصبين على المنابر فى خطبة صلاة الجمعة ونفدت بعد قليل من الزمن نسخها ، وفيما يلى فهرس مندرجاتها :

١ — منكر ونكير فى قبر الميت ووصف دقيق لهما .
٢ — حوار بين أحد الملكين والميت يحتوى على أسئلة كثيرة ، والميت يجامل فى أجوبته .
٣ — مصارحة الميت .
٤ — وصف الصراط .
٥ — السؤال عن الملائكة والشياطين والجن وأجوبة الميت .
٦ — السؤال عن السفور والحجاب وجواب الميت .

٧ — السؤال عن الله وجواب الميت .
٨ — إلقاء الحجة .
٩ — الله هو الأثير والاختلاف فى الإسم .
١٠— امتناع الميت عن الإفاضة فى الجواب .
١١— أتركانى ولا تزعجانى .
١٢— تقريع الميت للملكين .
١٣— الإلحاف فى السؤال .
١٤— الحوار الأخير .
١٥— عذاب القبر .
١٦— أخذ الميت إلى الجنة ليرى ما حرمه ثم وصف دقيق لها .
١٧— قذف الميت فى الجحيم ووصف ما فيها من العذاب .
١٨— حوار بين الميت وليلى فى الجحيم (ليلى فتاة فرقوا فى الجحيم بينها وبين حبيبها) .
١٩— الشعراء فى الجحيم .
٢٠— عمر الخيام يتغنى فى الجحيم بالخمرة .
٢١— سقراط يلقى محاضرة على الحكماء فى الجحيم .
٢٢— منصور الحلاج فى الجحيم يعاتب الله .
٢٣— اختراع أحد أهل الجحيم آلة تطفىء السعير .
٢٤— خطبة أحد شباب الجحيم يحدث بها ثورة عامة .
٢٥— المعرى ينشد نشيد الثورة ويردد له الجمهور .
٢٦— الحرب بين الزبانية (حفظة الجحيم) وأهل الجحيم .
٢٧— انجاد الشياطين فى قيادة إبليس لأهل الجحيم وانتصار الملائكة فى قيادة عزرائيل للزبانية والحرب الهائلة بينهما ، ووصف هذه الحرب وانهزام جيش الملائكة وإطفاء الجحيم .
٢٨— احتلال أهل الجحيم للجنة طائرين إليها على ظهور الشياطين .
٢٩— طرد أهل الجحيم بعد احتلال الجنة البله منها .
٣٠— الخاتمة .

بغداد فى ٨ ايلول سنة ٩٣٢ — جميل صدقى الزهاوى

☆

صديقى الأستاذ الجليل

وصل إلى كتابك الكريم وقد كلفتم فيه شيخا همًّا مثلى قد نهكته السنون وشلت رجله الأمراض مالا طاقة له به فهو مشغول بآلامه عن مثل هذه المطالب.

وقد أرسلت إليك عددا من « الأوشال » وعددا من ترجمة رباعيات الخيام وعددا من رباعياتى على أن هذا الديوان مملوء بالأغلاط فلا تعتمد عليه واكتف من رباعياتى بما فى اللباب والأوشال أما « الكلم المنظوم » و «الفجر الصادق» و « الكائنات » فقد نفدت نسخها ولعلك واجد كتاب الكائنات فى القاهرة فإنه طبع فى وقته بمطبعة المقتطف. وأما محاضراتى الفلسفية التى كنت ألقيها بالتركية على تلامذتى فى جامعة الآستانة فقد كانت تطبع فى مجموعة دار الفنون تباعاً فمن أين أجدها اليوم لك وقد انقطعت صلتى بها منذ سنين طويلة. وأما ديوان العمرى والأخرس فأنا عاجز عن الحصول عليهما وأما النزاع بينى وبين الأستاذ الرصافى فليس اليوم كما يكبره المرجفون فكثيرا ما نتلاقى كصديقين.

أما ما كتبه المستشرقون عن الأوشال فكثير غير أنى لا أحفظ العبارات وقد كتب إلىّ أمين مكتبة الفاتيكان الكبرى قائلا ما خلاصته « إن ما يحتوى عليه الأوشال هو أروع ما قرأناه من الشعر العربى العصرى » وقال لى أحد أصحابى إن مجلة من أهم مجلات لندن الإنكليزية نشرت مقالة مفصلة فى تقريظ الأوشال غير أنى لم أحصل عليه.

وأما كتاب المستشرق الكبير الدكتور ودمر الألمانى فى ترجمة حياتى فهو تحت الطبع على حساب أديب ألمانى آخر وقد ترجم الدكتور ودمر فى كتابه هذا قصيدة « ثورة فى الجحيم » وخمسين قصيدة من « اللباب » و ٥٣ رباعية إلى الألمانية وعدد صفحات كتابه أكثر من ٣٠٠ وسيتم طبعه فى الخريف الآتى.

وقد جاءتنى قصاصة من برلين تحتوى على مقالة لأحد دكاترة الألمان يذكر فيها مقابلته لى فى بغداد ويكبرنى إلى درجة لا أستحقها وجاءت مجلة ألمانية تصدر فى برلين فيها مقالة فى ٨ صفحات تشرح المواضيع التى يحتوى عليها كتاب « ودمر » فىّ.

هذا وإذا أردت الحصول على ديوانى العمرى والأخرس وغيرهما فلك أن تراجع رأساً صاحب المكتبة العصرية ببغداد الكتبى الشهير محمود حلمى فهو قد يستطيع أن يجدهما لك ويرسلهما إليك بسعرهما الحقيقى وعليك سلامى.

جميل صدقى الزهاوى

بغداد فى ٧ تموز سنة ١٩٣٥

وصل إلى الآن الجزء الأول من كتاب الدكتور «ودمر» فى والظاهر أنه ترجم قصيدة « ثورة فى الجحيم » بالشعر الألمانى وقد طبع الكتاب على نفقة مستشرق روسى كبير وسيأتيى الجزء الثانى.

الزهاوى

كفاحى الثقافى واختباراتى الصحفية

الثقافة إما أن تكون راكدة وإما مكافحة . وهى تركد حين تعالج موضوعات لا تثير المناقشة . وقد يرجع هذا إلى أن المجتمع نفسه مستقر يعيش فى بيئة زراعية مثلا ، أو أن حق الحكم منفصل منه إذ يتولى شؤونه مستعمرون مثلا . وقد بقينا نحن على هذه الحال نحو أربعين سنة فيما بين ١٨٨٢ و ١٩٢٢ حين تقررت لنا حقوق بالدستور كان مجتمعنا فيها منفصلا من الإدارة الحكومية . وكان المتولون من الإنجليز الذين لا تجدى المناقشة الصحفية معهم عن موضوع تعليمى أو صحى أو اقتصادى . وأذكر أن المرحوم عوض واصف حين أنشأ مجلة «المحيط» فى ١٩٠٣ قال فى العدد الأول إن مجلته ستعالج الشؤون السياسية والحكومية . فردت عليه «المقتطف» بأنه ليست هناك جدوى ؛ لأن المتولين لهذه الشئون إنجليز لا يقرأون العربية .

ولكن مجتمعنا أثار المناقشة وجعل الثقافة الدينية ، عن طريق محمد عبده ، ثم الثقافة الاجتماعية ، عن طريق قاسم أمين ، موضوعا للمناقشة الحية . وكانت حالنا فى تلك السنين أشبه بحال روسيا أيام القيصر ؛ فقد كان المفكرون الروس ممنوعين من نقد السياسة ، فاتجهوا إلى الأدب . وكان علينا فى مصر حظر عام بشأن السياسة وانتقاد الحكومة ، فاتجه النقد نحو المجتمع .

وفى أيامى الأولى ، فى بداية وجدانى الأدبى ، وجدت مجلات «المقتطف» و «الهلال» و «الجامعة» ، من المحركات الذهنية ، بل أكسبتنى هذه المجلات توجيها تجديديا فى العلم والأدب . وكنت قانعاً بهذه الثقافة . ولولا حادثة دنشواى لما التفت إلى السياسة أدرس أصولها وأعنى بتفاصيلها فى السنين العشر الأولى من هذا القرن .

وكانت نظرية التطور التى فهمت مغزاها من «المقتطف» البذرة الخصبة فى ثقافتى . فقد أكسبتنى معرفة وأسلوباً ، وعينت لى أصدقائى وخصومى من

المؤلفين والمفكرين، وغرست فى مزاج الكفاح لأنها تصدت للعقائد والتقاليد. وقد تشعع الكفاح من هذه البؤرة إلى موضوعات أخرى؛ ولذلك لم أسعد قط بالبرج العاجى . كما أن مغزاها الخطير فى التفكير العلمى والاجتماعى جعلنى دائم الشك كبير الاستطلاع والمساءلة، وتغيرت الأوزان والقيم عندى، وأخذت بقيم وأوزان جديدة ترى على لجاجتها فى « مقدمة السبرمان » .

ففى هذه الرسالة أجدنى أقول بالاشتراكية واليوجنية والتطور وتنظيم الدولة والمجتمع لإيجاد السبرمان أى الانسان الأعلى الذى نكون نحن منه بمكان الغوريلا أو الشمبنزى منا . وقد كان التفكير عندى فى هذه الشؤون أقرب الأشياء إلى مايمكن وصفه بأنه « غيبيات » علمية، أخذت مكان الغيبيات الدينية وقتئذ. وفى السنة التى ألفت فيها هذه الرسالة (١٩٠٩) نشرت مقالا فى «المقتطف» بعنوان «نيتشه وابن الانسان» وفى «الهلال» مقالا عن الاشتراكية التى أسميتها وقتئذ «الاجتماعية» ؛ وهذا الاسم الثانى أقرب إلى الكلمة الأوربية من كلمتنا الشائعة الآن « الاشتراكية » . وألفت رسالة فى هذه الموضوعات بعثت بها إلى مطبعة المقتطف كى تطبع . فردتها إلىَّ المطبعة مع نحو ثمانى صفحات مجموعة . وكنت فى لندن، واعتذرت عن التوقف عن الطبع لأن القانون فى مصر يعاقب على نشر هذه الآراء، ونزلت عن أجر الطبع للصفحات الثمانى .

وقد كان هربرت سبنسر يقول إنه يستطيع أن يعرف المستوى الذهنى لأى إنسان بعد مدة قصيرة من التحدث معه . وهو يعنى بهذا أن لكل منا كلمات أو عبارات تتكرر أو يلتفت إليها الذهن كثيراً، وهى تدل على اهتمامات المتكلم أى تدل على ثقافته مادة واتجاهاً . وحين أرجع إلى نفسى أبحث عن الكلمات التى تتكرر فى مؤلفاتى ومقالاتى أجد أن أكثرها تكراراً : التطور، العالمية، حرية المرأة، العلوم، الحضارة الصناعية، الرجعية، المستقبل أى إنها كلمات تدعو إلى تغييرنا .

وأجد أن تفكيرى فى السياسة والثقافة كان على الدوام يساريًّا، وفى الأغلب ارتياديا . ومما يلاحظ أن جميع الكتاب فى مصر بدأوا حياتهم الأدبية مذهبيين ارتياديين، ثم انتهى كثير منهم إلى ملاذ التقاليد يدعون إلى الفعل الماضى بدلا من اقتحام المستقبل . كما أنى أجد أن لى استعراضاً ديمقراطيًّا فى جميع ما أكتب يحملنى على مكافحة الظلمات التى لا تزال حية فى الشرق العربى : فى الاجتماع

والاقتصاد والعقائد . ولذلك لم يتغير موقفى من حيث إنى كاتب مذهبى يسارى أكافح الرجعيين الذين يجدون الحكمة خلفنا لا أمامنا ، كما أكافح أيضاً الإقطاعيين الذين يعارضون الاتجاهات الديمقراطية فى الأمم العربية .

وقد كانت حياتى الصحفية فى مصر ثقافية إلى أبعد حد . فقد أخرجت « المستقبل » فى ١٩١٤ وجعلته للكفاح الفكرى ، ولم ألتفت فيه إلى السياسة ، وأخرجت ١٦ عدداً ، وكان شبلى شميل من محرريه ومؤيديه . ثم اشتغلت بالهلال ثم بالبلاغ . وفى هذه الجريدة الأخيرة اشتبكت بالسياسة . ولكن همى الأول واهتمامى الأكبر كانا بالصفحة الأدبية . وهناك ثلاثة كتب هى « نظرية التطور وأصل الإنسان » و « مصر أصل الحضارة » و « التجديد فى الأدب الانجليزى الحديث » نشرتها كلها فصولا متتابعة فى « البلاغ » قبل أن تجمع فى كتب . ووجدت من عبد القادر حمزة ليس الصدر الرحب فقط بل التشجيع أيضاً على أن أمضى فى هذه البحوث .

أما « الهلال » فقد حررته من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٩ وكان من شروط عملى فيه أن أؤلف كل عام لقرائه كتابا جديداً يقوم مقام العطلة حين كان ينقطع شهرين . وكان بعض هذه الكتب للتسلية مثل « أشهر قصص الحب التاريخية » وكنت أؤديها على سبيل الواجب الحرفى . ولم تكن تكلفنى مجهوداً . ولكن كان بعضها الآخر يحملنى على البحث والدراسة ؛ فكنت أؤلف وأنا أتعلم ، مثل « حرية الفكر وتاريخ أبطالها » و « العقل الباطن » . والحق أن هذه المؤلفات التى ألفتها وأنا بالهلال ثم بالبلاغ كان كل منها بمثابة المدرسة التى علمتنى وأمدتنى بالغذاء الذهنى سنوات . بل حتى المقالات التى كنت أنشرها فى « الهلال » و « البلاغ » وجدت من الناشرين اهتماما ، فطبع بعض منها مع تنوع موضوعاتها باسم « مختارات سلامة موسى » و « اليوم والغد » و « فى الحياة والأدب » .

وقد سعدت بهذه المؤلفات على قلة بل تفاهة ما كسبت منها مالياً . وذلك أنى كسبت تربيتى ، كما كسبت هذا التغير الذى وجدته فيمن قرأوها ، وهو تغير كان أحياناً يصل إلى التطور والانقلاب ، وفيما بين ١٩٢٣ و ١٩٣٠ أثير غبار فى القاهرة بشأن التجديد فى الأدب ، وكان كل أديب يفهم من معنى هذا التجديد غير ما يفهمه الآخرون ، كل تبعاً لمزاجه واتجاهه وثقافته . وأستطيع أن أعين الاتجاهات التجديدية لتلك المناقشات الحامية كما أذكرها الآن فيما يلى :

١ — أن يكون لنا أدب مصرى عصرى لا يرتكن إلى الأدب العربى القديم .
٢ — أن يكون لنا أسلوب عصرى فى التعبير لا يمت إلى الجاحظ أو غيره ، مع مداعبة مستحيية للغة العامية . . . وهى مداعبة لم تثمر .
٣ — أن نأخذ بالأوزان والقيم الأوروبيــة فى النقد الأدبى دون أوزان الناقدين القدماء وقيمهم كالجرجانى أو ابن الاثير أو ابن رشيق .
٤ — أن نجعل الأدب يتصل بالمجتمع ويعالج شؤونه ويندغم فى مشكلاته .
٥ — أن نوجد القصة والدرامة المصريتين .
٦ — أن نجعل الأدب إنسانى الغاية عالمى المشكلات .

والمؤلف بالمقارنة إلى الصحفى يعدُّ ناسكا . فإن المؤلف ينزوى فى غرفتــه باحثاً منقباً ، ولــكن الصحفى يخرج ويختلط بالمجتمع . ومع أن أكثر مجهودى فى الصحافة كان ثقافيًّا فى بحث العلوم والآداب فإنى قد مسست السياسة أيضاً ، وأحيانا اقتحمت غبارها حتى عصفت بى فى كثير من الأوقات . ولــكن أعظم ما يعزينى أن ما عصف بى كان أيضا يعصف بالأمة ، وأنى فى كفاحى الصحفى كنت أكافح للديمقراطية التى حاول المستبدون أن يحرمونا منها .

وأول اختبارى للصحافة كان فى «اللواء» فى ١٩٠٩ ؛ فقد قضيت فيه نحو أربعة أشهر مع فرح أنطون ، وكان يرأسنا رجل مهذب كان يدعى عثمان صبرى وكان صهر مصطفى كامل ، وكان قد تولى الرياسة بعد المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش الذى كان قد أغضب الأقباط بكلمات نابية . وكنا نكتب فى المطالبة بالجلاء ، ولا مفاوضة إلا بعد الجلاء . وهذه عبارة كان يستنكرها بعض الساسة فى مصر ؛ أما الآن فلا تستنكر ، وقد عمل بها الهنود حين أصروا مدة الحرب الـكبرى الثانية على شعار « اتركوا الهنــد » . وقد بقى فرح طيلة عملى معه باللواء وهو يظن أنى مسلم ، لاشتباه اسمى ، ولأنه لم يكن فى كل ما أكتب ما يدل على وجهة خاصة . أما عثمان صبرى فكان يعرف أنى قبطى ، وكان كثيراً ما يذكر مقالات الشيخ عبد العزيز جاويش بالاستنكار أمامى ويتفادى من نشر أى مقال يوهم الشقاق بين المسلمين والأقباط . وقد كسبت من «اللواء» مرانة صحفية حسنة ، وكنت أكتب الخبر والمقال فى السياسة الداخلية والسياسة الخارجية . ولم يكن للخبر فى تلك الأيام قيمة كبيرة . وكانت الجرائد «مقاليــة» أكثر مما كانت

خيبية . وذلك لأن الكفاح من أجل الاستقلال كان يستغرق كل اهتمامها تقريباً ، فكان جميع كتّاب الجريدة محررين .

ولما تركت «اللواء» وعدت إلى أوربا بقيت الصحافة خيالا ساحرا فى ذهنى . ورجعت إلى مصر واستطعت فى ١٩١٤ أن أحقق هذا الخيال بأن أصدرت مجلة «المستقبل» الأسبوعية . ولكن لم أصل إلى العدد الرابع عشر حتى كانت الحرب الكبرى الأولى قد شبت ، وارتفع سعر الورق نحو عشرة أضعاف سعره السابق ، وكان لابد أن أعطلها ، ولكن التعطيل جاءنى بطريق آخر . فى ذات يوم وأنا افكر فى مشكلة الورق طلبتنى إدارة المطبوعات . فقصدت إليها غير عابئ بما يحدث ، وكانت الإشاعات كثيرة بشأن تعطيل المجلات والجرائد . وهناك قعدت أمام أحد الموظفين السوريين الذى حيانى وطلب لى القهوة ، وجعل يلاطفنى بكلمات عذبة ، ويسألنى عن المجلة وهل هى رائجة أم أنى أخسر فيها ، ثم بعث فى طلب رجل انجليزى . جاء وقعد هذا قبالتى يستمع دون أن يتكلم . ثم شرح لى هذا الموظف حرج الموقف وضرورة وقف (أى تعطيل) بعض المجلات . ومع أنى لم أكن أبالى التعطيل ، كما قلت ، فانى وجدت فتنة سيكلوجية فى متابعة البحث والمناقشة وخاصة أمام هذا الإنجليزى ، فأبديت أنى قادر على إصدار « المستقبل » مهما كانت الصعوبات . فتلاحظ الاثنان وأنا مفتون بالموقف . وأصررت على أنى سأصدرها إلى آخر الحرب ، وأنى سأدعو فيها إلى الاشتراكية . وعاد الموظف السورى يخاطبنى فى ملاطفة مسرفة ويقول إنى أستاذ وعاقل . . . الخ . وأصررت أنا على العناد .

وأخيراً صرح ، فى غير ملاطفة ، بأن إدارة المطبوعات تستطيع التعطيل ، وأن المناوئين للحكم فى الظروف الحاضرة الشاذة يمكن نفيهم أو اعتقالهم . وكان هذا ما أردت أن أسمعه ، فنهضت وقلت إنى سأعطل المجلة ، وخرجت .

وأرسلت إلىّ مىّ عقب التعطيل خطاباً تطلب منى أن أحرر «المحروسة» وكانت جريدة يومية قليلة الانتشار يصدرها والدها ، فقبلت ، وبقيت أحررها جملة أشهر سئمت بعدها الكتابة مع المراقبة الصارمة التى كانت تفرضها إدارة المطبوعات على الصحف . ولم يكن يخفف من هذا السأم سوى زيارت مىّ ومؤانستها لنا من وقت لآخر ؛ فقد كانت حلاوتها تمتزج بظرف ورقة .

وبقيت طيلة الحرب الكبرى الأولى وأنا معطل . وقد قضيت معظم سنى

هذه الحرب فى الريف فى عزبتنا بالقرب من الزقازيق . وكانت تلك الأيام بمثابة الحضانة . فقد أكببت على القراءة الجدية فى الآداب والعلوم واستوعبت منها كثيراً . وكنت من وقت لآخر أقصد إلى مأمور المركز فى الزقازيق كى أرجوه فى الإفراج عن أحد الذين قبض عليهم من الفلاحين . وكانت الحكومة تنفذ شرطتها إلى الأسواق الريفية العامة فتقبض على من تستطيع من هؤلاء المساكين وتربطهم بالحبال الغليظة كما لو كانوا أسرى حرب ، ثم يبعثهم الإنجليز إلى فلسطين وكانوا يموتون بالمئات والألوف . ولم أكن أنجح فى تخليصهم إلا بالرشوة .

وسئمت الركود الريفى ، فاشتغلت بالتعليم فترة . ثم هبت الثورة فى ١٩١٩ ورأيت أن أقصد إلى القاهرة حتى أكون على صلة بالحوادث ، وحتى أجد منفذاً جديداً إلى الصحافة . وتحقق لى ذلك ؛ فإنى بعد أن اشتغلت بالتعليم فى مدرسة التوفيق قليلا اشتركت فى تحرير «الهلال» ، واشتركت أيضاً فى تحرير «البلاغ» .

وانغمست فى السياسة مع المرحوم عبد القادر حمزة ، وكنت أزور معه سعداً . وكان عبد القادر حمزة من الكتّاب الأفذاذ إذا نشب فى موضوع لم يترك الجدل فيه حتى يستقصيه ويخرج منه منتصراً . وكان نزيها فى حكمه حتى حين كان يختلف . فإنه بعد أن ترك الوفد فى ١٩٣١ بقى على صداقته السابقة مع كثير من الوفديين .

وأصدرت « المجلة الجديدة » فى أواخر ١٩٢٩ . وأصدرت « المصرى » فى السنة التالية . وكانت الأولى شهرية والثانى أسبوعيا . وكانت الدعوة فى كليهما تحريرية فى الثقافة والسياسة . وعصفت بنا فى ١٩٣٠ عاصفة سياسية فى وزارة إسماعيل صدقى باشا ، فألغى الدستور واستبدل به آخر بعيداً عن الديمقراطية ، وألغيت مجلتاى . وكان قد شُرط فى قانون النشر الجديد أن من يطلب امتيازاً لجريدة أو مجلة جديدة يجب أن يؤدى تأميناً قدره ١٥٠ جنيها . فأديت التأمين نقداً . ولكنه رفض . وبعد ثلاث سنوات أى فى ١٩٣٤ جاءت وزارة عبد الفتاح يحيى باشا ، فاستطعت أن أعيد إصدار «المجلة الجديدة» بضمان عامل فى المطبعة عندى . . . وهذه هى حالنا فى مصر : فى وزارة ما يرفض التأمين النقدى ، وفى وزارة أخرى يقبل ضمان العامل الذى لا يملك شيئاً .

وفى بداية الحرب الكبرى الثانية أنشئت وزارة الشؤون الاجتماعية ، فاستدعتنى كى أحرر مجلتها . وقبلت لأنى وجدت أن الفرصة تتيح لى الإرشاد

العصرى والتوجيه الاجتماعى . وبقيت أكتب فى هذه المجلة نحو سنتين . وكانت مقالاتى يوقع عليها بامضائى أو تنشر بلا إمضاء . فإذا راقت المشرفين على المجلة وُضع لها إمضاء غيرى ولو لم تكن له علاقة بالوزارة . وقد كان هـذا العمل مثاراً للسخرية أحيانا وللأسف أحيانا .

وكنت أتناول عشرين جنيها راتباً شهريا على التحرير دون أى اشتراط على القدر الذى أكتب أو على مواظبة الحضور . فكان يمضى الشهر دون أن أحضر للوزارة ، وكنت أكتب أى قدر شئت من الصفحات . ولـكن الوزارة ضنت علىّ بهذه الحرية مع صغر الراتب . فألغته وعينت أربعين قرشاً للصفحة الواحدة . ورأيت آخر الشهر بعد هذا النظام أن كل ماحصلت عليه هو جنيهان فقط ، فتركت التحرير .

وكنت طيلة عملى بالوزارة أصدر « المجلة الجديدة » أيضاً . وبقيت على ذلك إلى ١٩٤٢ حين سلمتها لبعض الإخوان الأصدقاء كى يقوموا بنشرها وكى أختص أنا فى التحرير السياسى . ولـكنهم نزعوا نزعة ديمقراطية مسرفة لم ترض الاستعمار ، فألغيت فى تلك السنة بأمر عسكرى .

وفى السنة التالية اشتريت امتياز جريدة يومية . وقبلت إدارة المطبوعات نقل الامتياز الذى أثبت فيه أنها « يومية » وذكر فيه الضمان بأنه ٣٠٠ جنيه أى ضمان جريدة يومية . وبعد أن قبل كل هذا وبعد أن استعددت لإصدار هذه الجريدة اليومية أقيلت وزارة الوفد . وفى اليوم التالى للإقالة فى أكتوبر من ١٩٤٤ أبلغتنى إدارة المطبوعات أن الجريدة شهرية وأنه لايجوز لى أن أصدرها يومية .

وعندما أقارن بين صحافة الجيل الماضى (من ١٩٠٠ إلى ١٩٢٠) وصحافة الجيل الحاضر ، أجد أننا قد تقدمنا وتأخرنا . أجل ! تقدمنا فى فن الطبع والإخراج تقدما عظيما جدًّا ، فإن جرائدنا ومجلاتنا تدل على رقى فنى يضارع أعلى المستويات الصحفية فى أوربا . ولـكننا من حيث التحرير تأخرنا ؛ إذ ليس عندنا الآن من المحررين من يضارعون مصطفى كامل أو على يوسف أو لطفى السيد . وقد مات عبد القادر حمزة وهو آخر هذا الجيل المنقرض .

ولـكن هناك مع ذلك علامة حسنة فى الصحافة الحديثة ، هى عنايتها الكبيرة بالأخبار الخارجية ؛ فإن هذه العناية ، التى كان مبعثها الحربين الأخيرتين ،

تنير القراء وتربيهم على النظر العالمى وبحث سياستنا من الزاوية السياسية العالمية الكبرى . وهذا حسن .

وقد دلتنى اختباراتى فى السياسة والثقافة أن مقالين فى السياسة أحيانا يعودان بمثل الربح المالى الذى يعود من تأليف كتاب كامل قد احتاج إلى دراسة السنين . ولذلك فان التأليف فى مصر تضحية كبيرة لا يرضاها إلا المهوّسون بالثقافة . ولذلك أيضاً أصبح كثير من الأدباء الذين افتتحوا حياتهم بالتأليف صحفيين .

وذات مساء فى ١٢ يوليه من هذا العام ١٩٤٦ كنت نائماً على الأسفلت فى غرفة مظلمة فى سجن الأزبكية مع نحو أربعين من المتهمين بالسرقة والضرب والقتل واحتياز المخدرات وغير ذلك . وكانت تهمتى أنى أفكر وأكتب عن الاشتراكية أو الشيوعية . وكانت خشونة الأسفلت تمنعنى من النوم وتؤلمنى فأرقت . وأخذت ذاكرتى تعرض فلْمَ حياتى الماضية ، فذكرت الحرية التى كنت أتمتع بها فى ١٩١٤ حين كنت أكتب مقالات فى « المستقبل » لو أن بعضها نشر هذه الأيام لقاد إلى السجن . وذكرت العناء الذى لقيته فى الدراسة والتأليف ، وعددت نحو عشرين كتابا ألفتها لأبناء وطنى أخلصت فيها النية وبذلت المجهود كى أنير وأعلم ، وكى أسمو بالشباب إلى مثليات القرن العشرين وأخرجهم من ظلمات القرون الماضية . ثم تأملت حالى على الأسفلت الخشن ، وكيف أنى لم أجمع مالا ولم أحصل حتى على الكرامة التى يستحقها من يخدم ويخلص فى الخدمة . وكان إلى جنبى نصف رغيف هو عشائى الذى قررته لى الحكومة المصرية جزاء هذا العمر الذى قضيته فى خدمة مصر . وأخذت أفكر وأجدّ التفكير وعقلى يتضور من الألم ، إلى أن أصبح الصباح ودخل علينا رجل بقفة بها خبز ، فناولنى رغيفاً للفطور وضعته فوق نصف الرغيف الذى تناولته فى المساء السابق . وهكذا يفعل بنا الاستعمار والاستبداد المتحالفان .

سلامه موسى

الحقل والبحر

كان بالأمس زاهياً سندسيّا ... فغدا ساطع السنا عسجديا
هو كالبحر فى اتساع مداه ... وهو كالبحر طيّعاً وعصيّا
فإذا مسه النسيم رفيقاً ... مال كالمنتشى زهته الحميا
وإذا ثارت الرياح ترامى ... مثل هوج الأمواج تهوى هويا
عصفرته شمس الأصيل فأمسى ... يابس الأرض سائلا ذهبيا
يا له خضرماً حوى بدل المر ... جان والدر بُرَّه اللؤلؤيا

وشبيه الخضمّ أذكرنى ملهى خضمّ رتعت فيه صبيا
شاطىء مائج الرمال ويمّ ... يتهادى إليه طلقاً حفيا
كنت أقفو تلك الرمال صعودا ... وهبوطاً ولا أملّ مضيا
وإذا ما لمحت فى الأفق النا ... ئى شراعا يكاد يخفى قصيا
شاقنى سرّ ذلك العابر المج ... هول يطوى عوالم الغيب طيا
وتملّيت متعة الأزرق الرج ... راج أجلو بحسنه مقلتيا
فله روعة على حالتيه ... إن سجا أو طغى ودوّى دويا
يتوالى الزمان يوما فيوما ... فى نواحيه مستطابا هنيا
حيثما الدفء فى الشتاء وفى الصيـ ... ـف يهب النسيم رطباً نديا
تنسخ السحب لونه كلما طا ... فت وتضفى عليه لوناً سنيا
فإذا الأزرق السماوى يخضوْ ... ضر حينا . . . وينثنى فضيا
وإذا باللجين يشهبّ آنا ... ثم يرتد داكناً طحلبيا
خلعت فتنة السماء على البحـ ... ـر جمالاً من ذخرها علويا
أى طرس هذا الذى رسم الله ... عليه فتونه الأزليا
هل إليه من رجعة تبعث الما ... ضى كما كان شائقاً عبقريا

محمد منيمد الشوباشي

جان دوتور و « مركّب قيصر »

[سيختص الأستاذ إيتيامبل أستاذ الأدب الفرنسى بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول قراء هذه المجلة بين حين وحين بفصل نقدى يعرض فيه كتاباً من الكتب الفرنسية المعاصرة .]

عند ما منحت جائزة ستندال لأول مرة سنة ١٩٤٦ قسمت بين رنيه ماسون عن قصته « إلى الشرطة وإلى اللصوص » وبين جان دوتور عن مجموعة مقالاته المعنونة : « مركّب قيصر » . وقد تحدثت عنها باريس كثيراً .

ولا نعرف عن المؤلف إلا القليل ، اللهم إلا أنه حارب وهو ما زال حديث السن فى سنة ١٩٤٠ ، واشترك فى المقاومة السرية ، وقبض عليه الجستابو وحكم عليه بالإعدام . وفى اليوم السابق لتنفيذ الحكم نجح فى الهرب . وها هو ذا كتابه الأول الذى امتدح فيه روجيه كايوا كتابا من أمهات الكتب .

ونحن إذا كنا لا ندرى فى الواقع إلا القليل عن حياة المؤلف ، فإننا على العكس نعرف ما تهمنا معرفته عنه . نعرف مزاجه ، ونعرف ما يعشقه ، نعرف نقائصه وآراءه . فهذا الكاتب الذى يحتقر إبداء العواطف وإظهارها ، وهذا القاضى الصارم الذى لا يرحم كتّاب اليوميات المزدهرة فى عصرنا ، ماذا يعطينا هو غير وثيقة عن نفسه فى كتابه « مركّب قيصر » ؟ وهذه المجموعة من المقالات قسمان : أحدهما أكثر إبرازا لشخصية الكاتب ، وعنوانه « تعريف » . والثانى وعنوانه « منشور » يعرض آراء الكاتب عن المجد ، وعن الكلمات التى لا تقع موقعاً حسنا فى الآذان ، وعن العبقرية ، وعن الحب باعتباره أحد الفنون الجميلة ، وعن الأسلوب ، وعن المساواة فى السمو الخ . . .

فهى فى مجموعها إذن وثيقة عن عقل وقلب رجل يريد أن يكون عظيما ،

ويؤمن أنه كذلك . ولو تمنا : يحسب نفسه كذلك لأخطأنا فى الكشف عن نفسية دوتور . وهذا الرجل المتجرد من كل حياء زائف ، ينبئنا بذلك من أول كلمة فى الكتاب : مركب قيصر . ثم إنه لا يخفى علينا بعدئذ أنه يسخط بل يرثى منذ عهد بعيد لأولئك المساكين الذين كانوا يتشككون فى عبقريته . وسيقول المتواضعون الزائفون : ياله من وقح ، وسيردد حكماء البورجوازيين : « لا يقول الرجل الذكى حقاً عن نفسه إنه كذلك . . . » ولو ردّ دوتور على هذا لقال إن ديدرو لم يكن ليحلل قط العبقرية بتلك الدقة وذلك الاقتناع ، اللذين نعهدهما فيه ، لو لم يكن شاعراً وواثقاً أن له منهما النصيب الوافر . أو لعاد بنا إلى جريكو وقد كان لا يدع أحداً من زبائنه ، الذين يساومونه فيما يطلبه من ثمن ، يجهل عبقريته . ولنتفق على أن دوتور يسخطنا أحياناً بكبريائه الساذجة . أنصت إليه يقول : « مجد رجل مثل جوجان أو يسارو ، ذلك المجد الذى كنت أستطيع بلوغه بسهولة . . . »

أفّ له . . . ! ولربما قال أيضاً : مجد رافايل أو بوسان ! وما أيسر ما يعزّى نفسه لشعوره بأن بعض مزايا ستندال تنقصه ، فإنه عندئذ يفكر فيما يدعوه « المقدرات الأخرى » التى لم يكن لستندال منها نصيب فهو بالتأكيد « ناقص أشد النقص » ، ولكن جان دوتور يمتاز بتوافرها فيه . ثم إنه يصدر أحكامه سريعاً ، ويشير أكثر من اللازم إلى المغفلين الذين يقولون كذا ، وإلى الحمقى الذين يدّعون كذا ، وإلى البسطاء الذين يؤكدون كذا . . .

ورغم ذلك ، وبعد رحلة عجيبة ، يعود دوتور إلى التواضع (وهو حين يمتزج بالكبرياء يأتى بأعظم ما تنتجه العبقرية) . وذلك الذى يريد أن يكتب مثل ديدرو ، وأن يصور مثل بوسان ، وأن يحكم مثل فردريك الثانى ، كيف يستطيع هذا الرجل ألا ينتهى بالظهور بقيمته الحقة ، وبالوصول فى النهاية إلى التواضع ؟ ثم إنه من الخير أن يظهر فى هذا العالم الذى لا يقدر إلا أصحاب المواهب العادية من العامة والتجار ، رجل سبق له أن خاطر بحياته من أجل حريات يجب تسميتها من ناحية ما الحريات الديمقراطية ، فيدعونا إلى احترام العظماء من الرجال . ثم إنه ليسرنا أن نجد فى هذا العالم الذى ألقى بزمامه إلى الأحزاب و « المودات » والإعلانات ، فرداً مستقلا ، لا هو مع اليمين ولا مع اليسار ، ولا هو من الأحرار ولا من الفاشيين ، رجلا متجرداً من كل شىء

حتى من المخاطر التى تعرّض لها والتى نادراً مايذكرها لدرجة أن أراد البعض أن يلوموا فيه رجلا من الهواة ، من نوع مونترلان . وأخيراً يلذ لنا فى هذا العالم الذى يتجه فيه الكتّاب إلى تملق الأميين أن نقرأ كتابا لا ارتجال فيه . يقول دوتور : « إنى أبغض قراءة ما أكتبه أو تصحيحه . » كلا ! إن دوتور هنا يخدعنا ؛ فهو يعلم تماما أنه يصحح ما يكتبه ، وحسناً مايفعل .

وفى هذا الكتاب شىء أكثر من وثيقة عن أولئك الذين يخضعون لمركّب قيصر أو يتعهدونه . ذلك أنه سيبقى كإحدى العلائم الأولى لهذا التحول البطىء الذى يسيِّر ، منذ عشرين عاما ورغم ما يبدو من مظاهر ، كل القوى الحيوية فى فرنسا الأدبية نحو نوع من الكلاسية . فها هو ذا أخيرا أثر جهود أندريه جيد و « المجلة الفرنسية الجديدة » *La Nouvelle Revue Française* وبعد مقالات روجيه كايوا ، وقصص جاك لومارشان ، يأتى كتاب دوتور ببعض القيم التى تعترف بها كل العهود الكلاسية . ويقول دوتور : يجب تمرين الفكر بطريقة عسكرية خشنة . يجب أن نستبعد اللطف والظرف والطراءة . . . وإذن فعلينا أن نعمل طويلا . . . فالعمل الفنى والتصميم على الخلق يجعلان الفكر ثابتا متينا . . . والعمل الذى لا يتلوه نجاح لا قيمة له . ولا أريد أن أقول إن ذلك العمل لم يُفد اللاشعور أو الصنعة الفنية ، وإنما أريد فقط ألا نقيم وزنا لمثل ذلك العمل ؛ لأن النتيجة وحدها هى التى يحسب لها حساب فى الفن ، كما هو الحال فى السياسة وفى جميع المظاهر العقلية السامية . ولكن احترامه للعقل لا يبلغ به حد العبادة للمذهب العقلى حيث لا تجد العواطف الفياضة محلا لها . وهو يقول :« إذا كان موضوع الفلسفة رائعا نبيلا، وإذا كان كبار الفلاسفة من عظماء المؤلفين ، فليس هناك من هم أشد حمقا من مدرسى الفلسفة الذين ليسوا بفلاسفة إلا مدرسى الأدب الذين يعلّمون فنا لا يمارسونه . » وعلينا بالعقل ودائما العقل (وكل ما ليس بمحسوس يجب أن يمر أولاً بالعقل لتكون له قيمة) . ولكنه يريد العقل الذى يبنى على أساس من المادة : « يجب أن نكون واقعيين وألاّ نبعد لحظة واحدة عن الأثر المباشر البسيط لما تؤديه عيوننا وأيدينا وآذاننا وألسنتنا ونوعنا . فستندال يطبق أسلوبه الواقعى على موضوعات واقعية . ولكن علينا أيضا أن نعبر عن المعنوى بكلمات واقعية . »

وطريقة دوتور توضح هذه القواعد السليمة . وإذا كانت مقالاته تذكرنا بمقالات مونتيني أو تعود لها ، فإن لغته الذاتية هى لغة رجل يقدر بنوع خاص ستندال وديدرو وريفارول . وهو يكتب دون استعمال الصفات والظروف ، ويستخدم كلمات ملموسة وتعبيرات عادية بتلك السهولة وذلك الطبع اللذين ينتجهما عمل شاق مضن ، ويبنى لنفسه من ذلك أسلوبا ذاتيا هو أسلوب الجميع ولكنه ليس أسلوب أى شخص . والتشدد لديه لا يمنع قط قفزات الفكر ، ولكنه على العكس يساعدها ويقويها . ولا يعمل العقل إلا بين أشد الأحاسيس وأقواها .

يقولون إن عصفوراً واحداً من عصافير الربيع لا يأتى بالربيع . ونحن لا نجهل أن بعض الفنانين احتفظوا بآرائهم الخاصة ، فى كل زمان وفى كل مكان ، وفى شر أوقات المبالغات والتصنع . ولكن كتب ألبير كامو وروچيه كايوا هى طيور الربيع . وكذلك كتب جاك لومارشان وخاصة كتب جان پولان . ولقد رأينا إلى أى درك تهبط الأمم ، التى تقول باحتقار العقل ، هبوطا كأن لامفر منه . فكيف لا ننتظر أن يُبعث الفن ، وأن تنمو حضارة يجد فيها العقل كل حقوقه ؟ لنا أن نرجو ذلك فى فرنسا ، وأن ننتظر ذلك العهد الكلاسى الجديد فى مستقبل قريب لو تأكدنا أن قوى البربرية المتصاعدة ستدع لنا الوقت . وإن كتبا مثل كتاب جان دوتور ، هى فى نفس الوقت دفاع وتأييد لذلك . ولكن لكى نأتى بالربيع ، كم يلزمنا من طيوره ؟

ايتيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

الفن من أجل الفن

كان من الواجب أن أقرأ هذا الكتاب [1] منذ زمن مديد، ولكنى وضعته جانباً ونسيته، ثم جاء يوم فإذا بى أجده، وكان يوما ملائماً لقراءته؛ فقد كنت فى حاجة إلى كتاب يجمع بين اللذة والتسلية، يستفيد منه العقل وترتاح إليه النفس. فوجدت ضالتى فى هذا الكتاب؛ فهو يتكلم عن حركة من أهم الحركات الأدبية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر، وهو يقص قصتها فى إسهاب وبيان بديع. هذه الحركة هى التى عرفت بالفن من أجل الفن، أى معالجة الأمور الفنية لمجرد الفكرة التى توحيها هذه الأمور.

وهى حركة نشأت فى إنجلترا نتيجة لتأثر بعض الأدباء والفنانين بأدباء القارة، وكان فيها دليل على اتصال الثقافة الإنجليزية والأمريكية بثقافة القارة الأوربية.

فلقد تركت حروب نابليون حالة فى أوربا أشبه بما نشاهده الآن «قارة مريضة ترتعد فى أسمال ملابسها القديمة الزاهية بين بقايا معاهد مدمرة تنظر بعين مظلمة إلى مستقبلها.»

سادت فى مبدأ الأمر روح التشاؤم فى أوربا، ولا سيما فرنسا التى قاست وطأة هذه الحروب، ونتج من هذا اليأس روح مقابل هو روح التحدى، واندفع الأدباء والمفكرون نحو العبث بالقيم المعروفة فى الأخلاق؛ ولذلك نجد حوالى سنة ١٨٣٥ قصة كقصة «مدموازيل دى موپان» يكتبها شاب صغير هو تيوفيل جوتييه. وهكذا صار ما عرف بالحياة البوهيمية علماً على الأدب فى ذلك العصر، وظهرت عدة كتب وعدة صور، وتأثر الشعراء ورجال الفن بهذا الروح.

وجاءت الإمبراطورية الثانية، فإذا فرنسا تعود سيدة على الثقافة فى العالم،

(١) *The Aesthetic Adventure*, by William Gaunt (Jonathan Cape, London).

وتصير باريس عاصمة أوربا فى الأدب والفن يقصدها الزائرون من كل ناحية حيث يستطيع الأديب أو الفنان أن يحيا من أجل الفن وحده .

وكانت بريطانيا بالرغم مما اكتسبته من قوة وثروة ، لاتزال فى عقليتها أشبه بالكاهن المنقطع فى صومعته، ترى المستقبل فى الصناعة الميكانيكية . فلقد بلغت الصناعة فيها مبلغاً عظيما ، حتى صارت وليس لها مثيل بين دول العالم فى ذلك الاتجاه ؛ فلم تكن مثل فرنسا مشغولة بالهزيمة والتدهور بل كانت مشغولة بمشاكل النجاح ومتاعبه .

وكان من نتيجة ذلك أن نظرت بريطانيا إلى القارة نظرة الرجل المتعالى ؛ فقد أدت واقعتا الطرف الأغر ووترلو إلى الاعتقاد بأن الإنجليزى بمقام ستة من أبناء أى بلد أوربى آخر ، وأن الفرنسى رجل قزم مهذار تأخر فى سباق الحياة . وكان الإنجليز فى ذلك العهد لا يحترمون إلا الألمان ، ووجد بينهم كتاب مثل توماس كارليل يمجدون ما فى الجنس الألمانى من مزايا الشجاعة والدأب على العمل . لذلك كانت حركة الفن من أجل الفن ، وهى التى استقت معينها من فرنسا ، حركة غريبة غير مستحبة لدى الإنجليزى فى عهد فيكتوريا ، واعتبرت حركة خطرة يجب محاربتها والقضاء عليها ؛ لأنها مستقاة من بلاد الهزيمة والتدهور .

لنأخذ إذن فى ذكر دعاة هذه الحركة ، ولنبدأ بمصور أمريكى كان يعيش فى باريس فى سنة ١٨٥٦ ، هو جيمس أبوت ماكيل هويسلر ، جمع حوله نخبة من أبناء الجزيرة عشقوا الفن وعرفوا أن موطنه باريس وعاشوا عيشة بوهيمية مطلقة من كل قيد ، وما أكثر القيود فى ذلك الوقت ! واتصلوا بالأدباء والمصورين من الفرنسيين .

ظل هذا المصور ردحاً من الزمن يتثقف فى فرنسا ، ثم انتقل إلى إنجلترا ليعمل ويكسب أموالا ؛ فالانجليز أغنياء وأسخياء ، وإن كانوا بعيدين عن الذوق الفنى . وقد جاء معه بصاحبين من الفرنسيين لأنهما يعيشان عليه ، وهو يعتمد على أقرباء له فى العاصمة الانجليزية ، أهمهم فى نظره زوج أخته الذى كان طبيباً موسراً ، وفى الوقت نفسه محباً للتصوير .

وقد عرف الصاحبان فى داره كيف تكون لذة الحياة ، وعلى قول أحدهما لذة احتساء زجاجة من الكونياك دون أن يدفع لها ثمناً . ولكن الطبيب على

بحبه للفن الجميل كان رجلا وقوراً لا يحب الفن المقترن بمسلك البوهيميين ؛ فلم تلبث علاقة المصور بزوج أخته أن تحولت إلى فتور ثم إلى عداء مقيم .

وكان من رجال هذه الحركة الشاعر الإنجليزى ألجرنون تشارلس سوينبرن وكان فى ذلك الوقت فتى عجيب المنظر ذو شعر أحمر طويل وعينين خضراوين ووجه ممتقع ، وكان فى مثـل سن المصور هويسلر ، عاش فى باريس وعرفه المصور ، وكان يجل الفرنسيين حتى ادعى أنه من سلالتهم ، ويحب ڤيكتور هوجو ، ويحب شعر بودلير ، وكتب إلى هذا الأخير رسالة طويلة تدل على الحماسة والإجلال بعد أن قرأ ديوانه « زهور الشرّ » ، فرد عليه الشـاعر الفرنسى بعد سكوت طويل برسالة ذكر فيها أنه لم يكن يتوقع قط أن يرى أديباً إنجليزيًّا يستطيع أن يخترق سر الجمـال الفرنسى ، وأغراض الشعر الفرنسى . وقد اعتنق سوينبرن فكرة الفن للفن ، فكان يقول : « إذا استخلص القارئ من أية قصيدة دواء روحيًّا وإذا ابتلع القصيدة كأنها وصفة أخلاقية ، فإن الشاعر الذى يقدم هذه الأدوية العقلية لا يمكن أن يكون فنانا . »

وكان الفضل لسوينبرن فى أن عرف هويسلر الشاعر المصور دانتى جبرييل روزيتى فى داره بلنـدن . كان روزيتى فى ذلك الوقت حزيناً لوفاة زوجته ، وهو ضخم الجثة فى الثلاثين من عمره ، يمضى أوقات عمله بين قرض الشعر والتصوير ولا سيما صور النساء الجميلات كما يتخيلهن ، ويمضى أوقات فراغه فى جمع غرائب من الحيوان والمصنوعات والناس . وله جاذبية خاصة فتجده محاطاً دائماً بجمع من الأصدقاء والمعجبين والمتطفلين ، وظل هويسلر على علاقة حسنة به مدة عشر سنوات ، وكان يراه كل يوم تقريباً .

ومن هؤلاء الجماعة أو من ضحاياها شـخص عجيب هو مصور يهودى اسمه سيميون سلمون ، كان مثالا لأولئك الشبان الذين تأثروا بشعر بودلير إلى درجة أن أبوا على أنفسهم السعادة التى قد يحصلون عليها فى حياتهم ، وانحدروا فى تيار الشقاء عن رغبة فى تقليد الشاعر فى شـقائه . وكان سلمون فى بعض اتجاهاته شبيهاً بالشاعر پول ڤيرلين إلا أنه لم يكن شبيهاً به فى عبقريته . وقد تعرف إلى سوينبرن فوجد فيه جمالا أشبه بالجمال الذى يتخيله الإغريقيون مختلطاً برواء شرقى . ورأى فى حديثه نزعة تجمع بين أسرار المسيحية وعقليـة الوثنية ، كما وجد الشاعر فى هذا المصور اليهودى الصغير ، مثالا من شـباب الإغريق فى

عصرهم الذهبى ، لا سيما إذ رآه مرة يقف أمام زميل مصور فى ثوب إغريقى قديم ، فكأنه أبلّون نفسه نزل إلى هذه الأرض ، ليطلع أهلها على سر الجمال . ولقد صارا رفيقين لا يفترقان ، وكانا يقضيان أوقاتهما فى دار روزيتى . ورآهما صاحب الدار ذات مرة وقد خلعا ملابسهما وأخذا يجريان عاريين فى حديقته ، كما كانا يتخيلان فعل آلهة الإغريق فى غابات الأولمب .

هناك رجل آخر اتصل بسلمون المصور اليهودى الصغير ، ذلك هو والتر هوارشيو باتر ؛ فقد اعجب بصورة رسمها هذا المصور لإله الخمر ، رسمها بعد أن صاحب أوسكار براوننج إلى إيطاليا . ورأى باتر فى هذه الصورة فنا عظيما ، وفى وجه إله الخمر جمالا مقرونا بالخبث مما يتناسب مع الموضوع كل التناسب . وقد نشأت بين الأديب والمصور صداقة متينة ، فصار هذا الشاب المصور فى نظر ولتر باتر ممثلا للفن من أجل الفن ، وهى عقيدته التى يدين بها .

وكان باتر رجلا غريب الأطوار ، مات أبوه الطبيب وهو لا يزال طفلا ، وتركه لعناية أمه وجدته وخالته . وكان باتر طفلا خجولا لا يحب الألعاب العنيفة ، فلم يكن معروفا بين زملائه فى المدرسة ، وأخذ منذ صباه يأوى إلى العزلة فيجد لذة فى زيارة الكنائس القديمة والتأمل فى أبنيتها ، واشتدت نزعته الدينية وعكف على طقوس الدين ، حتى خشى بعض أقربائه أن يتحول إلى الكاثوليكية ، ولكنه عندما التحق بجامعة أكسفورد فقد كل إيمان بالدين ، وأخذ يسخر من أصدقائه الذين يقومون بواجباتهم الدينية . وكانت المذاهب الدينية فى أكسفورد فى ذلك الوقت تشغل أذهان الطلاب والأساتذة ، ولكن هذا الشاب الذى كان منذ قليل شديد التدين صار شديد الحملة على هذه النزعة ، ولم يعد أصدقاؤه يعرفون إلى أى مذهب ينتمى . ولعل الحقيقة أنه صار ممن يستقون عقيدتهم من هرقليوس وأفلاطون وپيتاغورس والألمانيين هيجل وشلنج .

أقبل باتر على قراءة الآداب الأوربية ، وأخذ فى ترجمة بعض الكتب الخالدة من آثار أفلاطون وأرسطو ، وحرق سائر ما نظمه من شعره فى طفولته الأولى لما فيه من عاطفة مسيحية ، وأخذ يدرس كتب فلوبير وبودلير ، وصار رأيه فى الفن متأثرا بالقدماء من الإغريق ، وبالمحدثين من الألمان والفرنسيين .

وازداد باتر رغبة فى الابتعاد عن الناس وفى حب العزلة . وكان يحب الجمال المثالى ، فيكره مخالطة ذوى الصورة السخيفة القبيحة ، وكان لا يألف من الأصدقاء إلا من لهم مسحة من جمال ، ولكنه لم يكن متحمسا فى صداقته ، كان يبتعد عن الألفة والمخالطة ، ويكره كل الإحساسات العنيفة . وقد حاول فى وقت ما أن يكون قساً بالرغم من ابتعاده عن الدين ، فحاول صديقان أن يثنياه عن عزمه وأصر هو عنادا منه ، فكتبا إلى الأسقف يخبرانه بعقيدته الحقيقية ، فعدل الأسقف عن رسامته .

ومع ذلك كان باتر على إلحاده يعيش عيشة الراهب ، عيشة بسيطة لا يتمتع فيها بلذائذ الحياة إلا قليلا ، وكان كل ما يهتم له هو ذلك الجمال المثالى فى كل شئ ؛ فكان فى كتاباته يعمل على صقل العبارة حتى تصل الغاية ، ولا يهمه مطلقا أن يكتب شيئاً يكون ذا مقصد أخلاقى أو أدبى ، بل كل غرضه ان يبلغ إلى تصوير الجمال لذاته ، كما نرى فى دراساته عن الفن والشعر فى عهد النهضة . وصارت الحياة فى نظره إن هى إلا نظام لفن الجمال . وقد قيل إن طالبا سأله ذات يوم لماذا يجب علينا أن نعمل الخير يا مستر باتر ؟ فأجاب : لأن الخير جميل .

ما مضت ثمانون سنة من القرن التاسع عشر حتى أخذت مجهودات هويسلر وسوينبرن وباتر فى تفسيرهم للفن من أجل الفن تؤثر بعض الشئ فى الجمهور الإنجليزى ، وأخذت الصحافة الهزلية تسخر منهم وتتناولهم بالنكات اللاذعة ، وهم ماضون فى آرائهم لا يهتمون إلا بالأصدقاء من الأدباء الناهضين الذين كانوا على اتصال بهم فى فرنسا .

كان تأثيرهم عميقا ولكن فى عدد قليل من رجال الفكر بين الإنجليز ، أما السواد الأعظم من الجمهور الإنجليزى فكانوا واقعين تحت تاثير نبي ذى صوت مسموع وشهرة كبيرة هو جون راسكن الذى ينادى بمبادئ تخالف مبادئ هؤلاء كل المخالفة ؛ فهو يلقى محاضراته ويكتب كتاباته عن الفن فى كل مكان من إنجلترا فتسمع له الجماهير . وكان فى كلامه وفى قلمه حماسة نارية وبريق يخلب الألباب ، ولكن السر الأساسى فى شهرته هو نزعته الإنسانية . فالفن لديه ليس مجرد سحر غريب وسر من الأسرار ، بل هو مسألة معاصرة ومشكلة قائمة يجب علاجها ، وله غرض خلقى لا بد من تحقيقه . وقد اتخذ راسكن مركز النبي وظل غارقا فى فضائل مصورى القرون الوسطى والمتقدمين من أساتذة

الفن الإيطالى ، حتى إنه لم يفطن لما قد طرأ من تغيير على الفن ، وكان يعتقد أنه لن يحدث تغيير بغير موافقته وبركته .

ففى ذات يوم من سنة ١٨٧٧ ذهب لزيارة معرض جروفنر وهو الذى جمعه سير كوتس ليندسى ، وهنالك شاهد صورة فظيعة فى رأيه هى إحدى صور هويسلر التى سماها الليالى ، فلم يتمالك أن أمسك بقلمه وكتب فى المجلة التى كان ينشر فيها نقداً لاذعا قال فيه : إن غرور الفنان الذى يدل على سوء تربيته يكاد يبلغ مبلغ الغش المقصود .

وهكذا رمى راسكن بقفازه ، ولكن خصمه لم يتردد فى تناول هذا القفاز .

لقد أخرج هويسلر فى تلك الأيام خير صوره ، فقد وضع تلك المناظر الطبيعية لنهر التاميز فى غسق الليل ، وهى التى أطلق عليها اسم الليالى على سبيل الذكرى لقطع شوبان الموسيقية المسماة بهذا الاسم ، وصور الصورتين الشهيرتين لوالدته ولتوماس كارليل ، ولكن هذه الشهرة لم تكن إلا لتزيد علاقاته بمعاصريه من المصورين الإنجليز سوءا ، وجاء نقد راسكن اللاذع فطفحت الكأس ، ولم ير إلا أن يرفع أمره إلى القضاء . على أن عواطف الجمهور كانت مع جون راسكن ذلك الذى ينادى بأن الفن للجميع وللعمال قبل أن يكون للسادة ، وللشارع قبل أن يكون للقصر على حين كان هويسلر يقف موقفه الذى يرى فيه أن يكون الفن من أجل الفن الخالص دون أن يقصد به غرض نافع .

وبدأت القضية ، وكان على هويسلر أن يقدم الإثبات بشهود مختصين ، فمن يشهد له ؟ أهو هولمان هانت الذى يرى أن الصور التى عرضها إنما تدل على تكاسل فى العمل بحيث يجب ألا تؤخذ جديا ؟ أهو ميلر الذى ينظر إليه نظرة الأستاذ ويرى أنه لم يقع تحت يد الممتحنين ؟ أهو أدوارد بوينتر الذى كان يعارضه ولا يرى فيه خيرا ؟

لقد وجد هويسلر مشقة فى الحصول على شهود ، فالرسام كين مصور جريدة « پنش » اعتذر إليه . والمصور فريدريك ليتون وافق ، ولكنه عاد فاعتذر فى يوم القضية إذ كان عليه أن يشهد حفل الإنعام الملكى وتلقى وسام الفروسية فى ذلك اليوم . ودانتى جبرييل روزيتى مريض لا يقوى على الخروج . ولم يجد هويسلر فى آخر الأمر غير مصورين قليلى الشهرة ، أحدهما البرت مور ، والآخر جورمان ويلز ، وكان له صديق مصور

ذو شهرة هو بيرن جونس ولكنه للأسف جاء فى صف خصمه .
وابتدأ نظر القضية . ولأمر ما غصت المحكمة بالناس وتجمهروا حتى فى الطرقات ، وكان حادثاً فريداً فى تاريخ القضاء . وأخذ القضاة يتناولون فى وقار تلك القضية التى هى أعقد من قضية طلاق أو قتل . وكان محامى هويسلر يتكلم فى لهجة عجيبة كأنه يعتذر عن موقفه للخصم . ثم دُعى هويسلر لأخذ أقواله ، وكان بادى الثقة بنفسه يتكلم بلهجة أمريكية ظاهرة ، ويبدى فى كلامه حيوية وسخرية كبيرة . فبدأ بقوله : إنه ولد فى بطرسبرج ، ولم يكن الأمر كذلك ، ثم درس الفن فى باريس ، وأن تلك الصورة التى نقدها راسكن قد عجز عن بيعها بسبب هذا النقد . ووقف نائب الأحكام ليسائله : ما معنى ليلية ؟ فأجاب بأنها إحدى الصور التى تمثل مناظر الليل . وحينئذ أمر القاضى بإحضار الصورة فأدخلت ، ولكن الذين حملوها أتوا بها مقلوبة ، فضحك الجمهور . وسأله نائب الأحكام بعض أسئلة سخيفة ، ثم سأله عن الثمن الذى يبيع به صوره عادة ، فأجاب بأنه مائتان من الجنيهات . فسأله فى كم من وقت ألقيتها ؟ يقصد كم استغرق بيعها . فأجاب ساخراً ألقيتها فى يومين ، يقصد أنه انتهى من تصويرها فى يومين . وحينئذ سأله : أتطلب مائتى جنيه بمجهود يومين ! فقال : إنه تجربة عمر . وهكذا ظهرت المحكمة متحيزة لغير هويسلر . وإن كان القاضى فى تلخيصه القضية للمحلفين قد أبدى أن راسكن تجاوز حدود النقد المباح ، وصرح بما يمكن أن يعتبر قذفا . واختلى المختلفون ساعة من الزمن ، ثم حكموا بأن هويسلر له عذره ، ولكنه شغل المحاكم بموضوع تافه ، ولذلك لا يستحق من التعويض إلا مليما .

هكذا كانت هذه القضية الأولى فاتحة لقضايا أخرى من نوعها . والواقع أن هذه القضية قد أثرت فى راسكن بقدر ما أثرت فى هويسلر ؛ فقد ذهب من راسكن سلطانه وسيطرته على النقد الفنى ، فترك منصبه أستاذاً للفن فى جامعة أكسفورد ، وقصد إلى ضيعته فى برنتوود حيث قضى السنوات الباقية من حياته فى هدوء وسكينة .

ولقد انتصر عليه الأمريكى ، ولكن خسارته المالية كانت فادحة ، فنفقات القضية كانت ثقيلة الوطأة عليه ، وهكذا أخذ فى وسط هذا الجمهور الإنجليزى الذى لا يعطف عليه يضع كتابه « الفن الجميل فى تأليب الخصوم » .

ولكن هل تأليب الخصوم فن ، أم هو طبيعة فى بعض الأشخاص لا يستطيعون معها إلا أن يوجدوا خصوماً ؟ لقد كان فى هذه الفترة يعيش شاب آخر مستهتر عرف كيف يؤلب خصومة الجمهور الإنجليزى عليه ؛ ذلك هو الأديب والشاعر أوسكار وايلد الإيرلندى الأصل ، وهو ابن السير وليم وايلد الطبيب ، والليدى وايلد التى كانت تقرض الشعر .

درس هذا الشاب الإيرلنـدى فى أكسفورد حيث أستمع لمحاضرات راسكن وعرف ولتر پاتر ، وقابل سميون سلمون فتأثر بآرائه عن الفن من أجل الفن وحده . وكان الشاب لا يعرف كثيراً عن الفن ، لذلك تأثر تأثراً قويـًّا بنظرية پاتر الذى يرى أن الفن سر من الأسرار ، وأنه الشىء الوحيد الذى له قيمة فى الحياة . فأخذ الشاب يقلد أستاذه ، فيعمل على أن يحيط نفسه بالأسرار وعلى أن يبدو كثير التأمل شارد الفـكر ، وكان يحرق البخور فى غرفته لا حبـًّا فى الـكنيسة ، بل تقليداً لپاتر الذى يرى فى الدخان المتصاعد أثراً لدين قديم . ولم يكن وايلد ممن يقبلون على الألعاب الرياضية ؛ لذلك صار موضع سخرية من زملائه .

ومع ذلك كان وايلد ينظم الشعر ويكسب فيه الجوائز ، ومات والده فكان عليه أن يجد طريقاً لـكسب قوته ، فقصد لندن ليتعرف إلى الـكبراء . فكان من أوائل من عرفهم هويسلر فى تلك السنة التى نُظرت فيهـا قضيته ، وكان يغشى مجالسه ، فتعرف إلى كثير من المشهورين الذين كانوا ينجذبون إليه لطلاقة لسانه وعذوبة حديثه وغرابة زيه وتأنقه مع رشاقة قوامه . وفى تلك الأيام كتب رواية هزلية بالشعر ، لُحنت ومثِّلت ، وفيها حاول أن يسخر من معايب بعض كبراء عصره فاشتهرت هذه الرواية وأقبل عليها الجمهور . فدعى إلى زيارة أمريكا لإلقاء محاضرات فى عدد كبير من مدنها ، وقد ذهب إليها فى زيه العجيب المتأنق . وسأله رجال الجمارك : ألديه شىء يريد إعلانه ؟ فأجاب أعلن عبقريتى . فمنذ تلك اللحظة كان يقابل بعاصفة من الهتاف والتقدير حتى من أقل الجماهير تحضراً وقبولا لسماع حديثـه . وكان فى مواقف حرجة لا يعوزه الـكلام ولا يخونه ذكاؤه . ، وقد أُعجب الناس برجولته فى أكثر من موقف بالرغم مما كان يعرف به بين أقرانه فى لندن من التخنث . وعاد من أمريكا ملء الجيب ذائع الشهرة .

لم يكن هذا ليروق صديقه الأمريكي الذي إتخذ لندن مقاما ؛ فقدظهرت على هويسلر بوادر الغيرة وأخذ ينتقد الآراء التي أذاعها وايلد في محاضراته . فكيف يجسر الشاب على النصح بأن على الناس أن يغيروا من طريقة زينة دورهم . ففي رأى المصور أن ذلك أمر لايهم مطلقا ولا يتفق مع القول بأن الفنان يجب أن يعمل للفن وحده وصار في مجالسه الخاصة يسخر من آراء الشاب وصار هويسلر في محاضراته يهزأ بنقاد الفن الذين لايعرفون شيئاً . وكان أوسكار وايلد يحضر هذه المحاضرات . ففي ذات مرة رفع الصوت معلنا أنه يختلف كل الاختلاف مع مستر هويسلر ؛ فليس الفنان رجلا منفرداً بنفسه ، وقال إن إدجار ألن بو وبودلير هما من سادة الحياة لا بنيامين رست وبول رى لاروش . فلما أراد هويسلر أن يسخر منه لاختياره هـذين الاسمين غير المعروفين للفن أجاب وايلد في هدوء إنني وجدتهما في إحدى الموسوعات ، وقد ذكر أنهما كانا يحاضران في الفن ولم يخلفا شيئاً من صورهما ، لذلك أنصحك أن تكون حذراً ياجيمس . وكانت هذه السخرية مما أدت بهويسلر إلى حب الانتقام ، فكتب ذات مرة يسائل أى علاقة لأوسكار بالفن إلا أنه يتعشى على موائدنا ويلتقط من فتاتنا بعض الفواكه التي يبيعها في الريف .

وهكذا أخذ هويسلر يبتعد عن أصدقائه ويجـد نفسه وحيداً . وكانت خصوماته تزداد بتقدمه في السن وتتخذ أوضاعاً تافهة . ولقد صدق ديجا المصور الفرنسي حين قال عنه إنه لمن المتعب حقـًا أن يتخـذ الإنسان دور الفراشة بدل أن يكون ثوراً هرماً مثلي .

وهكذا أخذ المصور الأمريكي يشعر بالمرارة نحو جمهوره الإنجليزي . وكان هنالك شخص آخر أخذ يشاطره هذا الشعور هو جورج مور الايرلندى الأصل الذي نشر في سنة ١٨٨٧ كتابه « اعترافات شاب » . فقد جاء مور إلى لندن بعـد أن عاش دهراً في باريس وتعرف إلى رجال الفن وارتاد مشارب القهوة ، وتركت هذه السنوات فيه أثراً لا تمحوه الأيام . فلما أن جاء إلى لندن شعر بفراغ عظيم ، ولم يجد في رفقائه في مشارب الخمر مايعوضه عن عشرة مانيه ، وديجا ، ورينوار ، وفيلييه دى ليل آدم ، وكاتول مندس ، على أنه لم يلبث في لندن أن تحول من التصوير إلى الأدب ، حيث أخرج تلك الاعترافات التي تأثر فيها بكتابات ويسمانس الفرنسي وبكتابات ولتر پاتر الانجليزي .

وفى هذه الأثناء كان أوسكار وايلد قد زار باريس لأول مرة وقد ملأ جيبه بالدنانير الأمريكية ، فلقى جمعاً من الشعراء والأدباء أمثال جونكور ، ودوديه ، وملارميه ، وأعجب بفن سارا برنارد . وقد استكشف فى هذه الزيارة أن الآراء التى اعتنقها هويسلر وبشر بها لم تكن بالجديدة ، وقد أثرت فيه باريس بقدر ما أثرت فى جورج مور ، فأخذت رواية فلوبير عن هيروودياس توحى إليه فكرة سالوميه ، ورواية ويسمانس إلى العودة توحى إليه فكرة صورة دوريان جراى . وعاد إلى لندن بعد أن تغيرت طباعه ، فعدل عن تلك الملابس الفنية التى كان يرتديها ليدل بها على نفس نزعته إلى ملابس عادية بادية التأنق ذات ذوق باريسى ، وأخذ يعيش عيشة اللهو واللذة .

سئل وايلد ذات مرة عن مرمى حياته فقال : إنى لا أبحث عن السعادة ، بل أنا أبحث عن اللذة وهى أشد ألماً .

وكانت اللذة حينئذ مؤلمة حقا . ولعل رجلا آخر فرنسيًّا كان يعيش وقتئذ فى لندن يبحث أيضاً مثل هذا البحث هو الشاعر پول ڤيرلين الذى بدأ سحره ينتشر على جانبى مضيق المانش ، والذى كان اسمه يذكر دائماً مقروناً بالشاعر الشابَ رامبو .

أجل ! البحث عن اللذة هو الذى قاد أوسكار وايلد إلى تلك المأساة التى قضت على حياته وهو لما يتجاوز ربيع الشباب ، فإن اللذة إذا كانت حقًّا للأديب فإنها لابد أن تزيد من خصومات الناس حوله ، ولابد أن تمد منافسيه فى عالم الأدب بما يستطيعون أن يتخذوه موضوعا للحديث عنه واللغط حوله . ولقد اجتمعت حول وايلد جماعة من الشبان المعجبين به حتى انتاب أصدقاءه الخوف عليه . فرجال مثل فرانك هاريس وكلايد فنش لم يكونوا أنبياء ولكنهم مع ذلك بدأوا يرتعدون للغط الذى أثاره وايلد . وحاولوا أن يحذروه فلم يرتدع ، ولقد انتهز بعض الناشئين من الأدباء فرصة للهجوم على هذا الأديب الذى هو أكبر منهم سنًّا وأكثر شهرة . فعلى سبيل المثال وضع الكاتب روبرت هيتشنز الذى عرف بعض أصدقاء وايلد فى مصر قصة اسمها « الباقة الخضراء » ، شهر فيها بوايلد وجماعته . وكان أشد خصومه مركيز كوينزبرى المعروف وقتئذ فى حلقات الملاكمة .

فقد كان المركيز لا يقر الصداقة الأدبية التى نشأت بين وايلد وبين ابنه لورد

الفريد دوجلاس ، وبدأ الأب يعمل فى عنف على فصم هذه العلاقة . وفى ذات يوم زار وايلد فى بيته وأخذ معه رجلا ليكون شاهداً ، وأخذ يكيل لوايلد اللعنات والتهديد ، فما كان من وايلد إلا أن دق الجرس فجاء خادمه فقال له أمام الزائر الغاضب : أترى هذا الرجل ! إنه مركيز كوينزبرى أقبح وحش فى لندن ، فعليك أن لا تسمح بدخوله إلى هذه الدار مرة أخرى .

على أن كوينزبرى لم يكتف بذلك ، بل ذهب فى الليلة الأولى لتمثيل إحدى روايات وايلد ومعه مقدار من البقول والخضراوات ليقذف بها المؤلف . وأخيراً أرسل إليه رسالة فيها قذف قبيح . فرأى وايلد أنه لا يحسن السكوت على ذلك ، والتجأ كما التجأ هويسلر من قبل إلى القضاء لينصفه غير حاسب حسابا لتأثر القانون بالمجتمع .

استمر الفصل الأول من هذه القضية بل هذه المأساة ثلاثة أيام ، وقد دافع عن المركيز محام اسمه كارسن كان يعرف وايلد من أيام اكسفورد ، وكان الدفاع يرمى إلى إثبات أن كتابات وايلد ذات نزعة معيبة منافية للآداب ، فأخذ يلقى على وايلد أسئلة عن بعض قصصه على أن المحامى لم يكن قوياً فى هذا الباب ، ولكن قوته ظهرت فى اليوم الثانى من نظر القضية حين اتجه المحامى إلى الكشف عن حياة وايلد الشخصية . وكانت إجابات وايلد الذى يبحث عن البريق الأدبى مما يزيد التهمة التى يريد أن يثبتها المحامى فى هذا الوسط القضائى الذى لا يفهم إلا أن الكلمات تعبر عما قصد بها لا أكثر ولا أقل .

سأله المحامى هل أظهر الحب لخادم فى اكسفورد ؟ فأجاب وايلد على سبيل الاستخفاف : كلا ! فقد كان الخادم عاديًا بل قبيح الصورة . فسأله المحامى : وما دخل قبح الصورة فى الموضوع ؟ فأجاب وايلد : لا أقصد شيئاً وإنما تأثرت لسؤالك العجيب .

ولقد ظهر فى هذه الأيام الثلاثة أن وايلد خسر القضية ، والقضاء الانجليزى حينئذ يفتح الباب واسعاً أمام المركيز لكى يقتص من التهمة التى اتهم بها . ولم يبطئ المركيز فى تقديم أوراقه عن طريق محاميه إلى المحكمة ، وصدر الأمر بالقبض على وايلد ، وابتدأ الفصل الثانى من هذه المأساة ، وكانت الصحافة فى ذلك الوقت أشد شماتة وثلباً للناس منها الآن ، وكان الناس أكثر رياء ، فتعالت الصيحات من كل جانب بما عبرت عنه إحدى الصحف حين قالت فى اليوم الذى

قبض فيه على أوسكار وايلد : إن خير مايفعله الناس هو أن ينسوا أوسكار وايلد بتصنعاته الدائمة ، وتعاليمـه العجيبة ، ومنتجاته المسرحية . فإذا لم يحا كم فلندعه فى عالم السكون ولا نسمع عنه فيما بعد .

وكان من المستطاع لو أراد وايلد أن يذهب إلى عالم السكون بأن يسافر فى الباخرة إلى الجانب الآخر من المانش ويتفادى القبض عليه ، ولـكنه لم يفعل ، وكأنه كان ينتظر هذا الاعتقال فى شىء من الراحة ، وكأنه كان يرى فى نفسـه شهيداً من شهداء المذهب الذى ينادى به .

وبدأت المحاكمة ، وقد أطلق سراح وايلد بضمان شخصى فى فترتهـا ، ولـكنه وجد أبواب الأصدقاء مغلقة دونه والفنادق لا تقبله ، وتقابله جماعة من المأجورين بالسخرية ، ولم يستطع أن يجد مأوى إلا فى غرفة أخيه . وقد نصحه بعض الأصدقاء بالفرار إلى فرنسا حيث ينساه الجمهور ويلقى على الحادث ستار ، فلم ينتصح وكأنما القدر يجره إلى مقدور لا مرد منه .

واستغرقت هذه القضية شهرين ، وكان بعض الخلصاء ، ولا سيما فرانك هاريس الكاتب الأمريكى ، يلحون عليه فى الفرار ، وقد أحضر له هاريس قارباً خاصـًا وقف ينتظره فى ميناء إريث ، ولـكنه لم يفعل بل ظل يتردد على المحكمة حيث صدر الحـكم عليه وخرج منها إلى السجن .

ولم يأل الجمهور الإنجليزى جهداً فى إظهار سروره بهذا الحـكم ، فكان العامة يصيحون ليسقط الأرستقراط يتخذونه مثالا لقبائح تلك الطبقة الممتازة مع أنه لم يكن منهم ؛ إذ لا يمتلك غير ما يربحه من كتبه ، وقد حجزها الناشرون عن الجمهور بمجرد الحـكم عليه ، كما سحبت مسرحياته من المسارح . وهكذا كان عقاب الذى أتى بجديد لم يألفه الجمهور شاملا ، واضطر إلى أن يحتمل فضلا عن السجن حكم الإفلاس وبيع أثاث بيتـه ومجموعاته والتحف االتى كان يحبها بثمن زهيد وهكذا نزل ضيفاً على سجن ريدنج حيث كتب تلك القصيدة الشهيرة ، ووضع تلك الاعترافات .

أشرف القرن التاسع عشر على الزوال وقد منيت فكرة الفن من أجل الفن بما يشبه الهزيمة بعد أن تعرض أقطابها لسخط الجمهور الذى حاولوا أن يخرجوه من كهفه الفكرى . ومع ذلك ظل لهذه الفكرة تلاميذ لا يذهبون مذهب الأقطاب فى مغالاتهم وإن كانوا يعملون لهذه الفكرة . وكان المصور

الشاب أوبسبرى بيردسلى لا يزال حياً ، ذلك الذى كان يرسم صوره فيتخذ لباس القرن الثامن عشر فى جميع الصور حتى ما كان منها قديماً ، وقد اقترن اسمه بما رسمه من صور لرواية « سلوميه » المشهورة لأوسكار وايلد ، ومع أن الشاب المصور لم يكن على وفاق كبير مع أستاذه ؛ فقد كان وايلد يعتقد أنه خلق بيردسلى إذ أتاح له تزيين كتابه بالصور فى حين كان بيردسلى يعتقد أنه خلق وايلد إذ صور كتابه . وكان وايلد كثيراً ما يتهكم على بيردسلى ، وقال ذات مرة : «إن بيردسلى العزيز يعرف فرنسا حق المعرفة ؛ فقد سافر ذات مرة إلى دييب» . ولا شك فى أن المصور تألم من هذا القول، فهو فى قرارة نفسه ، كان يعتقد أن معرفته للأدب الفرنسى لا تقل عن معرفة وايلد به . ولم يكن بيردسلى ممن يعطفون على وايلد فى ضعفه الجنسى ، وهو بالرغم مما فى صوره من ميول شاذة كان يكره أن تتخذ هذه الصور دليلا على شذوذ فيه .

وكان من شبان هذه الحركة فى ذلك الوقت شاب من أهل ويلز اسمه آرثر سيموندز ، تلقى فلسفة الجمال من باتر ، وقضى أوقات طويلة فى فرنسا ، فصارت النظرة الفرنسية إلى الجمهور عادة له ، وكان يحترم ڤيرلين وملارميه ، وهو زعيم الجماعة التى ظلت تلح على ڤيرلين حتى رضى بالخروج من المستشفى ليلقى محاضرات فى أكسفورد ولندن حيث نزل الشاعر الفرنسى العبقرى ضيفاً عليه ، وكان يشرب كميات كبيرة من شراب «الجن» ثم يصب على حلقة المعجبين حوله سيلا من الذكريات .

وقبل نهاية القرن بسنتين فتحت أبواب سجن ريدنج ليخرج منها وايلد إلى عالم لا يجد فيه صديقاً . ولم يكن من السهل على وايلد أن يعود إلى مجال الحياة كما فعل ڤيرلين ؛ فلقد استطاع ڤيرلين ألا يهتم بالمجتمع الذى كان فيه وأن يؤلف لنفسه تلاميذ ومريدين بالرغم من كل شىء ، وصارت رذائله أساساً لوجهة فلسفية جعلت منه شخصية يمكن مقارنتها بسقراط . ولكن وايلد لم يكن يستطيع شيئاً من ذلك ، فهو رجل مجتمع لا يستطيع أن يعيش بدون وسائل الترف والنجاح ، وهذا مما زاد فى تعاسته . والواقع أن وايلد لم يكن واسع الأفق ، وفى كتاباته بريق لا يتفق مع وقار مركزه الذى وجد نفسه فيه . وقد سأله كاتب فرنسى من المهتمين به هو أندريه جيد : « لماذا لا تضع مسرحية جديدة ؟ » فأجاب فى حزن أنه عاجز عن ذلك .

ولم يكن ليستطيع أن يتحول تحولا جديداً فى الأدب ؛ فلقد ظهرت بوادر تيارات جديدة فى الأدب الأوربى بعيدة عن فرنسا ، وهى تيارات لا تقوم على الفن وإنما تقوم على الآراء والمشاكل ، هـذه هى مسرحيات النرويجى إبسن وروايات الروس . وقد قال وايلد فى ذلك إن الفكر فى تلك الفترة قد تقهقر إلى النرويج وروسيا حيث لا تشرق الشمس وهو يفضل ضوءها .

ولقد قال : « لو طالت بى الحياة إلى القرن العشرين لكان ذلك فوق مايحتمله الشعب الانجليزى » . وكان فى قوله شىء من النبوءة ؛ إذ لم يكد يبزغ القرن العشرون حتى كان وايلد قد أسلم الروح .

ومع ذلك كانت حياة وايلد رمزاً لتضحية غريبة . ولقد قال عن نفسه إنه وضع عبقريته فى حيـاته على حين أنه وضع ذكاءه فى كتبه . وقد يكون هذا القول صادقا فى جوانب كثيرة منه .

حسن محمود

حول مشروع بحيرة طانا

تضاربت البيانات وأقوال الصحف فى الأيام الأخيرة حول هذا المشروع ؛ فلا تكاد تقرأ فى الصحف أن هناك محادثات بين وزير التجارة فى مصر ووزير أشغال أتيوبيا بشأن هذا المشروع حتى يبادر وزير الأشغال الأتيوبى بتكذيب الخبر . ولا يكاد رئيس الوزراء أو وزير الأشغال فى شهر يوليـه الماضى يصرح بأن بحث مسألة إنشاء خزان طانا يبدأ من جديد فى شهر اكتوبر ، ولا يكاد يقول إن الوزارة ستوفد إلى أديس أبابا بعض رجالها لمفاوضة حكومة أتيوبيا ، حتى تقرأ فى جريدة « الأثيوبيان هرالد » التى تصدر فى أديس أبابا نفياً رسمياً من الحكومة الأتيوبية ، فحواه أن شيئاً من هذا لم يكن .

وأنت إذا ذهبت إلى وزارة الأشغال أو وزارة الخارجية للاطلاع على الأوراق الخاصة بهذا المشروع قيل لك إن كل ما يتعلق بالمشروع سحب وأودع الخزانة السرية تمهيداً لإعادة النظر . والواقع أن فيضان هذا العام كان باعثاً على إحياء التفكير فى المشروعات المختلفة التى من شأنها أن تنظم توزيع مياه النيل من جهة ، وتزيد من مساحة الأرض المزروعة من جهة أخرى . ونال مشروع بحيرة طانا — على ما يظهر — نصيباً من الاهتمام . إلا أن هذا المشروع يختلف فى طبيعته عن غيره من المشروعات المقترح تنفيذها فى السودان ؛ لأنه يقع فى بلاد الحبشة ، ويحتاج تنفيذه إلى موافقة الحكومة الأتيوبية .

فالمسألة إذن ليست مقصورة على الدراسات والبحوث الفنية من جانب رجال وزارة الأشغال فحسب ، بل تخضع أيضاً لسياسة وزارة الخارجية .

اسم البحيرة

تسمى باللغة الأمهرية طانا (بالطاء لا بالتاء) ، واسمها فى اللغـة الحبشية القديمة تصانا (بإسكان التاء) ، واللغة الأمهرية تبدل الصوت « تص » فى

الحبشية القديمة بـ «طاء» . وقد أطلق عليها رجال البرتغال فى القرن السادس عشر الميلادى بحيرة دامبيا باسم المقاطعة التى تتاخمها من الشمال .

ارتيادها

إن دخول المرسلين اليسوعيين إلى الحبشة فى القرن السادس عشر أتاح لهم ارتياد بعض مناطق البحيرة . وقد وصل القسيس بايز إلى المناطق المحيطة بالبحيرة ، فتوصل إلى معرفة منبع النيل الأزرق . ثم توجه الرحالة الأسكتلندى جيمس بروس بين سنة ١٧٦٨ وسنة ١٧٧٣ من اللحيّة على ساحل اليمن إلى مصوع فبلاد الحبشة للكشف عن منابع النيل . وقد استصحبه الإمبراطور تكلا هيمانوت (١٧٦٩ — ١٧٧٧) فى بعض حملاته التأديبية حول بحيرة طانا . وبذلك سنحت لبروس فرصة لم يكن يتوقعها ، إذ رأى منبع النيل الأزرق . وإليه يرجع الفضل فى تحديد مكان البحيرة بالضبط ووصفها وصفاً مفصلاً .

وفى سنة ١٨٣٩ أرسلت الحكومة الفرنسية بعثة علمية وصلت إلى المناطق المحيطة ببحيرة طانا ، كما قام القنصل الفرنسى فى أتيوبيا انطوان دابادى برحلة حول البحيرة سنة ١٨٤٢ .

وفى سنة ١٨٨٠ سافر الألمانى انطون شتيكر فى مهمة سياسية لدى الإمبراطور يوحنس ، فزار البحيرة وحدد مركزها ورسمها على الخريطة .

ثم أرسلت الجمعية الجغرافية الإيطالية سنة ١٩١١ أحد علمائها لدراسة البحيرة بعد أن رأت اهتمام فرنسا وبريطانيا بإرسال عدة بعثات بين سنة ١٩٠١ وسنة ١٩٠٨ ثم توالى إرسال البعثات من الحكومتين المصرية والسودانية توطئة لدراسة مشروع الخزان .

وقد كلفت الأكادمية الملكية بروما العالم الإيطالى داينيلى سنة ١٩٣٧ أى أيام الاحتلال الإيطالى للحبشة بدراسة البحيرة من الناحية العلمية والاقتصادية .

وصفها

إذا اتخذ المسافر أحسن الطرق الموصلة إلى بحيرة طانا ماراً بمدينة جوندار فانه لا يكاد يبتعد عنها مسافة أربعين كيلو متراً حتى يصل إلى البحيرة . ومع وجود الرحلات المختلفة إلى البحيرة فإن النتائج التى وصلت إلينا وخاصة عن الارتفاعات والمساحات فيها لا تخلو من فروق . ولكن الطليان أيام احتلالهم الحبشة أمكنهم أن يحققوا الكثير منها : فالبحيرة تقع على ارتفاع ١٨٤٠ متر فوق سطح البحر ، على شكل قلب طوله ٨٥ كيلو متراً من الشمال إلى الجنوب وعرضه ٦٥ كيلو متراً من الشرق إلى الغرب . ومساحة سطح الماء فى البحيرة حوالى ٣٦٣٠ متر مربع . وتبلغ مساحة حوضها حوالى سبعة عشر ألفاً من الكيلو مترات المربعة وهو صغير نوعاً . ومنطقة البحيرة غزيرة بأمطارها . ويصب فيها من المرتفعات المحيطة بها نحو ستين جدولا ونهيراً ، اهمها أباى الصغير . وهى تحمل معها طبقة من الغرين تتركها على جوانب البحيرة بعد انقضاء موسم الأمطار . وأما منطقتها فبركانية ، بها بعض عيون معدنية ، وقد وجد الفحم فى جنوبها الشرقى وشمالها كما عثر على الحديد فى شرقها .

وعلى مقربة من قرية بحر دار جيورجيس فى الجنوب الشرقى من البحيرة حيث تكثر أعشاب البردى ينبع النيل الأزرق أو كما يسمونه أباى ومعناه الأب . وهذا يدل على منزلة النهر عندهم . وتذكرنا هذه التسمية باسم النيل عند قدماء المصريين . ويبلغ طول النيل الأزرق من منبعه إلى مصبه ١٤٠٠ كيلو متر . وتصب فيه روافد عديدة تحمل إليه المياه من مقاطعات الأمهرا وولو وشوا . وتغذى بحيرة طانا النيل فى مصر بمتوسط ٦ فى المائة من المياه . ويمر النيل الأزرق بطائفة من السدود بقدر خروجه من البحيرة . وأشهر هذه السدود يبعد ٢٦ كيلو متر من منبعه ، وبه مساقط المياه طيس وها ومعناها الماء المدخن ، أو كما يسمونها أيضاً طيسيسات أى الدخان الكثيف . وهذه المساقط من أروع وأجمل المناظر الطبيعية فى العالم ؛ إذ تهبط المياه من ارتفاع ٤٥ متراً وسط حقول مزدهرة ، فيها خاصة زهر الاركيديه (الزراوند) . ومما ينشأ من سقوط المياه من هذا الارتفاع أنها تتحول إلى ذرات تشبه الدخان ، ومن هنا كان اسم المكان .

الجزر

يرتبط تاريخ الحبشة وأساطيرها ارتباطاً وثيقاً بجزر بحيرة طانا التى تبلغ ٣٧ جزيرة . وقد كانت منذ أقدم العصور موطناً للقبائل المنتشرة فى تلك الجهات ، تلجأ إليها طلباً للأمن من الوحوش أو الأعداء . ولبحيرة طانا أهمية دينية ازدادت منذ انتشار المسيحية فى الحبشة فى القرن الخامس الميلادى . وقد أخذ رجال الدين فى إقامة الديارات والكنائس ليكونوا فى نجوة من الغارات المختلفة ، كما فعل أسلافهم من قبل .

ويذكر القصص الحبشى القديم أن العذراء مريم عند هربها إلى مصر مع طفلها يسوع المسيح من وجه هيرودس الملك التجأت إلى جزيرة طانا قيرقوس وهى جزيرة صغيرة من جزر البحيرة . وقد اختبأت العذراء بها ثلاثة أشهر وعشرة أيام . ويؤمن الأحباش إيمانا بهذه القصة وأمثالها ؛ لذلك يحجون إلى الجزر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وفى كل جزيرة على وجه التقريب كنيسة أو أكثر ، لكل منها قصة يتناقلها الناس ويحرص رجال الدين على الاحتفاظ بها ونشرها حتى يبقى الناس على حجهم وزياراتهم .

ومما يروى عن جزيرة طانا قيرقوس فوق ذلك أن تابوت العهد حفظ فى الهيكل الذى كان قائماً فى الجزيرة ، والذى حوّله ملكا أكسوم — وهما ألا أصبح وألا أبره — إلى كنيسة موسومة باسم القديس قيرقوس . وكان تابوت العهد قد سرق من بيت المقدس وحمل إلى الحبشة . ويقال إن أول كاهن لهذا المكان هو عزاريا بن صادوق رئيس الكهنة فى أيام سليمان الحكيم . وهو الذى صحب إلى بلاد الحبشة منيليك الأول ابن ملكة سبأ الذى أنجبته من سليمان . وتذكر القصة أن التابوت ظل هناك ستة قرون قبل نقله إلى مدينة أكسوم .

ثم وجدت فى هذه الجزيرة كأس من المعدن عليها نقوش سبئية . ووجدت أيضاً إلى جانب الكنيسة ثلاثة أعمدة حجرية بها تجويف مستدير يدل على أنها كانت تستعمل فى العبادة قبل دخول المسيحية . وعلى أحد الأعمدة صليب يقال إن القديس فرومنتيوس الذى أدخل الدين المسيحى إلى الحبشة فى القرن الرابع نقشه بيده إشارة بذلك إلى انتصار النصرانية .

أما جزيرة ميطراها فهى جزيرة صغيرة ، بها كنيسة شيدها منليك الثانى فوق قبر أم الملك يوحانس . وبها أيضاً قبر الإمبراطور إياسو الأول (١٦٨٢ — ١٧٠٦) . وترى هناك آثار كنيسة كان قد بناها الإمبراطور داود الأول (١٣٨٢ — ١٤١١) وأحرقها محمد بن ابراهيم الغازى المعروف بجرانيا (أى الأشول) فى القرن السادس عشر ، ثم أعاد بناءها الإمبراطور يوحانس الأول (١٦٦٧ — ١٦٨٢) ثم أحرقها الدراويش .

وقد هاجم الإمبراطور تيودور (١٨٥٥ — ١٨٦٨) هذه الجزيرة بالمدافع وأحرق مساكنها .

وعلى جزيرة دبرا مريم المستطيلة الشكل الواقعة عند منبع النيل الأزرق أقام الإمبراطور تيودور كنيسة على أنقاض الكنيسة التى بنيت فى عصر الإمبراطور عمداصيون (١٣١٤ — ١٣٤٤) . ومما يذكر عن الإمبراطور عمداصيون هذا أنه اشتهر فى أوائل حكمه بأعمال الفسق والفجور ، فحرمه الأنباهونوريوس من الكنيسة ، فاغتاظ الإمبراطور لهذا فأمر بالأنبا ان يجلد حتى يسيل دمه على مرأى من أهل المدينة . وفى مساء اليوم نفسه احترقت المدينة ، فقال رجال الدين إن دماء هونوريوس استحالت لهباً . ولكن الإمبراطور اعتقد أن رجال الدين هم الذين أشعلوا النار فى المدينة ، فأخذ فى اضطهادهم ، حتى هرب الكثير منهم إلى جزر بحيرة طانا معتصمين بها .

وهذا الإمبراطور هو الذى بعث سنة ١٣٢٥ ميلادية برسالة إلى السلطان الناصر يحتج فيها على اضطهاده للأقباط ويهدده باضطهاد العرب الساكنين فى أتيوبيا ، كما هدده بمنع الماء عن مصر وتحويل مجرى النيل إلى الصحراء .

وفى جنوب البحيرة تقع جزيرة كبران المستطيلة الشكل ، وهى مكونة من صخور بركانية تراكمت طبقات بعضها فوق بعض . وترى فى أبرز مكان من الجزيرة كنيسة جبريل التى أعاد بناءها الإمبراطور إياسو الأول على أنقاض كنيسة كان قد بناها الإمبراطور عمداصيون ، وقد استعان فى بنائها بصناع من الأجانب . والكنيسة مستديرة الشكل على مثال كنائس جوندار . وقد جلبت حجارتها الجيرية من منطقة دنسا ، وأقيم فى الهيكل اثنا عشر عموداً من الحجر الأحمر .

ودفن فى هذه الجزيرة الإمبراطور تكلاهيمانوت الأول (١٧٠٦ — ١٧٠٨)

وإليه أنقذ لويس الرابع عشر لونوار دو رول الذى كان يتولى أعمال القنصلية الفرنسية فى دمياط . ولكن لونوار قتل فى طريقه إلى الحبشة فى سنار بأمر ملكها . فغضبت الجالية الفرنسية فى مصر لذلك الحادث وطردت جميع النوبيين الذين كانوا فى خدمتها . هذا ومما يؤثر عن الإمبراطور تكلا هيمانوت أنه كتب إلى والى مصر يهدده بمنع ماء النيل عن مصر إن هو عاد إلى التنكيل برسله ، وخاصة ماحدث لرسوله مراد السورى الذى أوفده إلى لويس الرابع عشر بصحبة المسيو بونسيه .

ويرى الناظر أمام مصب نهر أبّاى الصغير جزيرة داق وهى أكبر جزر البحيرة ، وهى مستديرة بعض الشىء ، يبلغ قطرها نحو خمسة كيلومترات ، وأرضها خصبة مزروعة حبوبا وقطنا وبنًّا ، وهى ترتفع عن مستوى سطح الماء فى البحيرة عشرة أمتار تقريباً ، بها خمس كنائس بدياراتها ، وأجملها موقعاً كنيسة قوتا مريم المنعزلة القائمة وسط حقول مغطاة بخضرة كثيفة .

وفى هذه الجزيرة القرية الوحيدة التى يؤذن للنساء بالإقامة فيها . وربما رجع هذا التساهل إلى ان الكنائس الخمس الموجودة بالجزيرة ليست على الشهرة التاريخية أو القصصية التى لغيرها . فإن الجزر التى بها ديارات يحرم على النساء دخولها . وقد سرى هذا التحريم أيضاً على الإناث من الحيوان (كما هو معروف عن جبل آتوس فى بلاد اليونان الآن) .

وفى جنوب داق الشرقى على مسافة كيلو متر واحد تقع جزيرة داجا ، وهى مستديرة يبلغ قطرها ١٢٠٠ متر تقريباً ، وهى صخرية بركانية ، ترتفع نحو ٩٠ متراً فوق سطح الماء . وتطل منها كنيسة اسطفانوس المستطيلة ، وقد تم ترميمها بعد أن دمرتها الصاعقة سنة ١٨٨٠ . وإلى جانب الكنيسة دير نجا من الصاعقة ، يحفظ عدداً من رفات براطرة الحبشة ، أو بالحرى صناديق تحوى جماجمهم .

ومن بين البراطرة يكونو أملاك (١٢٧٠ — ١٢٨٥) وهو رأس الأسرة السليمانية الذى نقل عاصمة الملك من أكسوم العاصمة القديمة إلى تجولات . وكانت بينه وبين العرب حروب دارت عليه . وهو الذى راسل الظاهر بيبرس وراسل الامبراطور ميخائيل الثامن فى القسطنطينية .

وفى الدير نفسه رفات الإمبراطور داود الأول (١٣٨٢ — ١٤١١) ،

وهو الذى اشتدت فى أيامه الحرب بين العرب والأحباش . وقد ذكر المقريزى أن هذا الإمبراطور أرسل إلى السلطان برقوق ٢٢ جملا محملة بالهدايا . وكان مغرماً بركوب الخيل ، وقد لقى حتفه تحت حوافر فرس جموح

وفى هذا الدير ايضاً رفات الإمبراطور زرأ يعقوب (١٤٣٣ — ١٤٦٨) وكان عصره عصر إحياء العلوم فى الحبشة ، وهو أول من استعان بالأجانب فى كثير من الأعمال الإنشائية . ومما يذكر أن أحد الرهبان من طليان البندقية صور له العذراء تحمل الطفل يسوع المسيح على يدها اليسرى كما جرت العادة بذلك فى البلاد الغربية ، فثار الأحباش لذلك وأرادوا تحطيم الصورة ؛ لأن العادة جرت فى الحبشة على عكس ذلك أى أن يصور الطفل محمولا على اليد اليمنى ؛ لأن اليد اليسرى تكون للتحقير ، واليمنى للتشريف .

وفى هـذا الدير الإمبراطور زادنجل (١٦٠٣ — ١٦٠٤) وهو الذى راسل البابا كليمنسيوس الثامن ، ثم راسل الملك فيليب الثالث ملك أسبانيا إذ اقترح عليه أن يزوج ابنته من ابنه ، وكذلك رغب إليه أن يوجه إليه عدداً من الأسبان ليقيموا فى الحبشة حتى يمتزج الشعبان .

وفى الدير مومياء الإمبراطور فاسيلادس أعظم براطرة الحبشة ، وهو الذى بنى مدينة جوندار واتخذها عاصمة لملكه وشيد فيها الحصون التى تعتبر من أعظم آثار الحبشة . وقد استعان فى بنائها بصناع مهرة من مصر والهند كانوا يعملون تحت إشراف فنيين من البرتغال . وهو الذى طرد المرسلين اليسوعيين من بلاده ، وأعاد بناء كنيسة أكسوم بعد أن خربها محمد جرانيا . وهنا يقول الرحالة بروس الاسكتلندى : إن بعض التحف القديمة أعيدت إلى الكنيسة بعد أن كان خبأها الرهبان زمنا فى جزر بحيرة طانا .

أما الجزر الواقعة شمال البحيرة فتجد فيها آثاراً كثيرة لقصور وكنائس وديارات خربها محمد جرانيا ، ثم رمم بعضها . وعاد الدراويش أيام ثورة المهدى إلى تخريبها وإحراقها ، فلم ينج منها إلا القليل مثل دير مندابا فى جنوب شبه جزيرة جورجورا حيث يقيم الآن مائة وخمسون من النساك الذين اشتهروا بزهدهم وتقشفهم .

وفى الكنائس والديارات القائمة على جزر بحريرة طانا ثروة من المخطوطات المكتوبة على الرق باللغة الحبشية القديمة (الجعز) التى لا تزال لغة الكنيسة

فى الحبشة . وعرفت إحـدى جزرها وهى كبران بأنها أصلح الأمكنة لحفظ المخطوطات وإخفائها ؛ فإليها يرجع الفضل فى إنقاذ عدد كبير من المخطوطات أيام الاحتلال الايطالى ، كما أخبرنى بذلك رئيس ديرها .

ويحس المتجول فى أى ناحية من نواحى الجزر أو فى المناطق المحيطة بالبحيرة بأنها كلها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الحبشة فى ناحية الدين والسياسة .

حالة السكان

تعتبر منطقة بحيرة طانا بالإضافة إلى الحبشة من المناطق المكتظة . وسكانها خليط من عناصر كوشية وسامية من الأجو ومن الأمهرا وهم يدينون بالمسيحية . ويقطن فى المناطق الغربية منها بقايا قبائل لا يزال أفرادها على وثنيتهم وعاداتهم الفطرية . ومع أن جزر البـحيرة آهلة برجال الدين الذين وقفوا حياتهم على العبادة والتنسك ، فإن سكان شواطئ البحيرة على جانب كبير من النشاط التجارى .

فهناك مركزان تجاريان ، يقع أولهما على شاطئ البحيرة الجنوبى الشرقى فى قرية قوراطا التى اشتهرت منطقتها بزراعة البن والموالح ، وهى ميناء تجارية لقبائل مقاطعة البيجامدر .

أما المركز الثانى فهو قرية تصجى على الشاطئ الجنوبى الغربى من البحيرة ، ويزرع البن بجوارها ، وهى الميناء التجارية التى تتجمع فيها تجارة السودان بهذا الجزء من الحبشة .

وبالقرب من البحيرة عدة مدن اشتهرت بتاريخها . ففى شرقها دبرا تابور التى ترتفع ٣٠٠٠ متر تقريباً فوق سطح البحر ، وهى ملتقى الطرق بين مقاطعة الجوجام والتيجرى ، وبين جوندار وولو ، وهى تقع فى منطقة صخرية وسط غابة من أشجار الكافور . وقد اعتبرت فى تاريخ الحبشة من الحصون المنيعة حتى إن بعض البراطرة اتخذها فى القرن الماضى عاصمة للمملكة . وهى الآن مركز مقاطعة البيجامدر .

وإلى جانب البحيرة الشرقى قرية إيفاج الواقعـة فى وسط غنى بكرومه ، وقد عـدها الطليان من الأوساط الصالحة لسكناهم ومحط استعمارهم . وهى

لا تزال إلى الآن سوقاً تجارية تتجمع فيها حاصلات الجهات الخصبة التى تحيط بها .

وتقع مدينة جوندار شمالى البحيرة على ارتفاع ثلاثة آلاف متر ، وقد كانت عاصمة أتيوبيا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . بها أربع وأربعون كنيسة قديمة ، وهى وسط تجارى تجتمع فيه الطرق التى تربط مصوع ببحيرة طانا .

أما المنطقة الغربية والشمالية الغربية من البحيرة فمرتبطة منذ أقدم الأزمنة بالسودان . وكانت من أولى المناطق التى استهدفت لغارات الدراويش وتخريبهم ، كما يشهد بذلك آثار الكنائس والهياكل هناك . وقد حفظ لنا التاريخ أيضاً أنها استهدفت لجيوش قدماء المصريين فى الأسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة من قبل .

ويصيد سكان البحيرة السمك ، وبذلك عرفت قبيلة الويطو التى تسكن شاطئ البحيرة الشرقى ، كما عرفت بالقنص وصيد فرس البحر الذى يكثر فى البحيرة . وهى من بقايا القبائل الوثنية القديمة التى لا نعرف منشأها على وجه التحقيق ، ولا يزيد عددهم على ألف . وهم من بقايا السكان الأصليين ، وقد اشتهروا بغبائهم الذى يعتبر مضرب الأمثال عند الأحباش ، وهم يعدونهم من الجنس المنحط الذى كان سترتى مثل الشنقلا (بنى شنقول) والولجا . ويتنقل الويطو بين هذه الجزر وشواطئ البحيرة على عوامات مصنوعة من القصب أو البردى يسيرونها بمجاذيف من قصب البمبوس يضربون بها الماء ؛ إذ أن المجذاف العريض لم يعرف عندهم .

هذا وصف مجمل للبحيرة وجزرها وشواطئها وأهلها ، قصدنا إلى عرضه قبل أن نتحدث عن المشروع وتاريخه وفوائده .

وهذا يبين لنا ما سيقابل تنفيذ المشروع من عقبات أو اعتراضات أو ما سيقابله من استعداد وتسهيلات . كما يساعدنا على تفهم الأسباب التى تعطل من أجلها تنفيذ المشروع إلى اليوم .

مراد كامل

[يتبع]

أقصوصتان

[كتب الأديب الفرنسي مارسيل أرلان هاتين الأقصوصتين خاصة للمجلة .]

الصاروخ

فى الخامسة والستين من عمره اشترى أوجست بليزو ، زوج فوزين ووالد إميل ، دراجة جديدة ذات لون أزرق صاف من طراز إيجلون . وقال القوم : « فى الخامسة والستين ، إنه لمجنون ! » وتأهبوا للضحك ولكنهم لم يضحكوا . ولا أدرى أين تعلَّم الركوب . ربما كان ذلك فى الغابة ، وربما كان فى الليل . لقد بدا ذات مساء ممتطيا دراجتـه وعبر القرية وهو مشدود الأعصاب ، من غير شك ، وثابت النظرات ، ولكنه لم يقع قط . ومنذ تلك الليلة ، كان يذهب كل مساء على دراجته الزرقاء حاملا لامرأة الكاتب لتراً من اللبن كانت تحب أن تشربه ولمّا يزل دافئا من ضرع البقرة . وكانت النسوة يخرجن إلى عتبة أبوابهن فيرفعن أيديهن قائلات : « أتتصابى يا أوجست ؟ » فيحييهن برأسه دون أن يلتفت إليهن . وتبقى فوزين نصف مختبئة بالمخزن تتابع رجلها بنظرها ما وسعتها المتابعة . ويقول لها النساء : « زوجك يا فوزين ، إنه يستطيع أن يعلم الشباب » فتنق غضباً ورضا . لقد تغير شئ ما بالمنزل منذ شراء هذه الدراجة ؛ إذ قل صراخ فوزين وعلا صوت أوجست .

لم يضحك القوم ولكنهم بدءوا يبسمون . وترى أوجست ساعة وصوله منزل الكاتب يدع الدراجة أمام الباب . وهكذا بقيت أول الأمر خمس دقائق ، ثم عشر فى يوم آخر ، ثم ربع ساعة . وأخيرا كان أوجست بليزو يُدخل الدراجة معه . فالكاتب فى الصيد ولا يعود إلا مع الليل . ويردد الناس : « يا لك من لعين يا أوجست ! » حتى سمعوا ذات يوم عواء فوزين يعلو ويشتد كما لم يسمعوه

قط من قبل . ونحن بالمدرسة ، نتدافع بالمناكب كلما تطلعنا إلى إميل .

فى ذلك العام ، كان إميل يحتفل بالمناولة الأولى ، فتغدى كالعادة المتبعة عند زميله فى المناولة (والزمالة فى المناولة تربط بين الزملاء مدى الحياة) وأتى الزميل بدوره ليتعشى عند إميل . وحضرت تلك الوليمة بصفتى جاراً لهم كما حضرتها ابنة عمهم وقد هرعت من المدينة لتشهد ذلك الحفل . وقال الأب وهو يعلق إناء اللبن بدراجته : « اجلسوا لن ألبث أن أذهب حتى أعود » . ورأينا لون إميل المصفر يزداد امتقاعا على حين اقتربت الأم من رجلها وهى تهمس له بكلمات وعليها مظهر التهديد : « وليمة المناولة ؛ يجب ان تسلك سلوكا مناسباً » ولم يبد على أوجست أنه سمعها ، بل امتطى دراجته وهو يبتسم ؛ وكان حليق اللحية ناضرها ، قد وخط الشيب شاربه ولكنه رقيق مهذب ، وكان مشمر الساعدين وطرفا سراويله مثبتان بالمشابك ، وتعرج فى سيره ثم ابتعد وهو معتدل القامة ، مرتفع الرأس ، ومنكباه إلى جانبيه .

كانت فوزين تردد دائماً : « ليس هناك من هم أفقر منا . » ولكنها رغم بخلها صممت على الاحتفال بذلك اليوم ، فسيتكلم الناس عن الوليمة وعن الحساء ، وعن الأرنب وعن المحار وعن النبيذ العتيق الذى أعقب الجديد . وكانت تقول : « أليس هذا عظيما ! كلوا . كل يا هنرى . كل يا مارسيل . كلى يابنة عمى . إن وليمة المناولة لا تقام كل يوم . » ولما رأى إميل أمه بهذا اللطف ، أخذ تزمُّته يزايله وهو المتوتر دائماً ، الجاد دائماً ، الخجول أبداً ، فأفرغ كأسه ، وقالت له أمه : « ضع شيئاً من الماء » . « نعم يا أماه ، لا تشغلى نفسك بى . »

ولم يستغرق ذلك إلا قليلا ، وانقضت الساعة وأتى الغسق ، وكنا نمد آذاننا لنتسمع أقل حركة فى الطريق . وأوقد المصباح الصغير . وكانت الأم قد صمتت ، وأظهر ضوء المصباح المرتجف عظام وجهها وثقوبه ، وأنفها الضخم البارز العظام ، وشفتيها الرقيقتين المزمومتين ، وجبهتها بغضونها العميقة تحت منديلها المسترخى . وكانت تبدو منطوية على نفسها ، ثابتة النظرات ، ولكنها غائبة عن المكان . وبدأ يظهر على ملامحها التى عذبها التعب والشراهة امتعاض أعمق منهما ، هو امتعاض الغيرة : غيرة العجوز الممتلئة بغضاً . وكنا قد انتهينا من الأكل . ولم نكن نجرؤ على الحركة . وفى فترات متباعدة كان زميل إميل يرشقنى بنظرات أقرأ فيها : «آه ! لوعرفت ! » ومضى وقت جاهدت بعده ابنة

العم لتتكلم ، وكنا نشعر أنها تقاوم همًّا جاثما لا تدرى له من سبب ، وتساءل فى قلق وفى فزع غامض . وأخيراً صمتت ، وكان سكون مطبق لم نعد نسمع فيه إلا دقات خرساء صادرة من ساعة الحائط .

وكنت قد حفظت تحت مقعدى صاروخاً صغيراً أزمعنا إطلاقه عقب الطعام . وكنت أربت عليه وأعبث بذباله وسط ذلك السكون المطبق الذى أوشكنا أن نصرخ من وطأته . . . وصاح فىّ إميل « يامارسيل ! » وهو يشير بأصبعه ، وعليه مسحة العتاب ، إلى الصاروخ الذى كنت قد أدنيته من المصباح دون أن أشعر . ورأينا برقاً وسمعنا صفيراً : كان الصاروخ قد قفز من أصابعى وانفجر عند السقف .

رنّت عندئذ ضحكة طويلة مفاجئة عجيبة ، حتى لقد نسى خطئى نفسه من جرّائها . كانت أم إميل قد نهضت وفى عينيها وحشية ، رافعةً ذراعيها ، وأخذ ينبعث من فمها الأسود الأدرم تلك الضحكة العصبية المصحوبة بفُواق وإغماء . وأخيراً ، صمتت ولكنه كان صمت ادهى : فهاهى ذى المرأة تتطلع إلينا وكأنها تنكرنا . ثم تغنّى ، تغنّى وهى التى ربما لم تفتح فمها بالغناء منذ طفولتها . كانت أغنية لا حياة فيها ، تجرى على وتيرة واحدة ، ولم نفهم شيئا من كلماتها . وقد ذكرتنى بتمتمة رجل أبله كنا نسير وراءه أحيانا فى الطريق حين عودتنا من المدرسة فى المساء .

ووقفنا جميعاً مذهولين . وكان إميل يصيح والدمع ملء مآقيه : « أماه ! أماه ! » وبنت العم تقول : « يابنت عمى ! مادهاك ؟ ماذا حدث ؟ » ولكن فوزين كانت تدفعنا بذراعيها مواصلةً الغناء بصوت جنونى مرتجف تقطعه أحيانا تنهدات ، أو ضحكات السكر ، أو صمت الذهول . وأخيراً استطاع إميل وابنة عمه أن يقوداها إلى غرفة مجاورة ، وكانت تهتز اهتزازاً جنونياً وتصيح وتصرّ على أسنانها . ثم هبطت واستطاعا أن يحملاها إلى فراشها .

وبعد ذلك بقليل ، قالت بنت العم وهى ترفع الأطباق عن المائدة : « لن يحدث شىء ، ربما كان ذلك سوء هضم . لقد استردت قواها ونامت . » وكان إميل منحنياً على بالوعة المطبخ ، يحاول عبثاً أن يقف نزيفاً من أنفه ، وكان عرضة لذلك لأتفه الأسباب ، كشجار أو موضوع إنشاء أو تأنيب فى المدرسة ،

وعندئذ كان يسيل على ذقنه خيط من الدم . وكان المدرس يقول له : « عليك بتناول شيء من الحديد . »

ولم يعد أبو إميل إلى المنزل إلا بعد ساعة أو ساعتين حين كان الليل قد اكتمل . وكنتُ جالساً على أريكة منزلنا أتطلع إلى ظلال القصر والقمر العظيم يلقى نوره عليه ، أتطلع إلى الظلال وهى تغير على الطريق وتجرى إلى موطىء قدمىّ . ثم برزت من ناحية النافورة عربة يد يدفعها رجلان ويتبعها صبية ونسوة يتهامسون ، فلما مروا أمامى رأيت على العربة جسداً لا حراك به ، كان الكاتب قد عاد من الصيد قبل موعده العادى بقليل .

معجزة الأحد

يخيل إلىّ أنى قد عشقت بنوع خاص بعض أنواع الصمت ، كانت الدنيا تنفتح لى بأجمعها فيها فأبسط نفسى أخيرا وليس بى شىء من الهم . أكانت حياتى أم حياتها تحرك مشاعرى وعواطفى حتى تسيل منى الدموع ؟ وما كنا إلا حياة واحدة .

إنى أفكر فى أصابيح الآحاد أيام طفولتى . أصابيح منتظرة ولو أنها تأتينى بمعجزة دائمة الجدّة . وإنى لأخشى قليلا تذكرها . ولم تكن تبدأ قط فى حبور . حتى ليمكن القول إن يوم الأحد الذى يأتى للآخرين بالراحة، لم يكن بالقياس إلىّ إلا يوم حزن عظيم . ففى بدء اليوم كانت أمنا تعتكف فى الغرفة لتعاود رؤية آثار فقيدنا : بعض الكتب ، ومزمارا ، وخصلة من الشعر ؛ وكنا نسمعها تبكى كأنها أمام قبر لم يُغلق إلا منذ قليل، وهى تنادى :« فكتور ! » وعندما تعود إلى المطبخ ، مقطّعة الأنفاس من الحزن والصياح ، لم يكن لنا هم أنا وأخى إلا أن نجعلها لا تحس لنا وجودا . ورغم ذلك فقد كان الأحد يوم تغيير ملابسنا ، ويوم تنظيف المطبخ ، ويوم يطهى حساء اللحم على الموقد المتنقل فيسمع له نشيش عظيم . وكان كل ذلك للأسف من أسباب المصاعب والأخطاء والمنازعات . ولقد استطعنا رغم ذلك أن نلبس نفوسنا لباس الأحد ولو أنها لا تذكر يوم أحد واحد مرّ بلا صراخ أو ألم أو تهديد باللحاق عما قريب بفقيدنا .

ولكن لحظة الهدوء كانت تأتى دائما ، وذلك بعد أن نكون قد يئسنا من إتيانها ، وذلك حوالى آخر الصباح . وكانت أمى بعد أن تغسل وجهها وعنقها تقف أمام المرآة المعلقة فى الحائط وتنزع المشابك من شعرها . وكنت أرقب من مكمن قرب المدفأة ، شعرها الأسود الطويل وهو يسترسل على كتفيها ويا له عندئذ من صمت مفاجىء ! لم يعد هناك شجار ولا غضب . هدنة مباركة وفضل من السماء . وكان ورق الجدران الضارب إلى الصفرة ، والسقف المنخفض ، والأرض ، والأثاث بنوع خاص ، الأثاث اللامع المهتز ، كان كل ذلك يفيض بالحب ويقول :« إنى أحيا » ، ويقول : « إنا نحيا معا ، وليس فى ذلك بأس عظيم . » وكنت أنصت وأنا مسحور لصوت المشط فى شعرها وكأنه صوت الحرير . وكان الريف والأحد الجميل ينتظران حولنا ، والأب هناك خلف القرية وتحت الأرض الرملية يبدو أقل منا مطالب . ويا له من صمت ! وهذه السعادة الشاملة التى تجعلنى أضغط أسنانى وأضم يدىّ خشية ألا أستطيع السيطرة على نفسى . وكان القوم فى الخارج يرجعون من القداس . وفى المطبخ أريج الحساء يعطّره ؛ وفى الحظيرة تتقلب البقرة على فراشها الجديد . وعندئذ وفى ذلك الصمت المطبق كنت أفاجىء أحيانا بلغط تعقبه سعلة خفيفة جدا ، ثم تبدأ أمى ، دون أن تشعر ، تردد أغنية لا أدرى أهى من أيام طفولتها أم من أيام خطوبتها . نعم نحن أيضا ، هذه المرأة الطويلة الواقفة أمام مرآتها ، أمى ، وأخى الذى لا بد أنه يجوب الحديقة ، وأنا بالتأكيد ، أنا الثابت النظرات القابض بشدة على قضبان مقعدى الصغير ــ نحن أيضاً قد واتانا حظنا وأتتنا هبات السماء .

ثم يستغلق صوت أمى وتتلوح جبهتها فجأة وتلقى إلىّ من أعلى كتفها بصوت مؤنب :« فيم تضيع وقتك هنا ؟ » تلك خاتمة الساعة وخاتمة المعجزة : معجزة متواضعة ، ولكن يخيل إلىّ أنّ كلّ ما أتانى منذ ذلك الحين قد وحدته فى تلك المعجزة .

مارسيل أرلاند

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

نجم من المشرق غرّب

لا أدرى إلى أىّ حد نستطيع أن نشارك صاعداً البغدادى فى محنته بين أدباء قرطبة وعلمائها ؛ فهو قد رحل إلى الأندلس سنة ٣٨٠ هـ بعد أن زوّد نفسه بأشياء كان يجب أن يزود بها نفسه : زوّد نفسه باللغة والأخبار وعلم الشعر ، وكان حاضر البديهة إلى حد مدهش جدًّا ، وكان إلى هذا حسن العشرة . فإذا اجتمع له هذا وَطّدَ العزم على أن يرحل من بغداد إلى الأندلس ، وهى رحلة طويلة لا يفكر فيها إلا من أعدّ عدته ووثق من نفسه. إنها رحلة أديب مشرقىّ إلى بلاد فيها بيئة أدبية ممتازة ، وفيها أفراد كثيرون يقدرون الأدب ويجزلون العطاء . إنه آت من المشرق فلا بدّ أنه سيكون موضع حفاوة وتقدير . أليس المشرق هو الذى يبعث للأندلس ببضاعته الممتازة من النحو واللغة والأخبار والأشعار ؟ أليس للمشرق فى الأندلس هذا المركز الممتاز مركز الأستاذ من التلميذ ؟ وكم من العلماء الشرقيين ذهبوا إلى الأندلس قاصدين ما قصد إليه صاعد فى رحلته تلك فلاقوا نجاحاً أظهرهم فى حياتهم نخلدهم بعد موتهم ! هذا أبو على القالى قام بمثل تلك الرحلة التى يقوم بها صاعد فقوبل هناك بالترحيب ، وتهافت عليه الأمراء والأدباء ، وترك بسبب هذه الرحلة أثراً أدبيًّا عظيما . على أن صاعداً كان يحسّ من نفسه قدرة فى ناحية يمتاز بها عن القالى وغير القالى ؛ فهو ذكىّ لبق ، وهو حاضر البديهة بحيث يستطيع أن يُعد جواباً سريعاً لكل مسألة فى النحو أو اللغة أو الشعر أو الأخبار . وهل هناك ما يمنعه من الكذب والادعاء فى بعض الأحيان إذا لزم الأمر ! فسيجوز كذبه واختلاقه لا شك على أدباء الأندلس هؤلاء إذا عرضت مسئلة من اللغة أو خبر أو شعر . . . إن المشارقة أصحاب هذه اللغة ، والمشارقة رواة الشعر العربى وعلماؤه الذين يتحدثون به للناس ، وعلم الأخبار علمهم لأنه فى أساطير البلاد العربية ووقائعها وأيامها . وأين بلاد الأندلس من هذا ! ليرحل صاعد إذن إلى تلك البلاد ،

وليملأ حياتهم الأدبية : هناك بمثل ما ملأ بها القالى وغيره من المشارقة ، وليزدهم هو أشياء من عنده مادام له هذا الذكاء النافذ وهذه البديهة المواتية وهذا الضمير العلمى العريض الذى يجوّز له الاختلاق فى اللغة والادعاء فى المعرفة !

وعلى كل حال فهى رحلة جريئة يقوم بها صاعد البغدادى بعد أبى على القالى، فيصل إلى تلك البلاد مزوّداً بهذا الذكاء النادر وهذا الضمير العلمىّ وهذا العلم المشرقىّ . سيكتب هناك رسائل منمقة عظيمة الحظ من الأداء الفنىّ لهؤلاء الأمراء الأندلسيين الذين سيستكتبونه ، وسيتصل هناك بالمنصور بن أبى عامر ذلك الحاجب القوى الشكيمة الكريم العطاء ، الذى يجمع أدباء قرطبة جميعاً حوله ويعقد لهم المجالس ويشجعهم بالمال والمناصب . وليس للمنصور بن أبى عامر هذا قدم راسخة فى العلم ، ولكنه يجلس دائماً إلى هؤلاء الأدباء القرطبيين ، فيصغى الى مدائحهم أو بعض أشعارهم وأوصافهم ، وقد يشاركهم فى بعض الحديث فى نقد شعر أو لغة أو خبر . لكنه مع هذا محدود الأفق ، وربما كان الباعث على حبه للأدب والأدباء منافسة ملك عظيم كانت له شهرة حربية وأخرى علمية ، فأراد المنصور أن يَبُذَّه فى كلتيهما ، ذلك هو الخليفة عبد الرحمن الناصر الذى استقدم ابا علىّ القالى . ولم تحدثنا المصادر القديمة أن الحاجب المنصور استقدم صاعداً اللغوى البغدادى إلى بلاده ، ولكننا نلحظ هذا حين نقرأ حديث ابن بَسّام صاحب كتاب الذخيرة وهو يترجم لصاعد ويتحدث عن حياته مع المنصور فيقول: إن المنصور كان يطمع فى أن يُعَنَّى به على أبى علىّ القالى . وسواء استقدم المنصور صاعداً أو لم يطلب إليه القدوم وإنما رحل صاعد من تلقاء نفسه بهذه الآمال وبهذه البضاعة ، فالذى حدث هو أنه بعد وصوله اتصل بالمنصور بن أبى عامر ، ووجد المنصور فيه ضالته ليكون فى مجلسه نجماً مشرقيًّا لألاء ربما فاق هذا النجم الذى كان قبله . واستطاع صاعد أن يصل إلى ما كان يطمع فيه ، وهاهو ذا قد اتصل بهذا الرجل العظيم ، وهذه خطوة موفقة ، فلا عليه بعد ذلك إلا أن يظهر على أدباء قرطبة وعلمائها ليكون فى المكان اللائق به وهو ذلك الأديب المشرقىّ الكبير الذى جاء إلى بلادهم لينقل إليهم آداب الشرق وعلومه . فأما المنصور فقد قرّبه إليه وهو غير واثق من علمه ؛ لأن المنصور لم تكن له هذه المكانة التى تتيح له أن يحكم عليه ، وهو يريد أن يعرف مكانة هذا الأديب بين أدباء قومه . فليجمع إذن بينه وبينهم ،

وليحرشهم به ويحرشه بهم ، ليرى هل يظهروا عليه او يظهر عليهم ، ثم إذا وجد صاعداً عند حسن الظن به اتخذه لنفسه واصطفاه ، وكلفه أن يضع كتاباً مثل الذى وضعه القالى للخليفة الناصر ؛ فإن أعجزوه وظهروا عليه فقد أرضى المنصور بذلك كبرياءه وكبرياء هؤلاء الأدباء الأندلسيين الذين بدأوا ينظرون إلى هؤلاء المشارقة نظرة خاصة فيها كثير من الغيظ والتحدى ...

ويدعو المنصور بمجلس حفل جمع فيه بعض العلماء والأدباء ، وقدم إليهم صاعداً تقدمة يعرف منها أن الأمر جد . يقول لهم : هذا الرجل الوافد علينا صاعد يزعم أنه متقدم فى هذه الآداب التى أنتم سرجها الضاحية ، وأهلتها السارية ، وأحب أن يمتحن ماعنده . ثم يوجه إليه فيدخل صاعد والمجلس قد احتفل ، فيأخذه شىء من الخجل ، لكن المنصور يرفع من مجلسه ويؤانسه ، ويسأله عن أبى سعيد السيرافى فيقول صاعد إنه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه . وكأن هؤلاء الأدباء القرطبيين المجتمعين فى هذا المجلس كانوا متلقفين لأول كلمة ينطق بها هذا الأديب المشرقى ، فما كاد يقول هذا حتى بادره العاصمى ، أحد هؤلاء الأدباء ، بالسؤال عن مسئلة من الكتاب فيرتج على صاعد ولا يعرف الجواب ، فيعتذر ويقول إن النحو ليس رأس صناعته ولا هو جل بضاعته . ولا ندرى وقع هذا الإخفاق الأول فى نفس المنصور ، فربما حزن لخيبة ظنه بصاحبه ، وربما فرح لظهور أحد هؤلاء النجوم القرطبيين الذين فاقوا المشارقة . وانتظر المنصور ما سيكون بين أدبائه وبين صاعد بعد أن يحدد لهم صاعد اختصاصه كما نقول نحن فى هذه الأيام . والأدباء القرطبيون متعجلون هم أيضاً معرفة اختصاص هذا الرجل ، فيسرع الزبيدى ويقول له :

— فما تحسن أيها الشيخ ؟

— حفظ الغريب

— ماوزن أولق ؟

فيضحك صاعد ، وربما تكلف هذا الضحك ويقول :

— أمثلى يسأل عن هذا ؟ إنما يسأل عنه صبيان المكتب ؛

— فقد سألناك ولا نشك أنك تجهله .

وهنا يتغير لون صاعد قليلا ، لكنه لا يجد مندوحة عن جواب حاضر سريع لعله الصواب فيقول :

— افْعَل

فيهتف الزبيدى فى أصدقائه ساخراً شامتاً ويقول :

— صاحبكم ممخرق !

— إخال الشيخ صناعته الأبنية ؟

— أجل

— وصناعتى أنا حفظ الأشعار ورواية الأخبار وفك المعمّى وعلم الموسيقى.

هذه إذن صناعات صاعد حدّدها لهم تحديداً بعد أن أخفق أول أمره معهم فى هذه المسئلة من كتاب سيبويه ، وبعد أن أخفق فى معرفة وزن أولق ، وفى هذه المرة ينبرى له ابن العريف بعد صاحبيه الزُّبيدى والعاصمى فيسأل صاعداً بدوره فى عدة مسائل من هذه العلوم التى اختص بها صاعد ، فيظهر عليه صاعد حتى جعل لا تجرى فى المجلس كلمة إلا أنشد عليها شعراً شاهداً وأتى بحكاية تجانسها ، وينتصر صاعد فى هذه الجولة انتصاراً باهراً ، فيظهر المنصور له إعجابه به ويريه كتاب النوادر لأبى على القالى . ولم تخف هذه الإشارة على ذكاء صاعد فهو لا يكاد يلقى على الكتاب نظرة سريعة حتى يقول للمنصور : إن أراد المنصور أمليتُ على مقيّدى خدمته وكتّاب دولته كتاباً أرفع منه قدراً وأجل خطراً ، أدخل فيه خيراً مما أدخل أبو على . ويطمئن المنصور لهذا ويعلم أن بغيته من صاعد توشك أن تتحقق ، فسيضع له كتاباً خيراً من هذا الكتاب العظيم الذى وضعه القالى للناصر ، وسيكون عنده نجماً مشرقيًّا لامعاً يحدّث أدباء قرطبة فى مجلسه ! ينصرف المنصور مطمئنا إلى هذا ، وينصرف أدباؤه القرطبيون وقد عرفوا مواضع القوة ومواضع الضعف عند صاحبهم ، وينصرف كذلك صاعد وقد عرف أن مكانته من هؤلاء القرطبيين ليست هذه المكانة التى كان يظنها ، فقد لاقوه خصوماً قبل أن يلقوه أصدقاء ، وقد اضطروه إلى الحرج والإخفاق عند أول لقائه بهم وتعرّفه عليهم . ويجيل صاعد فى نفسه أشياء كثيرة حين يذكر أنه توقف فى تلك المسئلة من كتاب سيبويه ، وأنه لم يعرف وزن أولق — ترى هل كان يجوز له أن يعترف بعجزه أمام المنصور ؟ لقد كان يجب أن يبدههم كما بدهوه ، حتى لو أدّاه هذا إلى الاختلاق والتلفيق . ماذا لو أختلق وماذا لو لَفّق فى اللغة وهو من أصحابها ، وفى الشعر وله القدرة الفائقة على الارتجال ، وعنده خزانة من الحفظ يستطيع أن يعتمد عليها ؟

ومهما يكن من أمر فهؤلاء أندلسيون قبل كل شيء ! إنه أتى هذه البلاد ليتألق نجمه ، وهاهو ذا قد اتصل بالمنصور ، وهاهو ذا قد نيط به هذا العمل الجليل وكل مثله إلى أبي علي ! لقد وعد أنه سيضع كتاباً يدخل فيه أشياء لم يدخل مثلها أبو علي . غداً سأكون بالمجلس الجامع بقرطبة أملي كتابي ! فلا يعنيني بعدُ هؤلاء القرطبيون الماكرون ! والحقيقة أن صاعداً رغم منطقه هذا مع نفسه توقع أن حياته لن تكون هادئة مع المنصور وحوله هؤلاء القوم ، إلا انه اعتمد قبل كل شيء على بديهته وذكائه وحسن عشرته وجميل حيلته ، وهذه عدة المتصلين بالملوك والأمراء . . .

وأخذ المنصور وأصدقاؤه من الأدباء القرطبيين يفكرون في أمر صاعد هذا وما مقدار ماعنده ، وينتهى المنصور يوماً إلى نوع من الامتحان جديد ، فهذا أديب مشرقي يدّعى أنه حاضر البديهة ذكيّ الخاطر ، فهل إذا رأى منظراً وصفه على البديهة مثل شعرائنا الأندلسيين ؟ إني لأحبُّ أن أبدهه بمنظر لم يره في مشرقه هذا الذي جاء منه ، وهل للشرق هذا الترف الذي نحن فيه ! إن صاعداً لن يقوى على وصف ماتراه عيناه عندنا بداهة وارتجالا . ويُعِدّ المنصور طبقاً فيه سفائف من ضروب النواوير ، ويضع فوق السفائف جواري ياسمين ، وتحت السفائف بركة ماء حصاها اللؤلؤ ، وكان في البركة حية تسبح . ويدخل صاعد فيمثل هذا المنظر على ذلك الطبق بين يديه ويقول له المنصور : إن هذا يوم إمّا أن تسعد فيه معنا ، وإما بالضد عندنا ؛ لأنه قد زعم قوم أن كل ماتأتى به دعوى ، وقد وقعتُ من ذلك على حقيقة ، وهذا طبق ما توهمت أنه مثل بين يدي ملك قبلي شكله ، فصفه بجميع مافيه . وتمضى برهة وجيزة جمع فيها صاعد كل خاطر ، ثم أخذ يرتجل الشعر القوى العذب في وصف هذا المنظر بجماله ودقائقه . ويرى المنصور وأدباؤه القرطبيون أن صاعداً المشرقيّ لم يقلّ عنهم إن لم يزد في وصف هذه المناظر المترفة الدقيقة التي ظنوا أنهم امتازوا بها عن الشرقيين ، ولم يفت صاعداً كذلك أن يمزج هذا الوصف بمدح المنصور كعادة القوم هناك ، فبدأ شعره بالخطاب إلى المنصور :

أبا عامرٍ هل غيرُ جدواكَ واكفُ	وهل غيرُ من عاداكَ في الأرضِ خائف؟
يسوق إليك الدهرُ كلَّ عجيبةٍ	وأعجبُ ما يلقاه عندك واصفُ

والمنصور وإن ارتاح إلى هذا الاستهلال الجميل إلا أنه متعجل ما سيأتى به صاعد من الوصف ، وصاعد يحقق هذه الرغبة فى نفس المنصور وفى نفس أصحابه سريعاً ، فهو لم يزد على هذين البيتين فى مـدح المنصور ، ثم أسرع إلى الوصف فى شجاعة باهرة وقدرة عجيبة : وصف هذه الوشائع من النَّوْر فادعى أنها قد صاغها الحيـا فمنها عبقر ورفارف ! وزعم أن تلك الجوارى بين ضروب النواوير هن ظباء كُنَّس مستكنة قد ظللتها سفائف من الياسمين ... إلى آخر هذا الشعر اللطيف الذى ارتجله صاعد فى وصف هذا المنظر . واستغربت الجماعة هذا الشعر الذى جاء بديهة ، وبلغ إعجاب المنصور به أن كتبه بخطه . ثم ينظر المنصور فيقول : أجدت إلا أنك لم تصف هذه الجارية ، فيقول صاعد فى وصف البركة والحية شعراً جميلا هو الآخر من نفس الوزن والروى . وبعد أن ينتهى من هذا الشعر ويشعر بنشوة الظفر ، يخاطب المنصور قائلا :

إذا قلتُ قولا أو بدهتُ بديهةً فكأنى لها إنى لمجدك واصفُ

ويأمر المنصور له بألف دينار ومائة ثوب ما بين غلائل وطيقان وعمائم ، ثم أجرى عليه ثلاثين ديناراً ، وألحق فى ديوان الندماء مع زيادة الله بن مضر الطبنى وابن العريف وابن التيّانى وغيرهم ، وكان هذا أجمل ردّ من المنصور على هؤلاء الأدباء القرطبيين الذين ما فتئوا يذكرون له أن صاعداً لص كبير ، وأن كل ما يأتى به أشياء تنحلها من عند غيره ؛ فها قد رأى منظراً عجباً ومع ذلك استطاع أن يصفه أجمل وصف حتى استغربوا له هذه البديهة !

ويجلس المنصور يوماً ومعه صاعد وابن العريف ، فتدخل عليه وردة عذراء لم تستتم فتح كمامها ، فيبسم وينظر لصاعد ، ويعرف صاعد معنى هذه النظرة فيرتجل بيتين على البديهة :

أتتك أبا عامرٍ وردةٌ يذكّرك المسكُ أنفاسها
كعذراءَ أبصرها مبصر فغطتْ بأكمامها رأسَها

إنه حقًّا شاعر خصب ذكى ! إنها صورة جميلة تلك التى شبه بها التفاف أوراق هذا البرعم . فهذه الوردة فتاةٌ عذراء رآها مبصر فخجلت منه فكفّت وجهها بكميها ! أليست هذه صورة فنية مترفة كهذه الصورة المترفة الأندلسية ؟

إن صاعداً حقًّا باهر جمع إلى أصالة المشرقيين ترف الأندلسيين ! ويسمع ابن العريف هذا من المنصور أو يقرؤه فى عينه ، فيعمد إلى حيلة أخرى لعلها ترجع هذا المنصور عن صاحبه الذى فتن به، وهو واثق أن صاعداً هذا دجَّال ، أتراه كان عرف ما أعده المنصور له من مناظر هذا الطبق فاحتال حتى صنع هذا الشعر وادعى أنها بداهة ؟ وهل ترى كان يعرف أن المنصور سيدخل عليه بوردة الآن ؟ وإذا كان صاعد على هذه المكانة من العلم والبداهة فلا بد أن يوهن من هذه الثقة ؛ فلقد استفحل خطرها ولم يعد لها إلا أمر يُبيَّت وكيد يكاد . . . وفى هذه الغمرة من نشوة المنصور ونشوة صاعد بوصف تلك الوردة هذا الوصف الجميل البداهى ينهض ابن العريف ويدّعى للمنصور أن هذين البيتين ليسا لصاعد وإنما هما لغيره ، ويذكر أن بعض البغداديين بمصر أنشدهما إياه لنفسه ، ثم يقول إن البيتين مكتوبان على ظهر كتاب عنده ، فيعجب المنصور لهذا ويطلب منه أن يريه هذا الكتاب ، ولا بد أن ابن العريف كان قد أعدّ عدّته ، فأسرع بالخروج ليعود إلى المنصور بهذا الشعر بأقرب فرصة ، وجرى راكباً حتى أتى مجلس ابن بدر ، وكان أحسن أهل وقته بديهة ، ووصف له ما جرى ، فصنع ابن بدر له هذه الأبيات الرقيقة مشتملة على بيتى صاعد ليثبت أنهما ليسا له وأنما هما ضمن أشعارٍ لغيره :

عَشوتُ إلى قصر عَبَّاسةٍ	وقد جدَّلَ النومُ حُرّاسَها
فألفيتُها وهى فى خِدرها	وقد صدّع السكرُ اناسَها
فقالتْ : أسارٍ على هجعةٍ	فقلت بَلى فرمتْ كاسَها
ومدّتْ يديها إلى وردةٍ	يحاكى لك الطيبُ أنفاسَها
وقالت خف الله لا تفضحنْ	فى ابنةِ عمّك عبّاسَها
فولّيتُ عنها على عِفّةٍ	وما خنتُ ناسى ولا ناسَها

فطار بها ابن العريف ، وعلّقها على ظهر كتابه بخط مصرى ، وورَّى وتحيل ، واصطنع مداداً أشقر ليظهر الخط قديماً ، ودخل بها على المنصور ، فلما رآها اشتد غيظاً وأيقن أن صاعداً دجَّال منافق !

وإذن فهؤلاء القرطبيون يستعملون سلاحاً دنيئاً كهذا السلاح الذى استعمله ابن العريف ! إنه فى الحقيقة سلاح خطر ! لقد استطاع ابن العريف إذن

أن يوهم المنصور أن صاحبه لص سارق ، وما من شك فى أن صاعداً أخذ يميز بين بيته وهذه الأبيات التى التفت فيها . لقد تأمل صاعد هذه الأبيات التى اخترعوها وكتبوها بخط قديم وضمنها بيتاه ـ فوجدها تافهة بالقياس إلى بيتيه الجميلين .

ماذا قال هذا القرطبي الأحمق ؟ لقـد عشا إلى قصر عباسته حين نام حراسها . تماماً مثلما فعل الفرزدق وعمر ! ثم ألفاها فى خدرها وألفى أهلها نياماً ، فحين رأته أشفقت عليه أو أشفقت على نفسها ، لا أدرى : وسألته هل وصل إليها وهم هاجعون — تعنى حرّاسها — فيقول لها نعم . أى شئ فى هذا ؟ دعوا أيها القرطبيون هذه المخاطرات الفرزدقية والربعية لنا . وهل كان يجمل بالفرزدق أو عمر بن أبى ربيعة أن يظهر لها هذا الرفق المخنث حين تسأله ألا يفضح عمه العباس فيها ؟ ما أثقل هذه العفة من ذلك القرطبي المخنث ! وكذلك أخذ صاعد يجيل مثل هذه الفكر حتى أرضى نفسه من هذه الناحية الفنية الخالصة .

وتكثر هذه المجالس وتتصل والمنصور تارة سعيد بصاحبه لهجٌ بالثناء عليه ، وتارة ضيق الصـدر منه قليل الثقة فيه ، لـكنه على كل حال يحتال عليه ويداريه حتى ينتهى من كتابه هـذا الذى يكتبه ليقدمه إليه . . . يثبت للمنصور أن صاعداً يكذب ، لـكنه مع ذلك يستبقيه ، فهو على كل حال ذكى أريب ، خفيف الظل حسن العشرة ، له مايروع فى بعض الأحيان . لـكن صاعداً لا يقف فى كذبه عند حد . فقد دخل صاعد على المنصور يوماً وبيده كتاب ورد عليه من عامل له اسمه ميدمان بن يزيد من أهل يابرة يذكر فيه القلب والتربيل وما عندهم من معاناة الأرض قبل زرعها . فينظر المنصور إلى صاعد ويقول له : يا أبا العلاء ، وقع إلى من الـكتب كتاب القوالب والزوالب لميدمان ابن يزيد . فقال صاعد : نعم رأيته فى نسخة أبى بكر بن دريد بخط كأكرع النمل ، فى جوانبها علامات الوضّاع . فقال له المنصور : أما تستحى من هـذا الـكذب ؟ هذا كتاب عاملنـا ببلدة يابرة يعلم بالذى تقدم من صفة الأرض ، وإنما صغت هذا تجربة لك ، فجعل صاعد يحلف أنه ما كذب وأنه أمر وافق .

وقال له المنصور يوما : ما الخنبشار فى اللغة ؟ فقال له صاعد : حشيشة يعقد بها اللبن ببادية الأعراب ، وفى ذلك يقول شاعرهم :

لقـد عُقدتْ محبتها بقلبى ... كما عُقـد الحليبُ بخنبشار

أى بديهة مواتية وأى جرأة على الإختلاق والـكذب ! وقال له يوماً وقد قدّم طبق فيه تمر : ما التمر كل فى كلام العرب ؟ فقال صاعد : يقال تمر كل الرجل تمر كلاً إذا التفّ فى كسائه . ويحتار المنصور فى أمر هذا الرجل الذى يصوغ الـكذب هذا الصوغ العلمىّ الغريب ، ويجهد صاعد نفسه ليملأ حياة المنصور من كل ناحية ، فيقدم له كثيراً من أدب الشرق وأخباره ، ويضع له كتباً فى القصص ويختار لها عناوين غريبة ، من ذلك كتاب صنّفه له بعنوان الجوّاس ابن قعطل المذحجى مع ابنة عمه عفراء . ويقول ياقوت صاحب معجم الأدباء « وهو كتاب لطيف جدًّا انخرم فى الفتن التى كانت بالأندلس فسقطت منه أوراق لم توجد بعد » . وكان المنصور كثير الشغف بهذا الـكتاب حتى رتب من يقرؤه بحضرته كل ليلة ، كما صنف له أيضاً كتاب الهجَفْجَف بن غَيْدقان بن يثربىّ مع الخنَّوْت بنت مَحرمة بن أنيف !

وينتصر صاعد على خصومه من أدباء قرطبة بهذا ؛ فهو وإن كان يكذب فى اللغة ويكذب فى الشعر ويكذب فى هذا القصص الذى يصنعه لـكنه كذب أشبه بالصدق . وهل استطاع هؤلاء الأدباء أن يدفعوا قوله إن الخنبشار حشيشة يعقـد بها اللبن ببادية الأعراب ! ومن أين له هذا الشاهد الحاضر ! وهو قول قائلهم : « لقد عقدت محبتها (البيت) » وكذلك اخبار الجواس هذا مع ابنة عمه عفراء إنه قصص البادية ، وليس المهم فيه أن يكون صدقاً أو كذباً ، ولـكن الغرض منه أن ينقل القوم إلى حياة الأعراب ، فيرون حبهم العذرى وحياتهم البدوية ، وقد استطاع صاعد أن يصور هذا لهم أجمل تصوير . وملك صـاعد على صاحبه أمره بما كان يصطنع من حسن العشرة ولطف الحيلة . دخل عليه المنصور يوم أُنس وكان صاعد قد اتخذ قميصاً من رقاع الخرائط التى وصلت إليه فيها صلات المنصور ولبسه تحت ثيابه ، فلما حضر المجلس ورأى فرصة لما أراد تجرد من ثوبه وبقى فى القميص المخيط من الخرائط ، فقال له المنصور : ما هذا ؟ قال هذه رقاع صلات مولانا اتخذتها شعاراً ، وبكى ! فأعجب به المنصور وقال له : عندى مزيد !

ويصحب المنصور فى بعض نزهه برياض الزاهرة ، فيمد المنصور يده إلى بعضَ الترنجان يعبث به ثم يرميه إليـه معرّضاً أن يصفه ، فيقول صاعد شعراً لطيفا على البديهة فى وصف الترنجان وقد ضمنه مدح المنصور :

كأنما الحاجب المنصور علمه فعل الجميل فطابت منه أخلاق

وهكذا أصبح صاعد فى نفس المنصور . ويساعده الحظ يوماً فيهدى للمنصور أيلا وقد سمى هـذا الأيل غرسية ، وهو اسم غرسية بن شانجة صاحب قشتيلة وأعدى أعداء المنصور ، ويبعث معه بشعر يقول فيه :

سميتـه غرسية وبعثته فى حبله ليتاح فيه تفاؤلى

فيشاء حظ صاعد أن كان أسر غرسية بن شانجة فى نفس اليوم الذى وصل الأيل فيه مربوطاً ومعه هذا الشعر ، وكان ذلك فى ربيع الأول سنة خمس وثمانين وثلثمائة . وهكذا يكون الجد للصاحب والمصحوب .

ويكمل صاعد كتابه « النصوص » وهو ذلك الكتاب الذى وعد المنصور أنه سيكون أجل قدراً من كتاب أبى على ، ويتتبعه أدباء قرطبة بالنقد والتجريح ، حتى زعموا أنه لم تمر فيه كلمة لها وجه من الصحة ولا خبر ثابت لديهم ، ثم جاءوا للمنصور وقالوا له : رجل مقتدر على تأليف الكذب من عيون الأدب يسندها إلى شيوخ لم يرهم ولا أخذ عنهم . ويتفقون على حيلة من هذه الحيل التى افتنوا فيها ، فيأمر المنصور بتصفير كاغد أبيض وتغيير بهجته ليدل على القدم ، ويترجم على ظهر ذلك السفر بكتاب النكت تأليف أبى الغوث الصنعانى . ويدعى صاعد ، فحين يرى هذا الكتاب يترامى عليه ثم أخذ يقلبه وقال : إنى والله قرأته بالبلد الفلانى على الشيخ أبى فلان وهذا خطه . فأخذه المنصور من يده خوفاً من أن يفتحه وقال له : إن كنت رأيته كما تزعم فعلام يحتوى ؟ قال : ورأسك لقد بعد عهدى به ولا أنص منه شيئاً ، ولكنه يحتوى على لغة منثورة لا يشوبها شعر ولا خبر . فقال له المنصور : أبعد الله مثلك . فما رأيت الذى هو أكذب منك ! ثم أمر بإخراجه ، وأن يقذف بكتاب النصوص فى النهر . ويفرح الشعراء القرطبيون ويشمتون فى صاعد ويسخرون منه . فهذا الكتاب الكبير القدر الذى جلس صاعد لتأليفه فى جامع الزاهرة والذى كان بغيـة المنصور منه قد ظهر كذبه فيه وادعاؤه ، وها قد أمر المنصور فألقى به فى النهر ، فأى ظفر بصاحبهم أحسن من هذا الظفر ! ويبعث إليه بعضهم بهذا البيت الساخر :

قد غاص فى البحر كتاب النصوص وهكذا كل ثقيـل يغوص

فيجيبه صاعد :

عاد إلى معدنه إنما توجد فى قعر البحار الفصوص

وليس من المعقول أن يجىء هذا الكتاب كله كذب وإدعاءاً . والحق أنه كان عملا قاسياً غريباً من المنصور حين أمر بأن يلقى الكتاب فى النهر ، لكن المنصور فيما يظهر تسرع بتأثير هؤلاء الأدباء وبما ظهر من كذب صاعد . وفى ذلك يقول ابن بسام : « وما أحسب أن أحداً يجترئ على إخراج تصنيف وإبداء تأليف يضيق عنه التعديل ، ويدفع فى صدره النقد والتحصيل ، لاسيما وصاعد علم أن قرطبة — حسب ماذكرنا — ميدان جياد، وبلد جدال وجلاد . لكنه اشترط غير المشهور ، فلم يظفروا منه بكثير ، وأعانهم هو على نفسه بما كان يتنفق من تنحله وكذبه ، ولم يكن عند ابن أبى عامر تحرير ولا بصر بالنقد مشهور ، وإلا فليس يخلو كتاب النصوص من غريبة مسموعة ، ولا من فائدة رائعة بديعة . »

ويتتابع المكروه على صاعد بعد ذلك باشتعال الفتنة وتفرق بعض الأمراء الذين اتصل بهم وكتب لهم ، حتى اختل صاعد وعجز عن ستر ولده وأهله . ويموت المنصور بن أبى عامر فيطلب صاعد إلى الخليفة الصغير هشام أن يأمر بتسريحه فلا يأذن له بالانطلاق عن الأندلس خوفاً من خبث لسانه ، فخرج صاعد مستخفياً ، وجاز ببلدة شلطيش وكان ذلك عام ٤٠٣ هـ ، ثم يتصل صاعد بصاحب صقلية ، فيقربه إليه ويفارق البؤس ويراجع النعمة . ويتغلب البرابرة أخيراً على قرطبة فيرجع صاعد إليها ليعود بمن تركهم من أهله وولده ، ويحاول أن يتصل ببعض هؤلاء الأمراء من البرابرة فلا يفلح ، فيعجل الانكفاء إلى صقلية ويموت بها سنة ٤١٠ هـ .

هذه قصة صاعد الأندلسى ذلك النجم المشرقى الذى غرّب ليكون له حظ أبى على القالى ، فجاهد ماجاهد ، ولقى من الكيد ما لقى ، وأخيراً أُلقى بكتابه فى نهر قرطبة ، ومات وهو على أسوأ حال فى صقلية !

محمد عبده عزام

ليلى ودوحتى الموعودة ...

لَمْلِمْ ، سوادك ، يا بهيم ، وخلنى … سربلتنى دهراً ، وإنك ما تنى
ناءت بحملك مهجتى ، واحلولكت … بك مقلتاى ، ألا بربك أعفنى
أطلع نجومى ، أنت قد غوّرتها … يا مُطلع الظلمات ، حسبك ، ضمتنى
يا ليلُ ، يا ليلى ، جناُحك ناشرى … فى كل وادٍ ، فاطو جنحك واطونى
واغبُبْ خضمّك ، قد غَببتُ عبابه … زمناً ، ألا يكفيك ، إن لم يكفنى
أوحشت ، يا لون الغراب ، مضاجعى … فارحلْ ، أظنك ضقت بى وسئمتنى
أنا لا أراك مطيـــــة لرغائبى … ما الليلُ مُضطربى ، ولاهو مسكنى

يا ليلُ ، هل سرحتْ ، بساحك ، جنّةٌ … لعزيفها ، نَفر الهوى ، لا ينثنى
أم ساورتك أراقم ، فحّتْ فلم … يكُ سامر ، من كيدهن ، بمأمن
سقطت رجومك ، فى حماى ، فأحرقت … بشواظها ، زرعى الذى لم أجتن
وانسلَّ بومُك ، بين زُغبى ، فشعما … والبوم ، إن تنصُل مُسوحك يَجبُن
أوليتنى ، يا ليل ، كل بليـــة … هذا صـــنيعك ؟ بئس ما أوليتنى
دنياك مرعبـــة ، كدنيا مجرم … لم أهوها يوماً ، ولم تستهونى
حَكمَ الضلالُ بها وساد فجاجَها … عَدَمٌ يلفّ ، بصمته ، ما لفنى
عقمت ، فلم تنجب شهاباً كاسفاً … حلواً ، أشبّ بهـــاءه ويشبنى

يا ليـل ، يا ملك القطوب ، تنحَّ عن … سُرُرى ، فما أنا ، للظلام ، بمُذعن
غمر الرجاء سواد قلبى ، فاعتسِف … ما شئت بى ، وإذا قدرت فهُدَّنى
هذا حطامى ، سوف أبعث مجده … متمكناً ، من جوفك المتمكن
أو ما ترانى ، الآن ، فيك مهنداً … فى قبضة الفجر القريب ، يهزنى

أعشو إلى نار الضلوع ، كأنني ... متحنن يعشو إلى متحنن
قلبي ، على شفتي ، قُربانُ الضحى ... مُرَحي ، لهذا القلب ، ليس يعقني

يا لهفتا : ليلى غشوم أرعن ... ويسوط أحلامي ، بنوء أرعنٍ
أغرى ، بمصباحي ، الخطوبَ ، فزيته ... دامٍ ، وأضواني وإن لم يطفني
توجتُ آمالي بغار الشوك من ... فَلَواته ، وزهوت زهو المحسن
ونضوت أسمالي وسرت مظفراً ... وأبيت أن أعنو له أو أنحني
أمشي ، أميرَ الليل ، أسحب معطفي ... جذلانَ ، لا أبكي لجنبي المثخن
ياليتني استطعت النجاة لدوحتي ... أُفضي إليها بالأسى ، فتضمني
إن أبك ، من نصب ، تهدهدْ دمعتي ... أو أشكُ رمضاء الحياة ، تظلّني
أو يَبلَ ثوبي ، تكسني أوراقها ... وترد ، عن عُريي ، شمات الأعين
إن يؤذني قُرُّ الشتاء ، تضيء لي ... من قلبها ، الدفء الحنون ، فأغتني
مهما نفضت بها غباري ، لن ترى ... تعبا بأشجاني ، وليس تملني

ويحي ، أأبلغ دوحتي ، يا ليل ، أم ... أنزلتني ، دوحَ الدجى ، فظلمتني
يا ليل ، يا لجي ، إن تك دوحتي ... تحت الدجى ضاعت ، فقد ضيعتني
خذ مزهري ، واذهب بأقداحي ، ورح ... بدمي ، وأدنِ خطاي منها ، تحيني
فيها خلودي ، فانفرج ، يا قاتلي ... إن تنفطر ، عن صبحها ، خلّدتني
هي نُصْب حلمي فيك ، وهي تشير لي ... من خلف أحزان الدجى ، وتحثني
هي دوحتي ، طابت جنًى ، وترعرعت ... فيها بلابل جَنّة ، لم تَشْدُني
ما خنتُ ذكراها ، وكم حوّلتني ... وبعُدتَ ، بي ، عنها ، وما أيأستني
يا ليل ، لا تغدر ، بخدنك ، وارعه ... إني صحبتك حقبة ، وصحبتني

[حمص] نذير الحسامي

قصة سلامان وأبسال

للشيخ الرئيس أبى على الحسين بن عبد الله بن سينا

(٣٧٥ هـ — ٤٢٨ هـ)

لم تصل إلينا هذه القصة كما وضعها الشيخ الرئيس ، وإنما وصلنا شرح الطوسى لها ، المثبت على هامش كتاب « الإشارات والتنبيهات » ونوّه عنها ابن سينا فى غير كتابه هذا ، فى رسالة « القدر » الموجودة ضمن رسائل ابن سينا التى جمعها الأستاذ ميرن Mehren تحت عنوان « فى أسرار الحكمة المشرقية » طبعة ليدن سنة ١٨٨٩ . وكذلك أثبتها الجوزجانى ، فى ثبت مؤلفات ابن سينا .

والقصة تكاد تكون مجهولة . أضف إلى ذلك مايكتنفها من غموض ويشيع فيها من اضطراب ، سببه الأول أن النص الأصلى لم يصل إلينا . وسببه الثانى أن القصة تلخيص مركز جداً لمذهب ابن سينا فى النفس ولمذهبه فى السعادة . وسببه الثالث أنها كتبت على الطريقة الرمزية ، بل يخيل إلينا أن ابن سينا قد وضعها فى شكل لغز علينا أن نعنى بحله ، فإنه يقول : « وإذا قرع سمعك فيما يقرعه ، وسرد عليك فيما تسمعه ، قصة لسلامان وأبسال ، فاعلم أن سلامان مثلٌ ضرب لك ، وأن أبسالا مثل ضرب لدرجتك فى العرفان إن كنت من أهله ، ثم حل الرمز إن أطقت . تنبيه من مقامات العارفين . » والقصة فوق ذلك كله ، مجهولة التاريخ ، ولا يعلم عن مصادرها شيء ما ، ولعلها أيضاً أن تكون غير محددة الموقف من تراث ابن سينا نفسه ، وبالنسبة إلى قصص أخرى كثيرة بهذا العنوان « سلامان وأبسال » .

والقصة تنقسم كأى قصة أخرى إلى الشخصية والحركة . وكل شخصية فيها تعبر عن قوة من قوى النفس ، وكل حركة فيها ترمز عن النزوع الطبيعى

لهذه القوة . وهنا لابد أن ينشأ صراع هائل بين قوى النفس جميعاً ؛ فهي ليست كلها موجهة إلى هدف واحد ، بل بعضها طامح إلى السماء ، وبعضها نازع إلى الأرض ، والإنسان فى كل ذلك هو المسرح الذى تتصارع فى ساحته هذه القوى . ولكن ابن سينا كان قد وضع الخطة التى من شأنها أن تؤدى بهذا الإنسان إلى الله . فالقصة تحكى حركة طموح الإنسان وصراعه فى سبيل الوصول إلى الحق أو المجهول ؛ وعلى ذلك لا بد أن نحلل كل شخصية من شخصيات القصة ، ونرى ما يقابلها من قوى نفسية ، وبدون ذلك لن يتسنى لنا أبداً أن نفهم القصة فى أعماقها . والحق أننا فى القصص العادية يمكن أن نفهم الشخصية من خلال الحركة التى تقوم بها ، ولكن فى قصة ابن سينا لابد أن نفعل العكس ، أعنى أن نفهم الشخصية أولا ، من حيث هى شخصية ، وذلك هو الذى سيفسر لنا حركة هذه الشخصية .

لذلك كله ، نرى أن الخوض المباشر فى القصة غير مجد ، وعليه تحتم علينا قبل ذلك (١) أن نمهد لها بتمهيد تاريخى (٢) ثم يعقب ذلك تحليل شخصيات القصة (٣) وأخيراً نشرع فى عرضها .

١ — التحقيق التاريخى فى قصة سلامان وأبسال

الأصل اللغوى لقصة سلامان وأبسال — الرمزية فيها — قصص أخرى بعنوان سلامان وأبسال — تاريخ القصة ومصادرها — موضع القصة من تراث ابن سينا .

لم ترد لفظة « سلامان » فى الزمخشرى أو تاج العروس ، وأوردها لسان العرب ، ومعناها ضرب من الشجر السهلى ، وواحدته «سلامانة» اسم رجل ، واسم جبل . ولفظة « أبسال » لم ترد فى تلك المعاجم الثلاثة ، ولكن ورد المصدر من « أبسل » بمعنى أسلمه للهلكة ، وهو « إبسال » بكسر الألف . وليس فى كل ذلك ما يمكن أن يكون ابن سينا قد قصد إليه فى المعنى اللغوى للألفاظ .

وقال نصير الدين الطوسى + ١٢٧٣ م . أن هذين الاسمين يسيران فى أمثال

العرب ، ويردان فى قصص لهم قديمة ، ويذكر فى هذا الصدد كتابا لابن الأعرابى بعنوان « النوادر » رويت فيه قصص كان أبطالها سلامان وأبسال . وكتاب النوادر لم يصل إلينا ، كما أنه لم يصل إلى الطوسى أيضاً . وليس فيما أوردته تلك المعاجم من نوادر لابن الأعرابى ، ما يمكن أن يكون ابن سينا قد استفاد منه فى وضعه لهذه القصة . وعلى الرغم من أن الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » قد أورد لابن الأعرابى كثيراً من المقتطفات ، فإنه لم يذكر لفظتى سلامان وأبسال ، أو قصة شبيهة من قريب أو بعيد بقصة سلامان وأبسال . ولقد كان سلامان على حسب قول الطوسى ، يمثل فى تلك القصص القديمة المتداولة ، الرجل الخير الذى يفوز وينتصر ، على حين يمثل أبسال الرجل الشرير ، الذى تنتهى حياته بأن يقع فى أسر الأعداء ، فأصبح من ذلك مثلا يتداوله العرب .

ويتضح من ذلك ، أن لفظتى « سلامان » و « أبسال » ليستا اسمين عربيين صميمين ، ويتضح كذلك أن هذه القصص التى تحاك حولهما عند العرب ، لا يمكن أن تكون قد أوحت إلى ابن سينا قصته ، التى هى فى آخر الأمر تصوير لطموح الإنسان المشبوب لاعتناق المجهول . إن سلامان رمز للإنسان ، وأبسال هو رمز لقوته الناطقة ، التى هو بها ما هو ؛ فليس هما رمزين للخير والشر ، حتى نقول إن ابن سينا قد ساير الأمثال المتداولة عند العرب عن سلامان وأبسال .

ولكن لماذا كتب ابن سينا قصته هذه على الطريقة الرمزية ؟ إن النزعة الرمزية عند ابن سينا لم تكن عابرة ولا سطحية ، بل كانت تملك عليه جانبا كبيراً من روحه العميق ، ذلك الروح الذى أسلمه عمقه — والحق يقال — إلى غموض الأسطورة . وهنا يودّع ابن سينا العقل اليونانى البكر ، يودع ذلك العقل الحسى ؛ فإن ذلك العقل لم يكن بعدُ قد عرف هذه التفرقة بين المرئى واللامرئى . ومنذ تلك التفرقة ، التى أرهص بها على الرغم من ذلك زينو الأيلى حينما أنكر حركة السهم — أقول منذ تلك التفرقة بين المرئى واللامرئى ، يمكن أن يقوم التفكير الأسطورى أو الدينى . وهنا أيضاً ، لا بد من السعى لاكتشاف هذا الجانب اللامرئى ، وحينئذ نضفى لغتنا الحسية ، على موضوعات ذلك الجانب ، فيكون الرمز .

لقد وضع ابن سينا جزءا كبيراً من تراثه الفلسفى الضخم على أساس هذه

الطريقة الرمزية . كتب بها غير قصة سلامان وأبسال ، قصة « حى بن يقظان » وهى غير « حى بن يقظان » لأبى بكر محمد بن عبد الله بن محمد طفيل العتيسى ، ويسمى الأندلسى القرطبى أو الأشبيلى + ٥٨١ هـ . وكتب ابن سينا بهذه الطريقة أيضاً قصة الطير ، وقصيدته فى « النفس » ، ورسالته فى « القدر » التى أوردها الأستاذ ميرن Mehren أو كما يحب أن يسمى نفسه : الفقير إلى الله ميكائيل بن يحيي المهرنى ضمن مجموعة ابن سينا التى سماها الأستاذ ميرن « فى أسرار الحكمة المشرقية ليدن سنة ١٨٨٩ » . بل إن النزعة الرمزية قد تجاوزت القصص التى كتبها ، فظهرت بوضوح فى وضعه لدرجات العارفين ، وتبيينه لدرجات الترقى من « الرياضة » إلى « النيل » إلى « الوصول » . النزعة الرمزية عند ابن سينا تمثل خاصية هامة من خواص روح ابن سينا . فلماذا لجأ إلى هذه الطريقة ؟ ولم يذهب مباشرة ، وعن طريق اللغة الفلسفية الواقعية للإدلاء بما يريد ؟

نجد السبب الأول لذلك — فوق المقدمات الحضارية العامة — فى مجموعة رسائل ابن سينا طبعة حيدر أباد ، فى رسالة « سر القدر » وهى غير رسالة « القدر » التى ذكرناها الآن — حيث نجد: « سأل بعض الناس الشيخ الرئيس أبا على بن سينا عن معنى قول الصوفية : من عرف سر القدر فقد ألحد ، فقال فى جوابه : إن هذه المسألة فيها غموض ، وهى من المسائل الذى لا تدوّن إلا مرموزة ، لما فى إظهارها من إفساد العامة . والأصل فيه ما روى عن النبى : القدر سر الله ، ولا تظهروا سر الله . » (ص ٢) . وإذن فالسبب الذى حدا بابن سينا أن يكتب قصته على الطريقة الرمزية ، هو أن طبيعة موضوعها ، من حيث إنه معاينة الله ، يقتضى أن يوضع فى هذا الثوب الرمزى ، لما يكتنف ذلك الموضوع من غموض ، ولما يكون من أثر إذاعته وإظهاره من إفساد للعامة الذين يأخذون الأمور على علاتها .

أما السبب الثانى ، فقد ورد فى قصة حى بن يقظان لابن طفيل ص ٦ طبعة مصر — وهو يكاد يكون معبراً عن آراء ابن سينا ، حيث يقول ردّاً على جواب السائل الذى يريد أن يبث أسرار الحكمة المشرقية « والغرض الثانى من الغرضين اللذين قلنا إن سؤالك لن يتعدى أحدهما ، هو أن تبتغى التعريف بهذا الأمر على طريقة أهل النظر . وهذا ، أكرمك الله بولايته ، شيء يحتمل أن

يوضع فى الكتب . وتتصرف فيه العبارات ، ولكنه أعدم من الكبريت الأحمر ، ولا سيما فى هذا الصقع الذى نحن فيه ؛ لأنه من الغرابة فى حد لا يظفر باليسير منه إلا الفرد بعد الفرد ، ومن ظفر بشىء منه ، لم يكلم الناس به إلا رمزاً ؛ فإن الملة الحنيفية والشريعة المحمدية قد منعت من الخوض فيه وحذرت عنه» .

فلعل ابن سينا إذن قد ظفر بشىء من هذه الحكمة ، ولما كانت الملة الحنيفية والشريعة المحمدية ، منعت وحذرت من الخوض فيه ، فهو لا يكلم الناس به إلا رمزاً .

فثمة إذن سبب داخلى متصل بطبيعة الموضوع ، من حيث إنه غامض ولطيف ، بحيث لا تدركه إلا لغة غامضة لطيفة ، يكون من شأنها ألا تحيط به ، إحاطة السوار بالمعصم ، بل تدعه يجول فيها ، وتدع له نوعا من الحرية فى الانكماش والتمدد ، والظهور والاختفاء . وثمة سبب خارجى ، هو أمر الدين ونهى الشرع . إن موضوع سلامان وأبسال ، من أسرار الله ، ومن خاض فى سر الله وحاول الكشف عنه ، فقد ألحد .

قصة سلامان وأبسال قصة رمزية يمكن إرجاع الرمزية فيها إلى سبب حضارى عام ، هو أن الفكر العربى كان يتوزعه تياران : التيار الغيبي اللامرئى ، والتيار الواقعى المرئى . وهو مضطر حينما يخوض فى الأول ، أن يلجأ إلى وسائل الثانى ، وهنا يكون الرمز . أضف إلى ذلك السببين الموضوعيين الآنفين ، وأسباب أخرى فرعية ، مثل نزعة ابن سينا الفنية ، واستعداده الشخصى لمثل هذا النوع من الكتابة ودراسته للأدب .

ولم يكن ابن سينا وحده هو أول من ألف قصة بهذا العنوان وعلى هذه الطريقة ؛ فهناك القصة المنسوبة إلى حنين بن اسحاق + ٢٦٠ هـ . وقد أوردها نصير الدين الطوسى فى شرحه ، وذُيِّل بها كتاب « تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات » لابن سينا ، وهناك فرق طفيف بين إيراد الطوسى لها ، وبينها مثبتة فى ذيل تسع الرسائل إذ أن الطوسى قد عمل على اختزالها فى كثير من المواضع . ولكن هذا لا يمس شيئاً جوهريا فى القصة ، فما زالت أبسال المرأة الفاجرة تغرى سلامان ابن الملك هرمانوس الذى لم تكن له زوجة ؛ وإنما ركب ابنه هذا تركيباً ، وصنعه صناعة ، وأقامه على الأرض من غير الطريق الذى نسلكه جميعاً إليها : تأخذ أبسال فى إغراء سلامان وتكشف له عن

مفاتنها ، وتظهر له ما بين أحضانها من لذة شهية . ويكاد سلامان ينقاد ، لولا أن يستعين أبوه هرمانوس بالحكيم أقليقولاس على إهلاك أبسال الفاجرة ، فتنتهى هذه بالغرق ، وينقذ سلامان من براثن المرأة .

ولقد قالت الرواية أن حُنَيْنًا قد ترجم هذه القصة عن اليونانية ؛ ولكن القفطى + ٦٤٦ هـ . ص ١١٦ طبعة الخانجى ، لم يورد ترجمة لحنين بهذا العنوان . ولقد لاحظنا أنه أورد لحنين كتاباً بعنوان « رسالة الحمام » لعلها أن تكون الأساس فى رسالة « الطير » لابن سينا ، أما سلامان وأبسال ، فلم يرد لهما ذكر عند القفطى . وقد تخلص الطوسى من هذه القصة بأنها من خلق بعض العوام ؛ على أنها مازالت فى حاجة إلى البحث والتحقيق .

وثمة شبه بين القصة المنسوبة إلى حنين وقصة ابن سينا ؛ فموضوع كليهما العام ، هو الصراع بين العقل والشهوة ، أو بين الروح والجسد ، كل يريد أن يجذب الآخر ويفنيه فى نفسه ، وسينتهى هذا الصراع فى كليهما إلى انتصار العقل ، وسيادة الروح . والسبب الذى يجعلنا نرفض القصة المنسوبة إلى حنين من حيث إنها كانت مصدرا لقصة ابن سينا ، أن أبسال تمثل فى القصة الأولى القوة الشهوية ، على حين تمثل عند ابن سينا القوة الناطقة . أضف إلى ذلك أن الاختلاف واقع فى كل تفاصيل الصراع ، والاتفاق فى الموضوع العام والخاتمة ، لا يعنى أن قصة ابن سينا قد نسجت على منوال القصة المنسوبة إلى حنين .

أما القصة الثانية التى يلعب فيها سلامان وأبسال دورا كبيرا ، فهى قصة حى بن يقظان لابن طفيل . فبعد أن نتيف حى بن يقظان على سبعة أسابيع من منشئه ، وذلك خمسون عاما ، هبط إليه من جزيرة مجاورة أسال ، وزير الملك سلامان ، وتعرف كل واحد منهما على الآخر بسهولة ؛ فقد وصل حى ابن يقظان — وهو يشبه فى جزيرته النائية روبنصن كروزو إلى حد بعيد — إلى الحقيقة عن طريق النظر المجرد الصرف ، ووصل إليها أسال عن طريق الشرع ، فما لبث كل منهما أن تعلق بالآخر ، وذهبا معاً لهداية الملك سلامان وقومه ، ثم يعودان من هذه المحاولة بالإخفاق ؛ فقد اتفقت الفلسفة مع الدين ، ولكن كليهما لم يتفق مع المصالح الدنيوية التى يمثلها سلامان . لقد كانت مصادفة عجيبة أن يعبر ابن طفيل بالقصة عن ذات ما عبر عنه ابن رشد فى كتابه « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » . ولكنها على كل حال

ليست مصادفة عجيبة جداً ؛ فقد كان التوفيق بين الشريعة والحكمة هو الشاغل الأول للفلسفة الإسلامية .

لقد لاحظنا أن سلامان وأسال عند ابن طفيل ملك ووزيره ، أما عند ابن سينا فهما أخ وأخوه . والدور الذى يلعبانه فى قصة الأول يختلف اختلافاً كبيراً عن الدور الذى يلعبانه فى قصة الثانى .

ولقد ظن بعض المترجمين والباحثين لقصة ابن طفيل ، أنها من تأليف ابن سينا ، ولم يزد ابن طفيل على أن جمع بين قصتى ابن سينا « سلامان وأبسال » و « حى ابن يقظان » ، فى صعيد واحد ، عنونه بحى بن يقظان . أنظر : إننا فى طبعة القسطنطينية لقصة حى بن يقظان نقرأ العنوان التالى : « قصة حى بن يقظان فى الفلسفة الشرقية للإمام أبى جعفر بن طفيل : وهى مستخلصة من المؤلفات القيمة فى الحكمة الشرقية لأبى على الحسين بن عبد الله بن سينا . . . »

والحق أن من الممكن ملاحظة أن ابن طفيل كان يعتمد فى وضع قصته على قصتى حى بن يقظان وسلامان وأبسال لابن سينا ، وأنه قد جمع بين هذه القوى الثلاث فى قصة واحدة . ولكنه ، والحق يقال ، كان قد أخرج بهذا الجمع قصة جديدة ، تختلف اختلافا بينا عن قصتى ابن سينا . فهو لم يجمع بينهما فقط ، وإنما ألف بينهما أيضا . واقتضى هذا التأليف بعض الزيادات وبعض الحذف وبعض العناصر المبتكرة الجديدة . وقد أشار إلى ذلك الأستاذ L. Gauthier جوتيه فى بحثه فى ابن طفيل .

وفى مادة « ابن طفيل » فى دائرة المعارف الإسلامية ، يزعم المعقب على المقالة ، أن الشاعر الفارسى جامى Jami قد اتخذ قصة ابن سينا « سلامان وأبسال » أساسا لمقطوعاته الشعرية المشهورة « سلامان وأبسال » التى ترجمت إلى الإنجليزية وترجمت أيضاً إلى الفرنسية بوساطة Auguste Brieteau أوجست بريتو . والواقع أن هذا الزعم غير صحيح ؛ لأن مقطوعات جامى أقرب إلى القصة المنسوبة إلى حنين منها إلى قصة ابن سينا . فسلامان فى أشعار جامى أمير شاب ، وأبسال ظئره ، التى تصبح معشوقته فيما بعد . ومن هنا يظهر أن جامى ، كان يعتمد فى لا شعوره ، على القصة المنسوبة إلى حنين ، والتى يخلط بينها كثيراً وبين قصة ابن سينا .

ويحتمل أن هذه القصص جميعاً ترجع فى مصادرها الأولى ، إلى العصر

الإسكندرى . فنحن نعلم أن قصة حى بن يقظان لابن سينا ، والتى قلدفيها ابن عزرا ، تشبه فى جوهرها كتاب « بيمندريس » أو « راعى الناس » المنسوب إلى «هرمس» ، وهو محاورة امتزج فيها المذهب الأفلاطونى المحدث باعتقادات قدماء المصريين ، وتمثلت فى صورة شيخ بهى المنظر ، هو عندابن سينا حى ابن يقظان ، وبين تلميذه هرمس إله الحكمة . وتناولت هذه المحاورة فى الوقت نفسه كيفية الخلق ، والإشراق ، أى إفاضة العقل الفعال الذى هو نهاية العقول السماوية ، على العقل المستفاد الذى هو أرقى القوى الإنسانية — أقول إفاضة العقل الفعال على العقل المستفاد المعقولات المحضة . وقد عرف الإسلاميون كتاب بيمندريس ، وأشار إليه القفطى فى « تاريخ الحكماء » .

هذا كله فيما يتصل بقصة حى بن يقظان لابن سينا . وقصة سلامان وأبسال تعالج نفس الموضوع ، فلا يبعد أن تكون قد تأثرت بنفس المؤثرات ، وخضعت لنفس الجو الروحى المعبق بغموض التصوف . ولكن ابن سينا على كل حال لم يكن خالصاً إلى التصوف ؛ فالحق أنه أكبر من عانى الأزمة التى خلقت الحضارة الإسلامية برمتها . أجل إنه عاش طوال حياته ، يريد أن يرقى على الغيبية من جهة ، والواقعية من جهة أخرى ، ليخرج بمركب جديد ؛ ولذلك نجد فى ذات قصته الإشراقية الفيضية ، عناية بالواقع ورأفة بالأرض . إنه إنسان يعيش فى الحضارة الإسلامية التى لم تثر على النزعة العملية الأصيلة فيها ، إلا عند ما ثارت على نفسها ، وأرادت أن تخرج من ذاتها . فبجانب هذه المؤثرات الأفلاطونية المحدثة العزوفية ، نجد المؤثرات الإسلامية من حيث الحض على الفضيلة العملية ، وإباحة العمل فى الحياة ، وتدبير شؤون المنزل ، وتنظيم مرافق المدينة .

بل من يدرى ، إن خطأنا غير محتمل أبداً ، إذا قلنا إن ابن سينا كان ينسج فى قصته « سلامان وأبسال » على منوال قصة يوسف التى وردت فى القرآن . فالشبه بينهما قوى لدرجة عجيبة حقا . بل لماذا نذهب بعيداً ، وقد كان ابن سينا نفسه يشعر شعوراً قويًّا بهذا الشبه . أنظره إليه يقول فى رسالته « القدر » التى نشرها الأستاذ ميرن ، على لسان حى بن يقظان ، وهو يهدئ من صخب مجادله : « وما كل يعصم عصمة يوسف حين رأى برهان ربه ، وكانت همت به وهم بها ، ولا عصمة أبسال حين انباج برق فأراه وجهها » .

لقد تأثر ابن سينا قصة يوسف سواء كان واعياً بذلك أو غير واع . فما يوسف في الحقيقة إلا ابسال ، وما الحاكم أو عزيز مصر إلا سلامان ، وزوجة العزيز هي النفس الأمارة أو زوجة سلامان ، وهي تهيم بأبسال ، كما هامت زوجة العزيز بيوسف ، فيرتد عنها على أثر انبلاج برق إلـهي في خاطره ، كما انبلج برهان الرب في خاطر يوسف ، وإخـوة يوسف الذين قاوموه ، هم في قصة ابن سينا الجيش (أي الحواس) الذي تخلى عن أبسـال وتركه عرضة للموت . وكما انتهى يوسف من هذا الصراع بالنصر والفوز ، انتهى أبسال أيضاً إلى نفس النتيجة المتفائلة ؛ فالخير ينتصر على الشر ، ويكون السلام على الأرض ، والمجد لله في الأعالي .

وننتهي من هذا كله ، بأن قصة ابن سينا متأثرة في وضعها الفني بقصة يوسف ، ولاسيما أن ابن سينا قد حفظ القرآن ووعاه ، وشب متأثراً بمعانيه وقصصه منذ بلغ العاشرة ؛ كما أنها متأثرة في أفكارها ، بل صدرت في أفكارها عن الأفكار الأفلاطونية المحدثة الإشراقية .

ولسنا نستطيع أن نعين بالضبط تاريخ تأليف تلك القصة ، ولـكننا نعلم أن قصة حي بن يقظان لابن سينا ، قد كتبت في الفترة الواقعة مابين سنة ٤١١ هـ ـ سنة ٤١٤ هـ . وهي فترة مضطربة جداً من حياة ابن سينا ؛ فلقد أسره الأمير تاج الملك ، وزج به في السجن ، في قلعـة تسمى « فردجان » ، وبين جدران تلك القلعـة كتب ابن سينا حي بن يقظان . ولا يبعد أن تكون قصة سلامان وأبسال ، قد كتبت أيضاً في هذه الفترة المضطربة ؛ فهي في الحقيقة ومن الناحية الفنية تعد الحلقة الثانية لقصة حي بن يقظان ، فهي تتدفق في نفس المحيط المجهول ، وتستشرف نفس الآفاق النائيـة . وليس من الغريب أن يشرع ابن سينا السجين ، في رسم طريق الحرية ، بقصته سلامان وأبسال . تلك هي نزعة الإنسان الواعي الذي يجد الأغلال حول جسده وروحه ؛ تراه ينفجر في ثورة روحية هائلة ، فيتحرر من ربقة الحواس ، بل من ربقـة العقل ذاته ، وحينئذ يشعر بأزمة الحرية في أقصى درجة من درجاتها . وهنا تراه يخاف الحرية الموفورة أمامه . أجل ! يخافها ، فإذا به يتحرر من الحرية ذاتها ، ويسـلم نفسه لله . هكذا فعل سلامان ، إنسـان ابن سينا ، ولعل ذلك مايفعله الوجودي المسيحي أيضاً .

إن تلك القصة تعبير عن حالة لابن سينا ، لانكاد نجدها فى تاريخ حياته إلا فى تلك الفترة الواقعة بين سنتى ٤١١ هـ — ٤١٤ هـ . ولما كان من الممكن النظر إليها على أنها تمضى فى نفس الفكرة التى ابتدأت فى قصة حى بن يقظان ، المؤلفة فى تلك الفترة ، فلعل قصة سلامان وأبسال ، قد وضعت أيضاً إبان تلك السنوات .

والآن يجب علينا أن نعرف : ما موضع هذه القصة من التراث الروحى لابن سينا ؟ لقد رأينا موضعها التاريخى من حياة ابن سينا . أما موضعها العضوى فى فكره ، فهو فى الحكمة المشرقية ، على الرغم من أن ميرن Mehren لم يوردها فيما أورده من رسائل الشيخ الرئيس تحت هذ العنوان . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن نص القصة مفقود ، وكان ميرن يعنى بجمع نصوص ابن سينا الإشراقية ، لا الشروح على تلك النصوص . نحن نعلم أن الشيخ كان خاضعاً لتيارين رئيسين : التيار المشائى الأرسططالى ، والتيار الأفلاطونى المحدث ، وإلى هذا الأخير تعزى الحكمة المشرقية لابن سينا ، ومن هذه الحكمة قصة سلامان وأبسال .

ولابن سينا كتاب مفقود ، بعنوان «الحكمة المشرقية» . وكان يظن دائما أنه يعالج — كما نتبين ذلك من حديث ابن طفيل فى قصته حى بن يقظان عن تلك الحكمة — المسائل المستورة ، من إشراق واتحاد ونيل ووصول . هو كتاب ، كان يظن أنه نسجت على غراره قصة حى بن يقظان لابن طفيل ؛ فهو إذن يحتوى على أسرار الإشراق ، التى يمكن أن تعتبر بدءا لمذهب السهروردى المقتول + سنة ٥٨٧ هـ ، أعنى أن كتاب الحكمة المشرقية هذا ، يجب أن يوضع فى مذهب التصوف السرى الذى نادى به السهروردى المقتول وتلاميذه . وقد سلّم بذلك البارون كاراديڤو وبوزى وكيورتن وهورتن وجولدتسيهر وديبور . . . بل معظم المستشرقين الذين سبقوا الأستاذ كارلو الفونسو نللينو + ١٩٣٨م . فقد جاء المستشرق ببحث نشره سنة ١٩٢٥ فى مجلة « الدراسات الشرقية » ، وترجمه إلى العربية الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه « التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية » (من ص ٢٤٥ — ص ٢٩٦) . وهذا البحث أثبت بطريقة تكاد تكون نهائية أن كتاب الحكمة المشرقية ، هو كتاب على غرار كتب ابن سينا فى الفلسفة المشائية ، يتكون من ثلاثة أجزاء : المنطق والطبيعة والإلهيات

وأن كتاب منطق المشرقيين المنشور فى القاهرة هو جزء من هذا الكتاب « الحكمة المشرقية » .

وقد اعتمد الأستاذ نللينو فى ذلك على نصوص كثيرة ، كانت موسومة بعنوان الحكمة المشرقية ، وهى ليست فى مضمونها إلا تعبيراً عن الحكمة المشائية .

وإذن فماذا كان يعنى ابن طفيل ، حين أخذ يبث صديقه أسرار الحكمة المشرقية التى قال بها ابن سينا ؟ قال الأستاذ نللينو بعد أن شرح بإيجاز قصتى ابن سينا : حى ابن يقظان ، وسلامان وأبسال : « وليس من شك فى أن ابن طفيل أشار إلى هاتين القصتين الرمزيتين ، ذواتى الطابع الفلسفى الصوفى اللتين ألفهما ابن سينا ، واللتين لا تفهمان بدون شرح ، حين قدم قصته هو على أنها إجابة على سؤال صديق ، طلب منه أن يبث إليه أسرار الحكمة المشرقية التى ذكرها . . . ابن سينا . ومن المحتمل كثيراً أن تكون نسخة قصة سلامان وأبسال ، التى كانت بين يدى ابن طفيل ، كانت تحمل العنوان التالى : « فى أسرار الحكمة المشرقية » ، وهو العنوان الذى أضافته بعض المخطوطات والطبعات الشرقية ، إلى عنوان قصة حى بن يقظان لابن طفيل . (ص ٢٩٢ — ٢٩٣ التراث اليونانى) .

فكأن الحكمة المشرقية يحتمل كثيراً أنها هى قصة سلامان وأبسال . وعليه فليس ابن سينا هو المبشر الأول بمذهب الإشراق ؛ إنما ابن سينا مشائى من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . وإذا كان ابن سينا قد تكلم فى التصوف ، فهو كلام عابر ، لا يدخل فى صلب مذهبه ولا يكوّن دعامة من دعائمه — هو كلام يتوّج مذهبه كما يقول ديبور .

إن هذه النتائج التى وصل إليها نللينو ليست حاسمة ولا جازمة ، للأسباب الآتية :

أولا — أن نلليو قد وضع فرضاً لا يزال فى حاجة كبيرة إلى التحقيق والإثبات ، وهو أن قصة سلامان وأبسال ، التى وقعت لابن طفيل ، يحتمل كثيراً أن تكون قد أضيف إليها العنوان التالى : فى أسرار الحكمة المشرقية . وهذا الاحتمال ، لا يقوى افتراض أن كتاب الحكمة المشرقية كتاب مشائى .

ثانياً — أن نللينو لم يبيّن الصلة التى كان يمكن أن تقوم بين كتاب

الحكمة المشرقية وبين كتاب آخر لابن سينا مفقود، ولكن أثبته الجوزجانى وهو «كتاب المشرقيين». ومجرد ذكر هذا الكتاب، يثير أمامنا هذه المشكله: لماذا لا يكون كتاب منطق المشرقيين، والنصوص التى اطلع عليها نللينو، المسماة باسم الحكمة المشرقية، مع أن مضمونها مشائى صرف — أقول لماذا لا يكون كتاب المشرقيين وتلك النصوص جزءا من «كتاب المشرقيين» ويظل كتاب الحكمة المشرقية كتاباً فى الحكمة الإشراقية، كما كان يفهمها ابن طفيل، ومعظم المستشرقين السابقين على نللينو ؟

ثالثاً — أن الغض من الجانب الإشراقى فى روح ابن سينا ليس له أساس من الصحة. فهب كتاب الحكمة المشرقية كتابا مشائيا، فإن ابن سينا على الرغم من ذلك إشراقى فى أعماق روحه. إنه إشراقى حتى فى صميم كتبه المشائيه، هذا زيادة على تراثه الإشراقى الخالص. بل لماذا نذهب بعيداً، ونظرية ابن سينا فى الوجود تقوم على الفيض والإشراق؛ فإن الواجب بذاته يتعقل ذاته، فيفيض عنه العقل الثانى الواجب بالأول الممكن بذاته. وهذا يتعقل الأول، فيحدث أن تعقله للأول يفيض عليه الخير، فينشأ العقل الثالث، وهكذا دواليك إلى العقل العاشر. ونظرية المعرفة عند ابن سينا نظرية إشراقية؛ فالعقل الهيولانى فى درجات ترقيه، يتطور ويسمو، فيصير عقلا بالملكة، ثم عقلا بالفعل، ثم عقلا مستفاداً. والعقل المستفاد هو العقل الذى يتلاءم لإشراق العقل الفعال عليه بالمعقولات المحضة. ونظرية السعادة عند ابن سينا تبدأ من اللذة الأرسطالية، ولكنها تمضى بعد ذلك فى معارج الفيض؛ لأن خير لذة هى لذة القوة الناطقة، ولذتها هى كمالها، وكمالها هو ابتهاجها بعشق جناب الحق، والفناء فيه، والوصول إلى درجة الغائب الحاضر.

يجب إذن أن نفسح مكانا لأفلاطون فى الفكر الإسلامى، حتى نفهم هذا الفكر على حقيقته. ويجب أن نعلم أيضا، أن قصة سلامان وأبسال، من حيث إنها تلخيص لإشراقية ابن سينا، تفسر جانبا ضخما جدا من جوانب الفكر الإسلامى.

عباس احمد

[تتمة البحث فى عدد قادم]

من هنا وهنالك

الأستاذ طه الراوى

صنعة الرواية

يحار المتصدى لسيرة فقيد الأدب السيد طه الراوى أى الجوانب يتناول وأيها يذر ؛ فان نواحيه متعددة الجوانب ، ومزاياه فياضة بالفضائل ذاخرة بالجلائل ، وحياته حافلة بالأمجاد من الأعمال والعظائم من الامور ، يحسن بأبناء الجيل احتذاؤها والاهتداء بنبراسها؛ فهى بمجموعها أقباس من المكرمات وأنفاس من الصالحات وأمثلة حية تحفز النشء على مكابدة المشاق فى سبيل التحصيل ومتابعة الدرس والصبر على معاناته . فطالما حفزت سير العصاميين ودفعت بالكثيرين من ذوى النفوس الخاملة إلى أن ينفضوا عنهم غبار الكسل فيعملوا بياض أيامهم وسواد لياليهم حتى ينالوا مبتغاهم . ومن أجل هذا عنى الأقدمون بكتب السير ولا سيما تراجم العصاميين منهم ؛ فهى خليقة أن تدرس وأن تحتذى . كان رحمه الله يمتاز بخلال كريمة بمقدور المتحدث أن يقصر بحثه على خلة منها فهى كفيلة أن تغنيه من أن يتصدى لخلال أخرى ، وسوف تشبع رغبته الفنية ما واتته موهبته الكتابية . أقول بمقدور الكاتب أن يتحدث عنه مؤلفاً ضليعاً أو كاتباً اجتماعياً أو عالماً غزير المادة واسع الاطلاع حجة فيما يرجح ، ولغوياً يذكرنا بالسلف الصالح من أمثال الخليل بن احمد الفراهيدى وابن الأعرابى ، أو مفسرا يحاكى الرازى وصاحب الكشاف ، كل هذه الجوانب التى إذا امتاز امرؤ بواحدة منها فهو خليق أن يعد بها من عظماء الرجال ، فكيف وقد تفوق أستاذنا بها جميعاً ؟

برع الراحل الفقيد بالفنون اللسانية والعلوم الاسلامية حتى عد من فطاحل علماء عصره غير المنازع . وكنت أسمع من شيوخ زمانه أثناء الحرب الكونية الاولى بأنه قد أكمل علوم الجادة وأصبح علماً بها لدرجة لم يبق بين أساتذة عصره آنذاك من يفتقر إلى الأخذ عنه ، ولم تخرج المطبعة العربية كتابا قيما فى مصر أو الهند أو العراق والشام إلا وقد اشتملت عليه مكتبته العامرة ، فكانت تسعفه بما يحتاج إليه من بحث . أما أخلاقه فقد صفيت من كل عيب ، فليس له شانئ أو قال ولا عدو لا فى السر ولا فى العلانية ، فذهب مبكيا عليه من جميع عارفيه . هذه النواحى الخصبة من سيرته قد تصدى للكتابة عنها كتاب كثيرون فى العراق وغير العراق ؛ لأن المعجبين بأدبه لاحصر لهم وكلهم من ذوى الركانة والفضل ؛ ولذلك فانى قصرت بحثى على صفة فذة انفرد بها من بين اقرانه وله فيها فضل السبق على جميع أبناء المدرسة القديمة والحديثة فى بغداد ، تلك الصفة هى الرواية فالشهرة التى عرف بها المرحوم كانت منطبقة على الحقيقة وواقع الحال . ونحن إذ ننعت المرحوم بالراوى فلسنا نقصد مبنى الكلمة من وجهة نسبتها إلى مسقط رأسه ، وانما نريد معناها الاصطلاحى اللغوى . إن الذين حصلوا على المعارف واتسعت آفاق معلوماتهم كثيرون ، ولكن ندر بينهم

من كانت له براعة فقيدنا بالرواية أوله قدرته على عرضها وإفادة الناس بما حصل من دراسات منظمة أو قراءات عابرة . سل أى طالب جلس إليه وهو يلقى درسه من منبره يخبرك خبرا اليقين كيف كان يحقق بحثه ويفصل موضوعه ويدعمه بالشواهد ويؤيده بالأمثلة ، ويحدثك عن مقدار ماغرس فى نفوس تلامذته من فائدة وبث فيهم من ميل إلى الدراسة والآداب، وكيف أنهم كانوا ينصرفون من درسه ونفوسهم مفعمة بالغبطة والرضا منشرحة لما يقتطفون من فوائد علمية وأدبية . ولست أرانى مبالغاً إذا قلت بأن تذوق الأدب وشيوع دراسته فى ربوعنا كان مصدره الفقيد الراوى إما بالذات وإما بالواسطة . وأصدقاؤه الذين كانوا يسمرون فى نديه العامر فى أمسيات السبت ـ حياها الله وأحياها ـ يقدرون طول باع أستاذنا وتفوقه فى هذه الخصلة ؛ فهو محدث بارع يأخذ بمجامع القلوب ويأسر الألباب ، ويبعث فى طلابه ورواد ندوته ماشاء الله من أريحية ومسرة ، ويمتع أذواقهم ويرهف شعورهم ، فقد كانوا ينهلون من نميره العذب ويغرفون من فيض معارفه الزاخرة ، فمن طرفة أدبية إلى ملحة مستظرفة ، ومن فكاهة مستعذبة إلى كلمة شاردة ، ومن أمثال سائرة إلى أبيات من الشعر هى السحر الحلال . إسمع إليه يروى منخل الشعر ومصفى النثر ومهذب الأخبار تعرف بين برديه الأصمعى أو حماد أو ابن قتيبة وأضرابهم ممن حفظت لنا بطون الأسفار سيرهم ونوهت لنا بنبوغهم فى الرواية وسعة الدراية . نعم للمغفور له فى عنق أبناء هذا الجيل دين أى دين فى توجيههم الأدبى ؛ فهو والحق أقول الذى غرس فى نفوسنا الميل إلى آداب اللغة وتذوق المصطفى من نثرها والمصفى من شعرها ؛ فما كان أرواه وأكثر حفظه للعذب من منظوم اللغة ومنثورها . هو الذى عرف أبناء هذا الجيل ببشار والبحترى وابن الرومى والمتنبى وأبى العلاء والشريف الرضى وابن معتوق ، وهو الذى حبب الى الكثيرين دراسة زهير والنابغة وطرفة بن العبد وامرئ القيس ، وهو الذى وجه طلاب الآداب إلى دراسة الجاحظ وعمرو بن مسعدة ، وهرون بن سهل ، وابن رشيق ، وابن خلدون ، وابن بسام ، وابن حيان . لقد أوتى غفر الله له حافظة واعية وذاكرة مواتية . فاذا أفاض فى حديث تلقاه يحسن الاستشهاد بالحكاية المؤيدة ، والمثل المناسب والحكاية المشابهة . وذاكرته من أعجب العجائب توانيه بالشواهد ، وحافظته قلما خانته فى رواية ما استوعبته من روائع الشعر أو بدائع النثر ، فكأنه كان يغرف من بحر ، أو كأن كتاباً مسطوراً يقرؤه .

كان نادرة من نوادر الدهر ، وتحفة من تحفه التى قلما يجود بها ، براعة لسن ، واتقاد ذهن ، وسرعة بديهة ، واتساع معارف ورجاحة مدارك ؛ فهو الأديب على غرار ما عرضه ابن خلدون . تصفو النفس لمجالسته ويشيع فيها المرح لحديثه . وأما حضور بديهته فى ايراد المثل من مأثور الآداب منظوما ومنثوراً فهو ما لا يتفق لأحد من أقرانه ولا يشق له غبار فى هذا المضمار . ومجلسه والاستماع لما يروى فى شتى العلوم وضروب الآداب فكان متاعاً دونه متع الحياة ولذائذها ، ولا سيما الساعة الأولى التى كنا نقضيها فى مكتبته العامرة أنا والصديق المحزون على فقده الأستاذ مصطفى على الذى كان الفقيد يعزه ويؤثره على سائر أصحابه ويستأنس برأيه ، وكثيراً ما كان يكلفه قراءة فصل من ديوان أو كتاب إلى أن يتقاطر علينا رواده الكثيرون ، وهم يختلفون ذوقاً وسناً ومدارك ، فنضطر إلى ترك مجلسنا والانقطاع عما كنا فيه من نشوة ممتعة نلسى فيها هموم الحياة وأتعابها .

كان الراوى رحمه الله مسرفاً فى القراءة إن صح أن فى القراءة إسرافا؟ فما زرناه مرة إلا وجدناه يقرأ أو يسمع لمن يقرأ له . وهذه نتيجة طبيعية لنشأته العصامية الأولى؟ فقد نشأ عصاميا بما حصل من العلم والآداب . ومن زامله فى الدراسة أو عاشره فى صباه يوم كان يأخذ العلم عرف شدة ما كان يحمل نفسه من تعب وما كان به يرهقها من عناء مما لا يطيقه إلا العصاميون الأفذاذ .

وخصلة ثانية جديرة بالتنويه عرف بها الراوى ، هى سعة اطلاعه ، فما خاض سماره فى حديث إلا شارك فيه بل أفاض فى موضوعه وأفاد السامعين بتعليقاته ، وفطن إلى دقائق فى الموضوع حتى يبلغ غاية المدى . وأجود ما كنت تسمع منه الآداب العربية والعلوم الاسلامية وخاصة تعليقاته فى التفسير . أما اطلاعه على التاريخ العربى بفروعه كلها جاهلية أو إسلامية ، أموية أو عباسية أندلسية أو الخانية ، فكان فيها حجة وترجيحه عليه المعول . وليس بين شيوخ الأدب وعلماء العربية فى العراق قاطبة من يدانيه فى الضبط . فاللحن تفشى عند الخاصة بله العامة . وعلة ذلك عدم الركون إلى التحقيق وإجهاد النفس بمراجعة المعاجم ، فنلفظ الكلمة كيفما اتفق دون أن نكلف أنفسنا الأخذ عن القاموس أو ضبطها من المعاجم ، ومرجعنا السماع المغلوط . وقد كان من أمانى الأستاذ المرحوم فرض رقيب يثق به على الاذاعة تعرض عليه خطب المتحدثين عن منبرها ، واعراب صعاب الكلمات بالشكل ، وتنبيههم إلى الأخطاء الشائعة ؛ لأن جمهور السامعين يحسبون صحة كل ما يلقى ، وهنا البلوى ، فيشيع التقليد ويكثر الخطأ ، ويساء إلى العربية عن طريق الجهات التى تقصد خدمتها . وكم كان رحمه الله يغتم لالقاء بعض أولئك المتفاصحين الذين يكلفون بتقليد الممثلين المصريين ، وفاتهم أن البون شاسع بين حوار الممثلين وقراءة المواضيع أدبية أو علمية ، فتراهم يمطون بالحرف وحقه القصر مثلا ، ويقفون على ما لا يصح الوقوف عليه كاسم الموصول قبل الاتيان بصلته ، أو على الموصوف قبل إكمال صفته ، وكم سمعنا خطباء يقفون على حرف الجر وأكثر ما كان يسوءه أولئك الذين يتقعرون ويتفيقهون بنطق الكلمات فيزدردون الحروف بحيث لا يتضح حرف عن آخر . وكم نعى على الاذاعة إهمالها هذه الناحية أو فسحها المجال لبعض الناشئين ممن لا يتوافر فيهم النضوج ؛ لأنه يعدها أخلق أداة وأنفع وسيلة لتهذيب الجماهير .

وبعد فخسارتنا بفقد الراحل لا تعوض ، وفراغه لا يسد . أجزل الله لنا الأجر ، وألهم آله وذويه الصبر وتغمده بعفوه ورضاه .

جمال الألوسى

التحليل النفسى والأحلام

استرعى نظرى عنوان « حلم ليلة من ليالى الصيف » . وما قرأته إلا اعتقاداً منى بأنى قد أجد فيه شيئاً من التسلية أو أعثر فيه على مادة أعالج فيها شيئاً مما أعرفه عن تأويل الأحلام . فاذا بى أجد فيه صورة ناطقة حية سريعة الحركة تفيض بكل ألوان الفن للأستاذ عبد الرحمن صدقى . وإذا بى أجد فيه مع هذا كله إحياء لذكرى زوجته المحبوبة بصورة لم تسبق له ولا لغيره من قبل . فقد سبق له أن خلد ذكرى حبه لزوجته بقطعه

الفنية ومنظوماته الشعرية الملتهبة الفياضة .

وللأحلام فى نظر المشتغلين بالتحليل النفسى تأويلات كل مايسوغ الأخذ بها أنها ساعدتنا فعلا فى كشف مجاهل الحياة العقلية اللاشعورية كشفا أدى إلى نتائج قاطعة فى شفاء الحالات العقلية وفى تفسير كثير من الظواهر الانسانية .

وفى حلم عبد الرحمن : مرآة ، وكسوة جديدة أعجبه منظرها ، ثم زوجته ، ثم خوف من الجنون . وفى الحلم موكب عرس بالشموع وسيدة محتشمة، أشاحت بوجهها مخجلة مما رأت .

ويقال إن للأحلام عادة ما يسمى محتوياتها الظاهرة وهى أول وصف الحلم ، وله كذلك محتوياته الباطنة . ومما يوضح هذا أنى كنت نائما فى حجرتى بانجلترا وكان المطر شديداً جداً ، فكانت قطراته الكبيرة تضرب زجاج النافذة من الخارج ضربا سريعا متواليا ، فكان أن رأيت نفسى فى ساحة القتال أسير فى أحد الخنادق وصوت المدفع الرشاش «المترليوز» خارج الخندق مستمر لا ينقطع . وكان قاع الخندق من الطين المبلول ، وكنت عارى القدمين أغوص بهما فى هذا الطين . وكان كما يرى القارئ حلما مزعجا قمت منه منزعجا حقا ، فأدركت أن صوت الرصاص تأويل نفسى حسى لصوت قطرات المطر ، وأدركت أن إحساس الغوص فى الطين تأويل نفسى حسى لاحساس العرق فى أرجلى إذ لبست فى تلك الليلة جوربا سميكا من الصوف كانت قد صنعته لى صاحبة المنزل الذى كنت أسكن فيه .

فلو أنى أخذت الحلم بالصورة التى سردتها مع ربط أهم عناصره بأهم عناصر المؤثرات الحسية المحيطة فى لحظة وقوع الحلم لبدا ذلك كافيا . ولكن ما العلة فى أن صوت قطرات الماء تحول إلى صوت طلقات الرصاص ولم يتحول إلى صوت موسيقى للرقص ، وكان فيه من حسن الايقاع وجماله ما يكفى لذلك ؟ العلة فى هذا أن لدى خوفا من العذاب لذنوب اقترفتها فى صغرى . فهناك الاحساس اللاشعورى بالذنوب ، والاحساس اللاشعورى بالتهديد بالعذاب .

ولعل حلما آخر يوضح ما أقصد ، وهو حلم لشاب على درجة بالغة من الذكاء والتعمق فى التفكير الفلسفى . قرأ فى الفلسفة وفى الالهيات وفكر فيهما كثيراً جداً . وفى يوم من الأيام أبلغنى أنه رأى فى الحلم ربه يجلس على عرش كبير ويمر عليه المؤمنون فيعطيهم شراباً أبيض اللون حلو المذاق يتقبلونه باسمين شاكرين ، ثم يمر عليه غير المؤمنين فيقذفهم بسائل ملتهب أحمر اللون يؤلمهم ويشويهم . ثم يقول لهم إنه عفا عنهم أجمعين .

وقد نظن لأول وهلة أن الحلم كما ذكرناه يفسر نفسه . ولكن الشاب قص حلمه وانتهى منه ثم استرخى فى جلسة وتأوه تأوها عميقا ثم قال : «ولم لايكون الوالد مثل هذا الاله ؟»

وكان للشاب والد يقابل خطأ ابنه مقابلة قاسية ، فهو لا يعذر ولا يغفر ولا يرحم . وللشاب مع والده قصة طويلة تمتد بنا إلى طفولته الأولى ، وفى القصة نجد مزيجا من الاعجاب والسخط والحب والكراهية .

ويمكننا أن نذهب فى الحلم إلى أبعد من هذا فى كشف المحتويات الباطنة . فللسائل الأبيض رمزيته وللسائل الأحمر رمزيته . . . وهكذا .

وإذا أردت أن أتوغل فى حلم عبد الرحمن فلا بد من أن أتوغل فى حياته ، وفى طفولته ، وفى ظروفه الحالية . . . إلى غير ذلك . ولكن يمكننى مع ذلك أن أتفق معه فى تأويله الذى نشره ، على أن السيدة المحترمة المحتشمة هى والدته التى يطمئن إليها ، ويسكن إلى حنانها ، وقد سكن إليه منذ ولادته . فالعقل انما ابتدعها فى الحلم لحماية النائم من حالة عقلية حادة شاذة . فبظهورها وصراختها اختفى الموكب واختفى الحلم كله . ولكن يلاحظ أنها

صرخت كأنها لا توافق على هذا الذى كان على وشك الحدوث ، وكان من مقدماته الموكب والسترة الجديدة . فى الحلم فى رأيى رغبة ملحة فى اللاشعور للعودة إلى الحياة الزوجية . ولكن يمزق العقل أزاءها أمران كلاهما على جانب كبير من الأهمية : أحدهما أن زوجة عبد الرحمن ما زالت حية فى نفسه ، فهو إما أن يعيش معها وهذا محال ، وإما أن يعيش مع غيرها وهذا محال قطعا . والأمر الثانى ما لأم عبد الرحمن من مكانة قوية فى نفسه بلغت من قوتها درجة لا يحتمل مع عيشها معه أى حل آخر ، خصوصاً وقد ضمته إلى صدرها وأعادته إليها عند ما أدبرت عنه الزوجية الهنيئة .

هذا ما يفسر فى رأيى ما بالحلم من خوف وانزعاج واضطراب . فالعودة إلى زوجة يعتقد الحالم أنها ماتت لا يكفى لظهور هذه الانفعالات العنيفة .

هذا تفسير قد لا يقبله عقل الحالم لأول وهلة ؛ إذ قد يتناول مكنونات اللاشعور . وهذه المكنونات لا سبيل للبلوغ إليها بالعقل الواعى ، عقل المنطق والحياة اليومية .

والله أعلم .

عبد العزيز القوصى

شهريات

شهرية السياسة الدولية

يقال إن السياسة العالمية فى هذا الشهر، قد أتيح لها شئ من الدعة والاسماح، وإن العالم سيستقبل العام الجديد هادئاً مطمئنا إلى حد ما. ومصدر ذلك فيما يقال هو أن الاجتماع الأخير لهيئة الأمم المتحدة قد انتهى إلى نتائج رضى عنها واطمأن إليها الساسة المنتصرون؛ فقد خفت حدة الخلاف بين الكتلتين المختصمتين: كتلة السكسونيين من ناحية، والروسيين من ناحية أخرى. فلم يكن بين الخطباء فى هيئة الأمم المتحدة ولجانها ذلك الصراع العنيف، الذى كان ملحوظاً حين اجتمعت هيئة الأمم المتحدة فى لندن، أو حين اجتمع مؤتمر الصلح فى باريس، بل كان الخلاف يشتد ويحتد أحياناً حتى ينذر بالخطر، ثم ينتهى آخر الأمر إلى نوع من التراضى يرتاح إليه المختصمون جميعاً وهذا كله حق ليس فيه شك. وهناك حق آخر ليس فيه شك وهو أن اجتماع هيئة الأمم المتحدة الأخير قد انتهى إلى الاتفاق على طائفة من المسائل كان يظن أن ليس إلى الاتفاق عليها من سبيل. فقد تم الاتفاق مثلا على شئ من التقدم نحو تخفيض التسلح، والاشراف على القنبلة الذرية وما يشبهها، أو يقاربها من الأسلحة الفتاكة، وعلى أن يكون هذا الاشراف غير خاضع لحق الاعتراض الذى تستمسك به الدول الكبرى. بل أتيح للهيئة التى تستشرف على تخفيض التسلح حق التفتيش والتثبت داخل حدود الدول مهما تكن. وما من شك فى أن هذا الاتفاق خطوة قيمة فى سبيل التراضى والتعاون بين الدول الكبرى. ولكن الاندفاع فى التشاؤم شر، كما أن الاندفاع فى التفاؤل ليس أقل منه خطراً. فليسجل هذا الاتفاق الذى تم فى شئ من الرضا. ولكن فى كثير من الاحتياط. فاتفاق المختلفين فى قاعة الاجتماع بهيئة الأمم المتحدة شئ. وتنظيم الاجراءات العملية لتنفيذ هذا الاتفاق، ثم تنفيذ هذا الاتفاق بالفعل فى أمانة وصدق واخلاص شئ آخر. وكل ما يمكن أن نقرره هو أن ساسة المنتصرين قد اتفقوا على شئ من تقارب وجهات النظر؛ فهم سيستقبلون العام الجديد فى شئ من الأمن الموقوت. ولكن للمسائل الكبرى التى هى مثار الخلاف بين المنتصرين ما زالت قائمة لم تمس إلى الآن. فأمريكا مستأثرة بالقنبلة الذرية لم تفض بأسرارها بعد، ولم تبح إعدام ما أنشئ منها ولم تسلم بوقف المضى فى إنتاجها. كل ذلك مرهون بتمام الاتفاق، وتمام إنفاذه فى دقة وأمانة وإخلاص.

وكذلك تقاربت وجهات النظر فى قضيتين خطيرتين: إحداهما القضية الأسبانية، فقد كانت روسيا وفرنسا تطالبان بقطع العلاقات السياسية والاقتصادية مع أسبانيا، وكانت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة تأبيان هذا كل الاباء، فتم الاتفاق على أن تستدعى الدول سفراءها ووزراءها المفوضين من مدريد، وتبقى السفارات والمفوضيات يشرف عليها القائمون بالأعمال، ويراقب مجلس الأمن

تطور الأمور فى أسبانيا . وقد يكون لهذا الاجراء أثره فى إنقاذ الشعب الأسبانى من نظام الجنرال فرانكو ، وقد لا يكون . ولـكن المهم هو أن الدول قد استطاعت أن تصل إلى صيغة يمكن الاتفاق عليها .

أما القضية الثانية ، فهى قضية الخلاف بين الدولة اليونانية وجاراتها الموالية لروسيا . وقد انتهى مجلس الأمن فيها إلى اتفاق قد يجدى وقد لايجدى ، ولـكنه اتفاق على كل حال . وخلاصته أن تنشأ لجنة دولية للتحقيق ، تزور البلاد المختصمة ، وترفع تقريرها إلى مجلس الأمن . وواضح أن كل هذه الألوان من الاتفاق تقوم على التراضى الذى ينزل فيه كل من المختصمين عن بعض مايريد ؛ فهى اتفاقات ليست حاسمة ولا ملغية المشكلات القائمة . فكما أن مشكلة القنبلة الذرية لاتزال قائمة ، فنظام فرانكو لايزال قائماً فى أسبانيا والاحتلال البريطانى لايزال مستقراً فى اليونان والحرب الأهلية لاتزال مضطرمة فى اليونان أيضاً . وهنـاك مشكلة شغلت العالم عاماً وأكثر من عام ، وقد أخذت تنحل فى هـذه الأيام ، دون تدخل من مجلس الأمن ولا من هيئة الأمم المتحدة ، وهى مشكلة إيران . فقد اقتحمت جيوش السلطة المركزية أذربيجان ، وقضت على استقلالها الذاتى ، واستقرت على الحدود الروسية الايرانية ، واستردت سلطان الحكومة المركزية على الأرض الايرانية كلها ، لم تعترض على ذلك روسيا ، ولم تؤيده بريطانيا العظمى تأييداً ظاهراً . ولـكن من سبق الحوادث أن نقرر انتهاء المشكلة الايرانية إلى غايتها ؛ فالدول المنتصرة تنظر صامتة فى ظاهر الأمر إلى تطور هـذه المشكلة على هـذا النحو ، ولـكننا سنرى بعـد انتهاء الانتخابات الايرانية ، وقيام الحـكومة الجديدة كيف تلائم هـذه الدول المنتصرة ذات المصالح المعقدة ، والمطامع التى ليست أقل تعقيداً من مصالحها ، بين مواقفها وبين النظام الجديد . والحقيقة الواقعة التى لايختلف فيها اثنان هو أن كل هذا الاسماح الذى طرأ على السياسة العالمية فى هذه الايام ، مصدره تغيير فى الخطة الروسية . فقد عمدت روسيا من غير شك إلى شىء من اللين والاعتدال ، ونزلت عن كثير من تشددها فى كثير من المسائل . فما مصدر هذا التغيير ؟ يقول المتعجلون إن مصدره الحزم الانجليزى الامريكى الذى أشعر روسيا بأن تشددها منته إلى الكارثة . ونعتقد نحن أن مصدره دهاء السياسة الروسية ، فمن الخطل أن نظن أن روسيا كانت مصممة كل التصميم فى تشددها ، وإصرارها على العنف ، وإنما كانت تتشدد وتسرف فى التشدد ، وهى تعلم حق العلم أن خصومها لن يسلموا لها بكل ماتريد ؛ فهى تدافع عن وجهة نظرها ما وسعها الدفاع وتطلب الكثير لتظفر بالقليل . ومن أخطأ الخطأ أن يظن أن السياسة الروسية قد انهزمت أمام السياسة السكسونية ؛ فالبلقان مازال خالصاً لروسيا ، لايستثنى منه إلا اليونان ، ومطالب روسيا مازالت قائمة فيما يتصل بالمضايق ، وقد وافقت روسيا آخر الأمر على معاهدات الصلح المختلفة ، بعد أن ظفرت بأقصى ما كان ينتظر أن تظفر به . ويمكن أن يقال إن المشكلات التى كانت تواجه المنتصرين لم تحل إلى الآن حلا حاسماً ، وإنما موعد هذا الحل الحاسم هو اجتماع وزراء الدول الكبرى فى موسكو بعـد شهرين .

هنالك . وهنالك ليس غير ، نستطيع أن نتبين أيمضى العالم حقاً إلى التعاون والاتفاق . أم إلى التنـافر والاختلاف . فى الاجتماع المقبل ستحل المشكلة الكبرى التى تدفع أوربا إلى سلم مستقرة ، أو تهيئها للحرب العـالمية

الثالثة ، وهى مشكلة الصلح الذى يراد أن يفرض على ألمانيا .

وبينما تجرى السياسة العالمية العامة على هـذا النحو من التقارب الذى يدعو إلى الاطمئنان ولا يعفى من القلق ، تحـدث فى غرب أوربا أحداث لها ما بعدها ، ولعلها أن تكون أبعد أثراً فى المستقبل العالمى القريب من كل هذا اللغط الذى امتلأ العالم به أثناء اجتماع هيئـة الأمم المتحدة . ففى بريطانيا العظمى لا يكاد ينتهى الخلاف الذى شجر فى حزب العمال ، واضطر الحكومة البريطانية إلى عرض الثقـة ، حتى يثار خلاف آخر بين العمال دائمـاً ، وحول السياسة الخارجية البريطانية دائما كذلك .

والخلاف فى هذه المرة خطير ؛ فالمتطرفون من العمال يرون أن حكومتهم لم تبر بوعدها ، ولم تيسر للديمقراطية سبلها فى الخارج ، ويرون أن حكومتهم اشتراكية فى بريطانيا العظمى مؤيدة للرجعيـة خارج بريطانيا العظمى . وضغطهم هذا يضطر الحكومة إلى ظاهر من التساهل ، ولـكنها لا تكاد تقدم على هذا التساهل الشكلى حتى يسخط المعارضون من المحافظين ، ويصيح المستر تشرشل فى مجلس العموم بأن حكومة العمال تدفع الامبراطورية إلى الانحلال

وكذلك تجـد الحكومة البريطانية الاشتراكية نفسها بين نارين : نار تأتيها من اليسار من أتباعها المتطرفين ، ونار أخرى تأتيها من اليمين من خصومها المحافظين . وقد يكون من الحق أن نهمل نيراناً أخرى تواجهها من خارج بريطانيا العظمى ، وتأتيها من هذه المشكلات الكثيرة التى تتعقد فى كل يوم ، وتزداد تعقداً من يوم إلى يوم فى أكثر أرجاء الامبراطورية : فى الهند ، وفى بورما ، ثم فى مناطق النفوذ كالشرق الأدنى ، والشرق الأوسط مثلا .

فالذين يؤمنـون بقوة الامبراطورية البريطانية وقدرتها على مواجهة المشكلات وقهر الصعاب ، كما كانت تفعل من قبل ، فى حاجة إلى أن يعيدوا النظرة فيما كونوا لأنفسهم من رأى ؛ فقد خرجت الامبراطورية البريطانية من الحرب منتصرة ، ما فى ذلك شك ، ولـكنها لم تنتصر وحدها ، وإنما انتصر معها قوم آخرون ، لعلهم أن يكونوا أعظم منها قوة ، وأشد منها بأساً ، وأكثر منها ثراء ، وأقدر منها على مواجهة الصعاب . وقد بذلت الامبراطورية البريطانية أثنـاء الحرب ، وعوداً أسرفت فى بذلها ، وآن أوان الوفاء بها ، وكانت تظن أنها تستطيع أن تعـد اليوم لتخلف غدا ، ولـكن الشعوب التى تلقت هذه الوعود لم تكن عابثـة ، ولا هازلة ، وإنما كانت جادة كل الجد ، وهى الآن تطالب بتحقيق ما بذل لها من الوعود .

وفى فرنسا تم الانتخاب للجمعية الوطنية ، على النحو الذى عرفه القراء ، والذى لم يظفر فيه حزب بالـكثرة المطلقة ، وجرت انتخابات مجلس الجمهورية ، وانتهت على النحو نفسه . فأصبح أمر الحكم فى فرنسا من أشد الأمور عسراً ، لا يستطيع حزب أن يستقل بالحـكم إلا أن تؤيده الأحزاب الأخرى . وقد طالب الشيوعيون ، وحزبهم أعظم الأحزاب ، برياسة الوزارة ، فأبتها عليهم الأحزاب الأخرى . ثم طالب بها حزب الجمهوريين الشعبيين فرد عنها ، واضطرت فرنسا إلى أن تلجأ إلى الحزب الاشتراكى ، وهو من أحزاب الأقلية ليعطيهـا رئيساً للوزارة ، فأعطاها زعيمها العظيم المسيو ليون بلوم . ولـكن هذا الزعيم لم يستطع أن يؤلف بين المختلفين ، فاضطر إلى تأليف وزارة من حزبه الاشتراكى ، وظهر فى فرنسـا هـذا المظهر الغريب ، حزب من احزاب القـلة يؤلف الوزارة وتؤيده الجمعية الوطنيه تأييـداً إجماعياً ؛

لأنها لا ترى مخرجاً غير هذا من الحرج .

وهذه الوزارة موقوتة بالطبع ، ستستقيل حين ينتخب رئيس الجمهورية . وسترى كيف تستقبل فرنسا أمرها ، وكيف تتكون فيها الكثرة التي تلي الحكم : أتكون كثرة تميل إلى الشمال ، أم تكون كثرة معتدلة متوسطة .

ولكل هذا أثره في توجيه أوربا الغربية ، فالأمر ليس إلا صراعا بين اليساريين الذين يريدون أن يأخذوا من رأس المال أكثر ما يستطيعون ، وأصحاب اليمين الذين يريدون أن يحتفظوا من نظام رأس المال ، بأكثر ما يستطيعون أن يحتفظوا به .

طه حسين

شهرية المسرح

واصلت الفرقة الفرنسية للأوبريت تمثيلها طيلة شهر نوفمبر على مسرحى حديقة الأزبكية ودار الأوبرا الملكية. فقدمت روايتين أخريين هما « الأميرة تشارداس » و « مامزيل نيتوش ». وبهاتين التمثيليتين انتهى موسم تلك الفرقة. وقد جاءت إلى مصر فرقة فرنسية أخرى لتمثيل الملهاة الخفيفة، وهى تواصل حفلاتها فى المسرحين المذكورين آنفا.

أميرة القشارداس[1]

وليست تلك الأميرة إلا الراقصة سيلفيا فارسكو التى يريد الأمير إدوين أن يتزوج بها. ولكن أسرته وهى من الأسر العريقة الأصل تمانع فى أمر هذا الزواج وتعمل على انفصال الشابين، وعلى زواج الأمير بابنة عمه ستازى. ولكن حب الأمير لسيلفيا يحمله على التعهد لها بالزواج منها متى وجد إلى ذلك سبيلا. وما يكاد الأمير يفارق سيلفيا حتى تعلم بأمر خطبته لستازى فتهرب مع صديقها نيكو.

وفى الفصل الثانى نجد الأمير فى أسرته تلاحقه ستازى بحبها وهو ينفر منها ويبتعد عنها، ويدخل فجأة نيكو وسيلفيا التى يعتقد الجميع أنها من النبلاء. غير أن الأمير يتعرف بها ويتودد إليها ويطلب إليها أن تتزوج منه ما دامت أسرته تعتقد أنها نبيلة. ولكن هذا العرض يقع وقعا سيئا من نفس سيلفيا التى تعلن شخصيتها وتترك القصر غاضبة على الأمير.

وفى الفصل الثالث يتضح للأمير الأب أن امرأته ليست إلا راقصة كانت تعمل فى المراقص قبل أن يتزوج منها. فأمام هذه الحقيقة يضطر أن يأذن لابنه فى الزواج من سيلفيا.

وقد جاء إخراج الرواية مرضيا، فالمناظر جميلة أنيقة، والرقص لا يخلو من رشاقة وجمال، وخاصة استعراضات الأختين شاسينى فى الفصل الثانى. كما أن أداء الممثلين لأدوارهم لم يكن سيئا. قامت سوزى ريفى بدور ستازى فبدت فتاة بلهاء. ومثل ليون فيرلى دور الأمير العاشق وقد أحسن فى الأداء فقط لا فى الغناء. أما نادية دوتى، فقامت بدور سيلفيا فارسكو الراقصة، ولعل الجمهور لم يصفق إلا مجاملة لها، وخاصة بعد أن فاجأته بأغنية ثم بقصيدة من بول جيرالدى لا صلة لهما بالمسرحية مطلقا

---

(1) La Princesse Czardas.

مامزيل نيتوسه[1] تأليف هـ . ميلهاك و ا. ميلو

اختتمت الفرقة حفلاتها بملهاة « مامزيل نيتوش » من تأليف هـ . ميلهاك و ا. ميلو

ومامزيل نيتوش هى دنيز فلاقيني التلميذة فى أحد أديار فرنسا تتلقى فن الموسيقى على يد المسيو سلستان لاعب الأرغن . ولكن للمسيو سلستان اسم آخر هو فلوريدور وقع به على أوبريت من وضعه وتسمى به فى الأوساط المسرحية . ولا يعلم أحد من شأن صلة سلستان الوقور بالأوساط المسرحية سوى تلميذته تلك . وقد انكبت على دراسة أدوار المسرحية وألحانها حتى أتقنتها تماما . وفى ليلة أول عرض لتلك المسرحية تطلب رئيسة الدير إلى سلستان أن يعود بدينيز إلى منزل أسرتها فى باريس . ولكن سلستان يريد أن يشهد تمثيل المسرحية ، فتنزل دينيز فى أحد الفنادق تنتظره حتى يعود من المسرح .

وتجرى حوادث الفصل الثانى فى المسرح حيث تلحق دينيز بسلستان . وقد وصلت فى الوقت المناسب ، لأن الممثلة الأولى تشاجرت مع سلستان حينما علمت أنه جاء إلى المدينة مع فتاة جميلة وغادرت المسرح بعد الفصل الأول . ويقع المدير فى حيرة شديدة ، فالجمهور يطلب استئناف التمثيل ، ولا يوجد للممثلة الأولى بديل . ولكن ها هى ذى دينيز تتقن الغناء ، وقد أحاط بها جمع من شباب ضباط المدينة يستمعون إلى أغانيها ، فيطلب إليها أن تقوم بالدور الخالى ، فتقبل أمام رجاء الجميع وتنجح فى أدائها ، حتى إن أحد الضباط يقع فى شرك حبها ويولع بها ولعا لا مثيل له . وهذا الضابط نفسه كان يريد خطبة دنيز تلميذة الدير . فيقلع عن هذه الخطبة وهو لا يعلم أن تلك التلميذة التى كان يريد الزواج منها هى الممثلة نفسها التى يكلف بها كلفا شديدا .

وتقضى دنيز تلك الليلة مع عشيقها الجديد وجمع من أصدقائه وتعود فى الصباح المبكر إلى الدير . وهنا يحضر الضابط العشيق إلى الدير ليعلن خطيبته التى لم يرها قط أنه أقلع عن الزواج منها لأنه يبادل الممثلة حبا بحب . غير أن الحوادث تتيح له أن يتحقق من أن ممثلة البارحة ما هى إلا خطيبته الأولى ، وهكذا تنتهى المسرحية بزواجهما .

وأحسن فى أداء دور سلستان مسيو ليون فيرلى وقد أثبت لنا أنه يتقن فن الكوميديا . فقد أخرج لنا شخصية سلستان إخراجا هزليا طريفا أعجب به النظارة أيما إعجاب . ولكن لم تشاركه فى نجاحه نادية دوتى التى كانت تقوم بدور دنيز . فهى لم تفرق فى تمثيلها بين تلميذة الدير الخبيثة التى تدعى الطهر وبين الفتاة المستهترة اللعوب التى تصبحها حين تترك الدير وتذهب إلى المسرح . غير أن غناءها قد أنسانا خطأها فى الأداء .

وما كادت تنتهى فرقة الأوبريت من موسمها التمثيلى فى القاهرة حتى استأنفت التمثيل فرقة فرنسية أخرى تعتزم عرض خمس مسرحيات مرحة .

---

[1] H. Mielhac et A. Millaud. *Mam'zelle Nitouche.* (١)

جورج ومرجاريت لمارك جيلبير سوڤاچون وچان وول . مقتبسة عن مسرحية لجيرالد ساڤورى. (١)

ومسرحية « جورج ومرجاريت » تعرض علينا حياة أسرة انكليزية تحيا حياة هادئة متصلة الهدوء ، لا يعكر صفوها اى حادث غريب ، فالأيام تتلاحق متشابهة . الأب غارق فى مطالعة الجرائد وحل مسائل الكلمات المتقاطعة ، لا يبالى بما يجرى فى منزله من حوادث لفها واعتاد حدوثها . والأم لا هم لها إلا إعداد الطعام والاستعداد لاستقبال الأصدقاء ، ومضايقة أبنائها أو بناتها بملاحظات صائبة حينا وخاطئة احيانا . أما أبناؤهما فثلاثة : فتيان وفتاة . أولهم شاب وقور رغم حداثة سنه . والثانى يميل إلى التهكم المرح وعدم المبالاة بالقوانين العائلية التى تحاول الأم أن تطبقها فى غير طائل على أفراد الأسرة . والثالث فتاة تنعم بالحياة ما استطاعت إلى التنعم سبيلا . ويدوم هذا الهدوء العائلى حتى يعلن الابن الأكبر أنه يرغب فى الزواج من الخادم ، والفتاة حبها لصديق من أصدقاء أخيها الصغير . يزول هذا الهدوء وتصبح حياة الأم جحيما ؛ فزواج ابنها بالخادمة يسيئها أولا لأنه يحرمها خادمتها النشيطة ، ويسيئها أيضاً لأنها تخور بابنها رغم بلاهته ، وتريد أن تزوجه فتاة من طبقته . أما الأب فلا يعكر هذان الحادثان صفاء حياته لأن حل مسائل الكلمات المتقاطعة يشغل كل وقته ، ولا يترك له فرصة لحل مشكلات أسرته . ولكنه أخيرا يرضى أن يهتم بشئون ابنته حتى تصل إلى مرامها وهو الزواج من الشاب التى تحبه . أما الأم فتصر على عدم الموافقة على زواج ابنها وتصب على الخادم اللعنات . ويحدث أن يهيئ لها ابنها مقابلة مع عشيقته تخرج منها راضية كل الرضا على الزواج .

وقد تكون المسرحية صورة صادقة من حياة أسرة انجليزية ، إلا أنها تصلح أيضا أن تكون صورة مطابقة لحياة أسرة مصرية أو فرنسية . فالأسرة البرجوازية عامة تتصف بعقلية خاصة وتحيا حياة خاصة . وهذه العقلية وهذه الحياة لا يختلفان فى مظهرهما العام مهما اختلفت البيئة أو البلد التى تعيش فيها تلك الأسر . فكل منا كان يرى على المسرح حادثا أو حوادث تجرى كل يوم فى منزله وبين أفراد أسرته ، مما يثبت أن الكاتب قد صدق فى تصويره ولم يغال رغم الأسلوب التهكمى الذى اصطنعه فى كتابة المسرحية .

ولم تكن القصة جيدة فحسب بل جاء أداء الممثلين لشخصيات المسرحية جيداً أيضا . حتى إن المشاهد نسى أنه يشاهد تمثيلية تجرى حوادثها على مسرح وفى حجرة جدارها من الورق المقوى ، وشعر أنه يشاهد خلسة حياة واقعية لأسرة برجوازية . لقد نجح الممثلون فى خلق الجو الذى تحيا فيه هذه الأسرة بأدائهم المتقن . فمدام كريستيان ديلين فى دور الوالدة ، ومسيو جاستون روليه فى دور الوالد ، قد أثبتا أنهما فى فن الكوميديا بارعان . أما المسيو جى لوريكيه فأرى أنه جدير باشارة خاصة لتمثيله ؛ فقد ملأ المسرحية حياة ومرحا بادائه الطبيعى وتعبيراته التى تبعد كل البعد عن التصنع والمغالاة .

---

(١) Marc Gilbert Sauvajon et Jean Wool, *George et Margaret*, d'après la pièce de Gerald Savory.

القطار الى البندقية للويس ڤيرنوى[1]

« القطار إلى البندقية » هذا عنوان المسرحية الثانية التى قدمتها الفرقة . وهى إن لم تكن تضارع الأولى إتقانا فى الحوار فهى ملهاة مسلية متقنة الحبكة . تجرى حوادث الفصلين الأولين فى نيس حيث يقيم المسيو دباردون مع ابنته مدام كارولين أنسلو . أما زوجها فانها لم تره منذ أكثر من شهرين ، فهو ناشر من كبار رجال النشر فى باريس ، تضطره أعماله إلى أن يمكث فى العاصمة بعيداً عن زوجه . ولكن هناك اتيين دى بواروبير وهو شاب صغير السن مولع بالزوجة ، وهى تبادله هذه العاطفة وتريد الزواج منه ومغادرة أنسلو زوجها الأول . ويصل الزوج فجأة من باريس . وعبثا تحاول أن تفاتحه فى أمر غرامها ، إذ كانت الظروف لاتساعدها على ذلك ، فزوجها عاشق مولع بها يهيئ لها سعادة قادمة تغريها كل الاغراء . ولما لم تجد سبيلا إلى اطلاع زوجها على حبها تتفق مع اتيين الصغير على الهرب إلى البندقية فى قطار الليل .

نحن فى الفصل الثانى فى منزل إتيين عشيق مدام أنسلو . كل شئ معد للسفر الذى يأزف موعده . وفجأة نرى أنسلو يدخل الحجرة ويمكث مع اتيين يتحادثان عن ذكريات طفولتهما ، ثم ينتقلان بالحديث عن فن النحت الذى يتقنه العاشق الصغير . ولا ينصرف أنسلو إلا بعد موعد القطار . وتأتى مدام أنسلو غاضبة أشد الغضب لغدر عشيقها فتجده يائسا أشد اليأس . ولكن سرعان ما يصبح هذا الغضب رضا وهذا اليأس سرورا ، فقد اتفق الاثنان على أن يعيدا الكرة فى الصباح وبينما هما يضعان خطتهما يحضر أنسلو مرة أخرى وقد أعياه القلق على زوجته . فتهرب الزوجة من منزل عشيقها وتعود إلى منزل زوجها ، وتتحدث إليه بالتليفون لتطمئنه على مصيرها . ولكن أنسلو لا يترك العشيق الصغير إلا بعد أن يقنعه بالسفر معه فى اليوم التالى إلى باريس ليعرض التماثيل التى نحتها .

وتجرى حوادث الفصل الثالث فى باريس حيث يقوم إتيين بنحت تمثال نصفى لأنسلو . لقد مضى عليهما خمسة عشر يوما فى هذا العمل لم يكتب أحدهما إلى كارولين . وتدخل فجأة الزوجة وقد أغضبها غياب عشيقها وزوجها . وما تكاد تعلم أنهما يلتقيان كل يوم ويمضيان وقتهما معا حتى تغار من عشيقها وتوجه اللوم إلى أنسلو الذى أهملها كل الاهمال والزوج صامت لا يدافع عن نفسه حتى غادر إتيين المنزل . ثم يعرض على زوجته أن تسافر معه ومع اتيين إلى البندقية . ولكن الزوجة ترفض السفر وفى صحبتهما هذا الشاب الذى يحول بينها وبين زوجها . وهنا يبوح أنسلو بحيلته ، وهى أنه لم يهتم باتيين إلا ليحمل زوجه على أن تبغض هذا الشاب . ثم يعرض عليها السفر إلى البندقية فتقبل عن طيب خاطر .

ولم يحسن فى أداء دوره إلا مدام كريستيان ديلين التى مثلت شخصية كارولين.. والمسيو جاستون روليه الذى أخرج شخصية الأب فى أسلوب هزلى رفيع . والمسيو جى لوريكيه وقد قام بدور العشيق . أما المسيو جاك فرومان وكان يمثل دور أنسلو فقد أبدى جوداً فى تمثيله أفقده السبيل إلى النجاح .

---

(1) Louis Verneuil, *Le train pour Venise.*

سعادة خمس وعشرين سنة لمدام جرمين لوفران[١]

وهذه مسرحية أيضاً تصور حياة الأسرة البرجوازية فى فرنسا بتهكم وسخرية لا يخلوان من القسوة . فهذه والدة لها مبادئ أخلاقية شديدة لا تقبل أن يحيد عنها ابنها . فهى بمظهرها الخشن تنفر من حولها وتوحى بالاستقامة . وهذا والد كانت له مغامرة مع إحدى الغانيات قبل زواجه فأنجب منها طفلة خصص لها إيراداً لمدى حياتها ، واعتقد أنه بذلك تجنب عاقبة نزوته . ولكنه لم يكن ليعتقد فى يوم أن ابنه سيقع فى عشق الفتاة التى أنجبها من تلك الغانية ، فها هى ذى حياته تزداد تعقيدا وسعادته يهددها هذا الغرام بالانهيار . ولا بد من مخرج لهذا المأزق وخاصة أن الوالدة تحبذ زواج ابنها ممن عشق بعد أن عارضت بشدة فى أمر هذا الزواج . وفجأة تتطور الحوادث فى صالح الشابين المتحابين ، فان الوالد يشك فى أن تلك الفتاة ابنته . فيذهب للقاء أمها ويسألها عن والد الفتاة فتجيبه بما يزيل شكه فى أنه ذلك الوالد ثم تردف قائلة ولكن ابنك ليس هو ابنك . لقد خانته امرأته وها هى ذى خطابات منها لعشيقها تثبت ما تقول تلك الغانية . لقد خانت زوجها تلك المرأة البرجوازية المتحفظة ذات المبادئ الاخلاقية والاجتماعية القوية . ولكن ليس أمام الزوج إلا أن ينقذ سعادة دامت خمس وعشرين سنة بالصمت .

إن القصة فى نفسها لا تدعو إلى الضحك أو إلى الهزل ، ولكن المؤلف عالجها بأسلوب ساخر ، وقد نجح فى إبراز الناحية الهزلية من تلك الصورة المؤلمة لأسرة ريفية متحفظة غير أنه لم يكن دقيقا فى تصويره بل كان مغاليا أحيانا فى هذا التصوير .

وقد عهدت الفرقة فى هذه التمثيلية إلى ممثلين جدد لم نرهم قبل الآن إلا فى أدوار تافهة فى المسرحيات السابقة ، وقد أثبت هؤلاء أنهم بالفن المسرحى ملمون ، فقد أدهشتنا مدام فابين دارلاى بدقتها فى التعبير فى دور الوالدة ، كما أثبت لنا المسيو جوزيف لينار الذى مثل دور الموثق أنه ممثل هزلى قدير . ولا داعى إلى الكلام عن مسيو جاستون روليه والمسيو جى لوريكيه ومدام كريستيان ديلين فالجمهور يعرف تماما قيمتهم الفنية فى الملهاة وإتقانهم للأدوار التى تعهد إليهم . وقامت مدام ماريا ريجيس بدور الفتاة العاشقة ، فياليتها ما عشقت إذ ليس لها بالحب دراية ولا بالحزن أو بالسعادة إدراك .

رشدى كامل

---

[١] Germaine Lefrancq, *Vingt-cinq ans de bonheur.*

شهرية السينما

مغامرة سراتوجا (إخوان وارنر) [١]

وهو فيلم ، كما يدل اسمه على ذلك ، مليء بالحركة والمغامرات . تجرى حوادثه فى عهد إنشاء السكك الحديدية فى أمريكا . وقد قيل عنه إنه إنتاج ضخم اختارته شركة ورنر للاحتفال بمرور عشرين سنة على تأسيسها . وقد يكون هذا الفيلم ضخما بالقياس إلى طوله والمدة اللازمة لعرضه ؛ وقد يكون ضخما أيضا بالقياس إلى تمثيله . أما بالقياس إلى قيمته من حيث القصة والاخراج فيمكن أن يعد إنتاجا عاديا لم يرتفع إلى ذروة الفن ؛ فليس فى قصته شيء من الطرافة أو الابتكار لأنها كثيراً ما تذكرنا بقصة « ذهب مع الريح » فثمة شبه كبير بين المغامرتين كليو دولين وسكارلت أوهارا : فكلتاهما تبحث عن زوج ثرى وتسلك الطريق نفسها للعثور على هذا الزوج المنشود. غير أن الثانية منهما كانت ترمى إلى شيء سام من وراء هذا الزوج وهو شراء الأرض الزراعية التى امتلكتها أسرتها ثم فقدتها من جراء الحرب الأهلية . أما الاولى فكانت ترمى إلى الانتقام من الرجال ، لأن أباها عذب أمها ولم يطب العيش لها معه . فاختلاف الدوافع عند البطلتين فى القصتين لم يغير شيئاً من هاتين القصتين ولا من حوادثهما إلا قليلا .

فكليو دولين أو مغامرة سراتوجا فتاة ولدت من أم مولدة وأب أبيض . قضت طفولتها فى باريس ولم تعد إلى أمريكا إلا لتنتقم لأمها التى لم تستطع أن تتزوج من أبيها ، على حين غدر هذا الأب بمحبوبته وتزوج من امرأة أخرى ، وترك لها ولأطفالها ثروة طائلة . وتنجح كليو اولا فى حمل أسرة أبيها على بناء مقبرة لأمها ووضع اسم دولين إلى جانب اسمها ، ولكنها تقبل مبلغا من المال لتترك البلد ولتكف عن مضايقة تلك الأسرة . وتنزح كليو عن نيو أورليانس إلى سراتوجا لتلحق بعشيقها كلنت مارون الذى يعرف تماما أن عشيقته تبحث عن زوج ثرى . فيدفعها ، فى أحضان بارت ڤون ستيد ، وهو شاب موفور الثروة يملك أسهما فى شركة للسكك الحديدية . يولع بارت بكليو التى تلقب نفسها فى هذا البلد الغريب بالكونتس ، ولكن هذا اللقب لايغر بارت فهو يعلم تاريخ حياة كليو ويريد الزواج منها . غير أن الحظ يخونه : فكليو تشغف بكلنت مع فقره ، ولا تميل إلى بارت إلا لثروته ، وثروته مهددة لأن هناك قوماً يهاجمون سكته الحديديه لينزلوا من قيمة أسهمها . ويتدخل كلنت فى الأمر لأنه يملك بعض هذه الأسهم ، فيهاجم أعداء بارت وينقذ سكته الحديدية . ولكنه يعود من المعركة مصاباً باصابات ليست بخطيرة . وهنا ترى كليو أنه لن يطيب لها العيش إلا مع عشيقها القديم كلنت مارون . فكأن الحب قد تغلب على مطامع هذه المغامرة فجعلها تزدرى المال وتستسلم له نهائياً .

(١) Saratoga Trunk *(Warner Bros).*

كان تمثيل إنجريد برجمان لدور كليو دولين المغامرة تمثيلا رائعاً جديراً بالتقدير. وإن لم يكن من الأدوار التى تلائمها فقد جاء أداؤها لهذا الدور متنوعا مختلفا. فلم تقم به على وتيرة واحدة. وبهذا دلت على تفهم عميق للشخصية المزدوجة التى كانت تمثلها: فهى أولا مغامرة، فكانت لعوبا ترسل ضحكة لها رنين يجذب الرجال، تمشى فتتهادى فى مشيتها حتى تسترعى الأنظار. وهى ثانياً أمام بارت تمثل دور الكونتس الفرنسية المتأنقة ذات العادات النبيلة، فحديثها وضحكاتها وحركاتها ومشيتها تختلف عما كان لها من قبل حتى إنها تصل إلى اقناع من حولها بأنها من نبيلات فرنسا. ومن مميزات انجريد برجمان فى تمثيلها التجاؤها إلى الاعتدال فى التعبير حتى فى المواقف المثيرة، مما يدل على أنها ذات مواهب عالية رفيعة.

أما جارى كوبر فقد وجد فى دور كلنت الشخصية التى اعتاد أن يمثلها فى أول عهده بالتمثيل، وهى شخصية المغامر المستهتر وقد أتقنها بلا شك ونجح فى إظهار مميزاتها: فنظراته تدل على الخبث والدهاء، وحركاته على الخسة.

ومجمل الكلام عن فيلم «مغامر فى سراتوجا» أنه إنتاج ناجح إخراجا وتمثيلا، ولو أن قصته عادية ينقصها الابتكار والطرافة.

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

هز القحوف

هذا كتاب طريف ألف في العصر العثماني لغرض التقليس والتندير على أهل ريف مصر وبيان ما هم عليه من فقر وبؤس وجهل ، ألفه شخص يسمى يوسف الشربيني ، وكان — على ما يظهر من كتابه — عالما واعظا ، وقد نظر من حوله ، فرأى السواد الذي كان يغطي أودية مصر في العصر العثماني ، ورأى معه تعاسة أهل الريف ، فنظم قصيدة سماها قصيدة أبي شادوف يصور فيها الشقاء المحيط بهم . والشادوف آلة معروفة في مصر يسقي بها الزرع ، وقد يسمى أهل الريف شخصاً باسم أبي شادوف لغرض الضحك عليه والسخرية منه ، ومن ثم سمى يوسف الشربيني قصيدته باسم قصيدة أبي شادوف . وهي قصيدة من بحر الطويل . ولكن لا تظن أنها ألفت باللغة العربية فهي عامية خالصة ، وقد وصف فيها حياة رجل الريف في عصره بجميع صورها وألوانها ، من أكله ، إلى عمله في حقله ، إلى صلته بالحكومة في عهده ، وهو يسوق ذلك في فنون طريفة من الهزل والسخرية والفكاهة .

ولم يكتف يوسف الشربيني في وصف حال رجل الريف بهذه القصيدة ، بل ذهب يشرحها على طريقة معاصريه في شرح القصائد الجدية ، وهو شرح طويل اختار له هذا الاسم الغريب « هز القحوف » . وهو يتقدم هذا الشرح بقوله : « إن بمامر على من نظم شعر الأرياف ، الموصوف بكثافة اللفظ بلا خلاف ، قصيد أبي شادوف ، فوجدته قصيداً ياله من قصيد ، كأنه عمل من حديد ، أو رص من قحوف الجريد . فالتمس مني من لا تسعني مخالفته ، ولا يمكنني إلا طاعته ، أن أضع عليه شرحاً يحل ألفاظه السخيمة ، ويبين معانيه الذميمة ، وأن أتحفه بشرح لغات الأرياف ، وذكر فقهائهم الجهال وفقرائهم الأجلاف . فياله من شرح لو وضع على الجبل لتدكدك . ولو نقش على عمود الصواري لتحرك . وهو شرح عديم النظير في الكثافة ، لكونه في معنى أوصاف الريافة ؛ وليس له شبيه في الثقالة ، لكونه في وصف ذوي الرذالة . واعلم أن كل شرح لا بد له من اسم يناسبه ، وعلم عليه يقاربه ، وقد سميت هذا الشرح « هز القحوف بشرح قصيد أبي شادوف » . وأطلب من القريحة الفاسدة ، والفكرة الكاسدة ، الاعانة على كلام أعرفه من بنات الأفكار يحاكي كلام ابن سودون ؛ فقد يلتذ السامع بكلام فيه الضحك والخلاعة ، ولا يميل إلى قول فيه البلاغة والبراعة ؛ لأن النفوس الآن مشوقة إلى شيء يسليها من الهموم ، ويزيل عنها وارد الغموم » .

وأكبر الظن أن هذه الهموم والغموم التي يشير إليها الشربيني ، إنما هي ما كان يصبه العثمانيون وأحلافهم من المماليك على رءوس المصريين من أسواط العذاب . ودائماً نجد مصر حينما يجثم على أنفاسها كابوس دولة غاشمة تنفس عن همها وغمها بالفكاهة الساخرة على نمط ما صنع ابن مماتي بقراقوش في كتابه «الفاشوش» وعلى نمط ما يصنع الآن يوسف الشربيني . وهو لا يتخذ من شخصية بعض

الحكام العثمانيين أو المماليك ما يريد من هزل وسخرية ؛ فقد كان الحكم العثماني قاسيا ، وكان الناس لا يستطيعون أن يعرضوا فيه لحاكم بالتشهير فضلا عن الفكاهة والتندير . ومن أجل ذلك ارتد الشربيني إلى الشعب يصور ما هو عليه من فقر وجهل ، في أسلوب لاذع من السخرية والتهكم ، وقد صور أثناء ذلك ظلم الكشاف والملتزمين ومن يجمعون الأموال والضرائب ، كما صور نظام السخرة أو ما كانوا يسمونه « العونة » وكيف كان يسخر الملتزمون أهل الريف في «الوسايا» بدون أجر ولا ما يشبه الأجر . ولو أن الشربيني أفاض في تصوير هذه الجوانب لكان كتابه طرفة تاريخية حقا ، ومع ذلك فقد ألم بها إلماما وألمع إليها إلماعا ، وإن كان لم يتسع فيها فانه اتسع في وصف النواحي الاجتماعية للناس في عصره . وكتابه من أجل ذلك يعتبر وثيقة هامة في تاريخ هذا العهد وتاريخ مصر فيه .

وقد قسم الشربيني شرحه «هز القحوف» إلى جزأين كبيرين : جزء خصصه بالتندر على أهل الريف وتصوير ما هم فيه من جهل وفقر ، وجزء خصصه لشرح قصيدة أبي شادوف وبيان ما خفي من ألفاظها وغمض من معانيها . وإذا رجعنا نستعرض الجزء الأول وجدناه يقول في مفتتحه إن أهل الريف « ليس لهم انضباط . وأحوالهم شياط وعياط ، وورده عند الأسحار ، التفكر في الغنم والأبقار ، وتسبيحهم في الظلام ، هات النبوت والحزام ، وحط العلف ، وهات الكلف ، قال الشاعر :

لا تكن الأرياف إن رمت العلا ... إن المذلة في القرى ميراث
تسبيحهم هات العلف ، حط الكلف ... علق لثورك جاءك المحراث

الحق عندهم مضاع ، والباطل عندهم مذاع

ويترك الشربيني ذلك إلى بيان أسماء أهل الريف وكناهم وألقابهم حتى يدل على قبح ذوقهم ، وهو يطيل في ذلك إطالة كبيرة . ثم يصف عرسا من أعراسهم ليتندر على أفعالهم ، وليضع تحت عين القارئ جانبا من معيشتهم ، وقد تظرف فروى عن بعض شعرائهم :

يا عروسه يا ام غالى ... إنجلي ولا تبالى
إنجلي يا وجه بومه ... زاعقه وسط الليالى
وجهك بالنقش يشبه ... وجه ضبعه في الرمال

وينتقل الشربيني بعد ذلك إلى بيان ما كان عليه أهل الريف من غفلة وبله وفقر . فمن ذلك أن شخصاً منهم رأى في مصر سمك (البساريا) فظنه الكنافة التي يتحدث الناس عنها . ويرميهم الشربيني دائماً بقلة الذوق ؛ فمن ذلك أن شخصاً منهم لقي صديقاً له وقد اشترى بردة من الصوف ، فقال له : « دي بردتك . فقال له : عبدك وجاريتك ، فقال له : بكم اشتريتها ، فقال له : بداهية كبيرة ، فقال له : تلفك وتلف (وليداتك) في الشتاء . »

ومن ذلك أن رجلا منهم اشتكى شخصاً إلى القاضي قائلا إنه نزل حقله بدون إذنه وأخذ منه برسيما لدابته . فأحضر القاضي المدعى عليه وسأله فاعترف إلا أنه اتهم المدعي بأنه ضربه ضربا مبرحا . فسأل القاضي للمدعي كيف تضربه ، فرد عليه قائلا : « أنا بيك يا قاضي

نور ، وأنت إذا نزلت غيطى ، يا هل ترى أضربك ، أكسر قربك ، ولا أخليك تطلع سالم ! » . ويقص الشربينى بعد ذلك نوادر تدل على الجهل الذى كان سائداً حينذاك ؟ فمن ذلك ان رجلا منهم سأل آخر : « إيش هجاك بربق ؟ فقال له : به ، ره ، به ، قاف ، واو ، فقال له : إيش عرفك أن فيها واو ؟ فقال له : دلتنى عليها النقطة التى فوق الواو . فقال له : إن عشت تبقى فصيح لأخوالك . » وصلى رجل منهم ، فلما قرأ الفاتحة وبلغ قوله تعالى : « إهدنا الصراط المستقيم » أبدل النون ميما ، وقال : إهدموا الصراط المستقيم . ومن الطرف التى يقصها الشربينى فى هذا الباب أن امرأة شكت ابنها للمعلم الذى يعلمه وقالت إنه يؤذينى أثناء الصلاة . فلما سأله لماذا تفعل ذلك ؟ قال : لأن صلاتها « لافيش ولاعليش » سلها كيف تصلى . فطلب منها المعلم أن تقرأ الفاتحة ، فقالت توأ : « بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . إذا جاك الحاج نصر الدين افتح له الباب ولو كان طواب » فقال لها المعلم : قاتلك الله ماهذا قرآن ماعدا البسملة والحمدلة وزجرها وطردها . ويترك الشربينى عوام أهل الريف إلى فقهائهم ، فيتسع فى التندير على جهلهم اتساعا شديداً . فمن ذلك أن شخصا سأل أحدهم عن تفسير قوله تعالى : « يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى » ما معنى أقلعى فقال هذا الجاهل : أى سيرى مثل المراكب المقلعة . ومن ذلك أن فقيها منهم ذهب إلى أحد العلماء فى مصر وطلب منه أن يقرأ عليه أجرومية النحو على مذهب الشافعى ، وهو مذهب معروف فى الفقه الاسلامى . وسعى رجل من الأعيان عند قاضى القضاة بمصر كى يعين فقيها منهم ببعض المحاكم ، فلما حضر عنده سأله هل تحفظ القرآن قال : نعم ، ايد الله مولانا القاضى ، وعندى مصحف مليح بخط المؤلف . فتحقق القاضى جهله وطرده . ويروى الشربينى أن فقيها منهم دخل على الشيخ الحميدى شيخ القرائين فى عصره فقال له : هل عندك مختصر القرآن ؟ فقال له : اجلس . ثم تصادف أن شخصا دخل عنده وطلب منه مختصر مسلم المعروف فى الحديث ، فلما قال له أريد مختصر مسلم هل هو عندك ؟ قال له : نعم خذ هذا ، واشار إلى فقيه الريف . ولما سئل لماذا يريد هذا المختصر قال لأن الأولاد يحفظونه بسرعة عن القرآن فهو طويل ، وحينئذ ضحك عليه الحاضرون .

ويعرض الشربينى بعد ذلك طرفا من خطبهم يوم الجمعة عرضا لا يلم به القارئ حتى يغرق فى الضحك . واستمع إلى هذه الخطبة :

« اعلموا يا أهل بلدنا أن عندكم قمح كتير وتبن وشعير ، وأنتم فى خير من رب العالمين فأنتم تفيقوا لزرع الوسية ، وإلا صبحكم الكاشف بداهية وبلية ، وغداً تسرحوا للعونة والسخر ، وفيقوا الغنم والبقر ، والختوا أياركم ، وفيقوا لدوركم وجداركم ، واكرموا الخطار ، بالعدس والبيسار ، تنجوا من عذاب النار . على إيش ياحبايب تهجرونا بلا سبب ، الله ، الله ، قولوا لا إله إلا الله ، من وحد الله ماخيبه الله ، آمين ، والحمد لله رب العالمين » .

والخطبة عامية خالصة ، وفيها ما يدل على بؤس القوم وأن طعامهم « العدس والبيسار » كما أن فيها مايدل على بطش الكاشف ، وما عرف به هذا العصر من « العونة » أو السخرة . ونحن لا نصل إلى قوله : على إيش ياحبايب ، حتى نفزع إلى الضحك على هذا الخلط فى خطبة يوم الجمعة التى أريد بها إلى الوعظ الدينى فاذا هى تخرج إلى هذا الهزل . ولعل أطرف ما رواه الشربينى فى هذا الصدد أن عالماً دخل إحدى قرى الريف ، فتوجه إلى المسجد ليصلى صلاة الجمعة ، وهناك رأى أهل القرية جميعا داخلين فى المسجد « وكل واحد منهم معه

قفة من خوص وفيها مغرفة وخشبة وسكين من حديد وفأر ميت معلق فى عنقه » فتعجب من فعلهم ومكث ينظر . وإذا خطيبهم جاء فى نفس صورتهم ، فتقدم منه وسأله عن هذه الحال ، فقال له : أنا الذى أمرت بها . فقال له : هذا الأمر باطل والصلاة باطلة ، وما الذى دفعك إلى ذلك ؟ قال : حديث قرأته فى كتاب عندى يسمى كتاب التيه . ولفظه حدثنى بحقى بن تحتى عن شعبان الثورى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لاتصح جمعة أحدكم إلا بقفةومغرفة وخشبة وسكينة وفار . فطلب منه الكتاب وإذا هو كتاب التنبيه صحفه بالتيه ، وإذا الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا تصح جمعة أحدكم إلا بعفة . فصحفها بقفة ، وسكينة صحفها بسكينة ، وخشية صحفها بخشبة . ومعرفة صحفها بمغرفة ، ووقار صحفها بفار . وأما سند الحديث فهو حدثنى يحيى بن يحيى عن سفيان الثورى وقد صحفه على النحو السابق مما يدل على جهله وسوء فهمه .

ولعل القارئ قد لاحظ أن أساس هذه الفكاهات هو المفارقة فى المنطق ، فان الحقائق تنقلب صورها أمامنا ، وتبدو فى أشكال معكوسة . وقد كان ابن سودون على ما مر بنا فى عددين سابقين يقيم فكاهته على هذا الأصل . ويظهر أن الشربينى كان يتأثر به فى هذا الجانب تأثرا واسعا ، وقد ذكره فى مقدمة شرحه ، وأشاد به غير مرة فى كلامه ، وقد رآه يكتب خطابا على لسان أحد أبناء الصعيد إلى أبويه فى القاهرة ، وقد أخرجه فى صورة مضحكة ، فنقله عنه ، وأضاف إليه مكتوبا أرسله بعض فقهاء الريف سنة سبع وأربعين وألف كما يقول وهو يجرى على هذا النمط :

« السلام من النقى أبو على اللى اسمه محمد ، على حضرة صاحبنا اللى يطالع فى القرآن زى ما يطلع الزرع فى الغيطان ، ويتكلم بالفهامة ، ويا ما له علينا شهامة ، اللى يبيع الكتب المنظومة من الكلام زى قصة الجارية تودد ، والورد فى الأكمام ، حاوى الكتابة فى السطور ومن يعرف كتاب الفخ والعصفور . وانا فى شوق واشتياق لا يحمله جمل ولا ناقة ولا حمار ولا حمارين ولا بغل ولا بغلين ولا زرافة . وأنا كنت أريد أجيك وحياة راسك ماعوقنى إلا سر موجتى مقطعة . وأنا أقول لك : شوف لى كتاب كنت شفته من زمان ، وسمعت به ، آه عليه ، ويا ما قالوا لى عليه الناس ، وهو قصة مدينة النحاس ، وما جرى فيها من العجايب والغرايب . وأنا امبارح كنت رايح أشبع لك كلام افتكرته وعاود نسيته ، الله يسامحك ويسامحنى ، الله ، الله ، لا غالب إلا الله ، والسلام عليكم وعلى من كانوا جيرانك على اليمين والشمال . وكتب هذا الكتاب أبو على واسمه محمد وكتب عنوانه : توصل دى الورقة مع أبو عمارة اللى يبيع فى بلدنا الفول الأخضر والمش والزيت الحار يوصلها لبولاق وواحد يبقى يوصلها لسوق الكتب اللى يقولوا فيه حراج حراج . »

وفى هذا الكتاب غفلة وتبله واضح ، وفيه أيضا هذا الجهل الذى يجعلنا نضحك لأنه يخالف مألوفنا فى العبارة والتفكير والمعرفة . وما يزال الشربينى يعرض علينا صورا مضحكة عن أهل الريف ومازجا لها ببعض النوادر التديعة التى قصها الرواة عن أبى نواس أو عن غيره . وإنه ليقف عند شخص ماجن حكم الاسكندرية ، وكان يسمى مرجان الحبشى ، وقد نسج نظما عارض همزية الأبوصيرى ، وزاد تخميسه ، كما نسج نظما آخر عارض به خمرية لابن الفارض ، وكلا النظمين فى غاية الركاكة ، ولكنهما بنيا على الهزل والخلاعة .

ويقص الشربينى بعد ذلك عن عالم يسمى الشيخ محمد السلسيلى أن طبعه كان يميل للاثات حتى إنه كان لا يأكل إلا من الزبدية ، ولا يشرب إلا من القلة ، ولا يركب من الدواب

إلا الأنثى ، ولا يقبل المذكر قط . ويستمر الشربيني على هذا المنوال يقص عن عصره ، حتى إذا وصل إلى آخر هذا الجزء الأول من كتابه نظم أرجوزة طويلة تتضمن أحوال أهل الريف وأوصافهم .

ويخرج الشربيني من هذا الجزء الذي اعتبره كالمقدمة لقصيدته إلى الجزء الثاني الذي عنى فيه بشرح القصيدة نفسها . ونراه يقف أولا عند نسب الناظم وهو أبو شادوف فيذكر الآراء المختلفة التي قيلت في هـذا النسب على نحو مايصنع شراح القصائد الجدية ، ثم يتحدث عن قريته واختلاف الرواة في اسمها ، ويستدل لكل رأى بشعر يؤيده ، وأخيرا يوفق بين هذه الآراء المتضاربة ، ثم يتركها إلى الحديث عن أسرته وخاصة أباه الذي كان يملك — كما يقول الشارح — حمارا أعرج وعنزتين وحصة في تور الساقية ونصف بقرة وعشر فرخات وديكا وأربع كيلات نخال من شعير . وما زال يتكلم عن أبي شادوف وعن والده وحياته ووفاته ، حتى إذا تم له كل مايريد عن التعريف بالشاعر وأسرته انتقل إلى الكلام عن القصيدة نفسها ، وإنه ليقف عند كل بيت من أبياتها فيشرحه شرحا مفصلا ، وهو يعتمد في هذا الشرح على مرجع لغوى دقيق هو — كما يقول مرارا — القاموس الأزرق والناموس الأبلق :

والقصيدة نفسها ليست خفيفة الروح ، وإنما الخفيف الروح حقا شرحه لها ، وما ساقه أثناء هذا الشرح من تقاليد أهل الريف وعاداتهم في مآكلهم ومشاربهم ، وسنتهم في مجتمعاتهم ومجالسهم وكل مايتصل بهم . وربما كان أطرف ما جاء في هذا الجزء الثاني من كتابة خطبتين صاغهما على نسق خطبتي الجمعة ، وقد بناهما على ذكر المأكولات والدعوة لأصنافها وألوانها الممتازة ، وهو يستهل أولاهما على هذا النمط :

« الحمد لله مستحق الحمد على التحقيق ، الذى وفق بين الفرج والضيق ، وأمر بالحج إلى بيته العتيق ، وجعل السمن البقرى للعسل النحل رفيق . أحمده حمد من عنده من الجوع دسيسة ، وأغاثه الله بقصعة من البسيسة ، بالفطير الرقيق . فملأ منها بطنه ، وأحسن بالله ظنه ، ونام على راحة من الله وتوفيق . وأشكره شكر عبد تقلع عن الحوامض والمش العتيق ، وأشهد ان سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله الناطق بالصدق والموصوف بالحق والتحقيق ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أهل الكشف والتحقيق وسلم تسليما كثيراً . أيها الناس ! مالى أراكم عن الزردة بالعسل النحل غافلون ، وعن الأرز المفلفل باللحم الضانى تاركون ، وعن البقلاوة في الصوانى معرضون ، وعن الاوز السمين والدجاج المحمر لاهون ، فما هذا يا إخوانى إلا حال المفلسون ، وأفعال الفقراء المقلون . فجدوا رحمكم الله في تحصيل الدراهم لتغتنموا المآكل النفيسة والمطاعم اللذيذة ... واغتنموا رحمكم الله تعالى هذه الموعظة ، ودعوا أكل المنلظة ، كالعدس والبيسار ، وللدمس والفول الحار . . . وعليكم بالأطعمة الفاخرة كاللحم الضانى ، فانه سيد طعام الدنيا والآخرة ، وعليكم بالشراب البارد ، ففيه حديث وارد » ومايزال في هذا اللغو المضحك حتى يختم الخطبة الأولى ويتركها إلى الخطبة الثانية فيقول :

« الحمد لله مزيل الحزن ، ومزين الأرز باللبن ، وأشهد أن اللحم الضانى سيد الأطعمة ومصلح للبدن . واعلموا أن القشطة لا تترك ، وأن للمهلبية أحسن وأبرك ، فتهيأوا لأكلكم وشربكم ، واعلموا أنكم غداً بين يدى الله موقوفون ، وبأعمالكم محاسبون ، وعلى رب العزة تعرضون ، وسيعلم الذين جاعوا أى منقلب ينقلبون . اللهم وارض عن الأربعة الأعيان

ـسين والزيتون والخوخ والرمان ، وارض اللهم عن الستة الباقية من العشرة ، الأطعمة المفتخرة ، الماوردية والمهلبية ، والشعرية بالزغاليل المربية ، والأرز المفلفل باللحم الضانى المحشى المحمر ، والكنافة المتبلة بالسمن والعسل النحل واللوز والسكر ، والقطايف الغارقة فى السمن والعسل ، والقرع المحشى باللحم والبصل ، والبقلاوة الموصوفة ، وخرفان القممة المعلوفة ، واليخنى السمين ، والقرمزية متعنا الله وإياكم بهم أجمعين. اللهم وأدم النصر والتأييد والثبات ، واجمع الشمل بعد الشتات ببقاء السلطان السكر النبات ، ابن القتانى ، من أصله من القصب الملوانى. اللهم وأيده بأرماح القصب ، وبسبايط الرطب ، وبعناقيد العنب ، واجمعنا عليه من اول النهار وفى وسطه وآخره ، وانصره وانصر عساكره . اللهم وأهلك الثلاثة الفجار ، العدس والبسلة والبيسار . عباد الله من أراد خلع القبول أن تفاض عليه ، فليأكل اللوز بالسكر بين والديه ، وتفكهوا قبل الطعام ، واقتدوا بسنة خير الأنام . ولا تتضاربوا ولا تتخابطوا وكونوا عباد الله إخوانا . »

وأظن القارئ يغرق الآن فى الضحك ، فقد تناول الشربينى هذا الموضوع الجاد الحازم موضوع خطبة الجمعة وما يكون فيها من وعظ وإرشاد ونهى بهذه الطريقة الهزلية . وإن أكثر ما يضحكنا منها أنه استعان فى الخطبتين بمصطلحات الخطباء يوم الجمعة ، فاستخدمها ، وقد تعمد ألا يترك صيغة من الصيغ التى تعود الخطباء أن يذكروها فى هذه المناسبة دون أن يحشدها فى خطبتيه وخاصة الخطبة الثانية ، إذ يقول فيها مثلا : « وسيعلم الذين جاعوا أى منقلب ينقلبون » . أو يقول : « اللهم وارض عن الأربعة الأعيان » أو يقول : « وارض اللهم عن الستة الباقية من العشرة » أو يقول : « اللهم وأدم النصر والتأييد والثبات » أو يقول : « عباد الله » ومامن ريب فى أن هذا كله هزل ، ولكنه كان — ولا يزال — هزلا مضحكا لما يبدو فيه من مفارقة للمنطق والمألوف والعادة . والحق أن الشربينى كان نادرة زمانه فى التمسخر والخلاعة ، والتدليس والفكاهة .

شوقى ضيف

من وراء البحار

الأدب فى إيطاليا

ما حال الأدب فى إيطاليا الآن ؟ لقد أجابت مجلة «هورايزن» (عدد نوفبر) على هذا السؤال فى مقالين وافيين : أحدهما لكاتب إنجليزى اسمه برنارد وول عاد من إيطاليا منذ شهور . وفى رأيه أنه قد يمكن أن يقال إن المؤلفين فى إيطاليا لم ينزل بهم من الضرر مثل ما نزل بأمثالهم فى إنجلترا أثناء الحرب العالمية الثانية . فاذا كانت الفاشية قد تدخلت فى الأدب فى السنوات الأخيرة من حياتها ، لاسيما فى سنوات تعاونها تعاوناً وثيقاً مع ألمانيا ، فان الايطاليين فى الحقيقة لم يبذلوا عند اشتراكهم فى الحرب مجهوداً يشبه الحرب الاجماعية . فالتجنيد الحربى عندهم لم ينفذ تنفيذاً دقيقاً ، ولم يجند الناس للأعمال المدنية . وبعد أن عزل موسولينى ثم أعيد واحتل الألمان إيطاليا صارت الأمور إلى حال أسوأ ، وصار تسعة أعشار المؤلفين يكرهون الفاشية ويتمنون وصول الحلفاء . ودى التجنيد للعمل وتدخل الجستابو إلى أن عمد الكتاب إلى الاختفاء . وكان يتبع وصول الحلفاء إلى مدينة بعد أخرى ظهور النشاط الأدبى والسياسى ، إذ صار من المستطاع نشر آراء كانت مختزنة منذ عشرين سنة إلى عالم الوجود . ومن بين ما كان يعترض الأدباء والمؤلفين الصعوبة الاقتصادية ؛ فان الجمهور القارىء محدود دائماً . ومن الصعب جداً على الأديب أن يعيش بقلمه إلا إذا ترجمت مؤلفاته إلى لغة أخرى . وهو ينهك قواه فى الصحافة ، ولكن هذه الصعوبة مألوفة لدى الايطاليين . ولعل أسوأ صعوبة تقابلهم هى عزلتهم عن سائر العالم ، وصعوبة الحصول على الكتب الأجنبية والصحف الأجنبية ، ومعرفة ما يقال فى الخارج .

ومما لا ريب فيه أن نهاية الفاشية هى نقطة تحول فى حياة إيطاليا وليس من اليسير التكهن بما ينتظر أن تتحول إليه الأمور فى السنوات القليلة المقبلة ، إذ العوامل فى ذلك متشعبة .

ولعل أبرز شخصية بين الأدباء الفاشيين كان جبرييل دانتزيو مخترع الأسلوب الفاشى والعامل على نشره ، وقد توفى فى منتصف العشرة الثالثة من القرن العشرين ، ولكنه كان قد فقد نفوذه على الجيل الجديد قبل ذلك بمدة طويلة . وهو ينتمى فى الكثير من صفاته إلى الأدباء الذين عرفوا بأدباء الانحطاط فى انجلترا فى العشر السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، لاهتمامه بالعبارة أكثر من المعانى وبالنزعة الجنسية المريضة . ورواياته بعباراتها الخطابية وأبطالها الذين لا حياة فيهم لا تقرأ اليوم وإن أعجب بعض الناقدين الايطاليين ومنهم اميليو تشكى بقصائده النثرية مثل « ليدا سنزا سنيو » و « نوترنو » وهما بلا ذلك أصفى وأخلص من رواياته . اما شعره ففيه الجيد والردىء غير ان مجموعة شعره « الكيونى » ستظل

على الغالب أثراً من الآثار البارزة للأدب الايطالى فى الخمسين سنة الماضية .

ومن كتاب الفاشية جيوفانى بابينى الذى اختفى الآن من الحياة العامة وفقد تأثيره . ولا ريب فى أن خير مؤلفاته هو كتاب «الرجل المنتهى» *Uomo Finito* الذى سبق اعتناقه الكاثوليكية . أما كتاباه اللذان ألفهما بعد ذلك عن حياة المسيح والقديس أوغسطان ففيهما من روح الأنانية ما يثير القلق فى نفوس القراء المتمسكين بالدين . ولله وفق فى كتابه عن دانتى *Dante vivo* الذى قد يعاب باعتباره دراسة ، ولكنه فى المسائل الجدلية استطاع أن يصف أخلاق مواطنه من أهل فلورنسة ، إذ وجد فيه شيئاً من أخلاقه .

وهنالك أردنجو سوفتشى وهو أيضاً من مقاطعة توسكانيا ، وقد تحول أخيراً إلى الاشادة بالنظام الرومانى والتغنى بالأزمنة القديمة كى يقاوم تأثير موسكو . وهو يكاد يدانى نيتشه فى صوغ العبارات القصيرة التى تعبر عن آرائه .

ومن المعاصرين الذين ورثوا الكثير من دانتزيو كورزيو ملابرتى وقد سجنه الفاشيون بعض الزمن ثم عاد إلى مسالمتهم ، وساح فى أوربا أثناء الحرب مراسلا للصحف الفاشية . ونشر بعد تحرير روما كتابا يعتبر من أكثر الكتب الحديثة انتشاراً ، هو كتاب « كابوت » وهو كتاب خفيف الظل لايمل قارئه . وفيه وصف لسياحاته فى بلاد السويد ومعاشرته لشيانو وأصدقائه ، ووصف للسهول الروسية والقرى تحت احتلال المحور . ومن مزايا هذا الكتاب رغبة المؤلف فى التمتع بالحياة ، غير أن القارئ يشعر بأنه تنقصه المبادئ ، وأنه ينظر إلى السياسة على أنها وسيلة للظهور ، وهو فى هذا يتأثر دانتزيو .

على أنه ظهر مؤلف آخر نافس كتاب ملابرتى فى انتشاره ، ذلك هو كتاب «روما سنة ٤٣» لمؤلفه باولو مونللى ، وهو كتاب ذو قيمة تاريخية وجدية حقيقية ، وهو صورة مفصلة لمدينة روما فى حكم الارهاب الألمانى .

وأشد خصوم دانتزيو ومؤلفاته هو بندتو كروتشى ، وهو أقوى شخصية مثقفة فى إيطاليا وإن كان قد تعرض لنقد جيوفانى جنتلى الذى يرى تناقضاً فى فلسفته . ويعتبر جنتيلى من كبار المفكرين . على أن كروتشى لم يجد بعد نداً له وإن وجد من يدانيه فى نقده الأدبى وهو مواطنه دى سنكتس De Sanctis من أهل نابولى .

ويظن الأجانب من الأمريكيين والانجليز عند ذكر الكتاب الناشئين أن خيرهم هو اجنازيو سيلونى مؤلف «فونتمارا» و«الخبز والنبيذ» ولكن الناقدين الايطاليين لايعدونه من الكتاب الممتازين ويعيبون عليه أسلوبه ، ويرون صوره عن بلاد ابروزى خاطئة . ولعل تفسير ذلك أنه عاش طويلا فى الخارج . ولعل الاختلاف فيه بين الايطاليين والأجانب يرجع إلى أنه من رجال الحياة أكثر منه من رجال الفكر وأنه أقرب إلى الأنبياء منه إلى الفلاسفة ، وأنه إلى الحاسة الدينية والأخلاقية أكثر منه ميلا إلى العقليين والمتشككين . وهذا لايلائم نزعة الأدباء الايطاليين الآن .

ومن رجال الأدب الناشئين فى إيطاليا الذين يقدرهم الناقدون البرتو مورافيا وهو لايزال فى الثامنة والثلاثين من عمره ، وقد بدأ التأليف مبكراً حين أخرج كتابه « الذين لايبالون » فلقى نجاحا سريعاً لما فيه من روح تشاؤم فهو ينظر بعينيه إلى عالم متعب سقيم لا خير فيه . ولقد نحا مورافيا فى بعض مؤلفاته نحو كفكا ، ولكن كفكا لايلائم العقل الايطالى . ولعل خير مؤلفاته

بعد روايته الأولى هى رواية « المطامع الخاطئة » التى ألفها سنة ١٩٣٥ ثم قصته الأخيرة « اجوستينو » .

ولقد كتب أخيراً كتاباً سماه « الأمل » وفيه قارن الشيوعية بالمسيحية فى القرنين الثالث والرابع ، فالجماهير الآن كما كانت وقتئذ عديمة الأمل ، وقد تجد شيئاً من الأمل الذى يجعل للحياة قيمة فى الشيوعية . كما وجدها الجماهير فى المسيحية يومئذ . ولا يعتنق موراڤيا مذهب الشيوعية ، وإنما هو على الأكثر يرى أن الحضارة الأوربية الآن فى مركز الحضارة الرومانية الوثنية يومئذ حين كانت تنظر إلى انتشار الثورة المسيحية فى ذعر . وقد يقال رداً على ذلك إن الشيوعية تحمل جميع علامات أمراض الحضارة القائمة ولا تفترق عنها افتراقا يبعث على الأمل . على أن هذا الكتاب يدل دلالة صريحة على أن العالم الايطالى الذى يصفه موراڤيا لا يتفق بحال مع وصف سيلونى له ، وأن موراڤيا أقرب إلى الأديب الانجليزى ألدس هكسلى فى كتاب « عالم جديد جرئ » وفيه شئ من الكاتب بترونيو الايطالى القديم مؤلف كتاب «ساتيريكون» . ولا ريب فى أن مثل هذا الكاتب القديم لا يزال يؤثر فى الأدب الايطالى . ذلك لأن بذور القديم لا تزال باقيـة فى إيطاليـا . ولا يستطيع الذى يعرف تلك البلاد أن ينكر مظاهر التراث للماضى العظيم البارزة بين أنقاض الحضارة القديمة التى عاشت على جوانب البحر المتوسط . وليس بين المؤلفين المعاصرين من يمثل اختلاط تلك الحضارة الماضية بالحضارة الأوربية القائمة مثل البرتو سڤينيو . وهو رجل يتحكم فيه العقـل ينزع إلى الشك . وقد درس الآداب اليونانية واللاتينية والفرنسـية والألمانية دراسـة واسعة ، وتأثر بأپولنير وستندال ونيتشه ، وقد قضى زمن الصبا فى أثينا فتأثر بها . فكتاباته مليئة بالاشارات إلى الأساطير اليونانية .

ولقـد كان الشعراء أكثر الأدباء الايطاليين ثورة على دانتزيو وطريقته فى التعبير بألفاظه الفخمة وعباراته المتألقة . ووجد ماريتى وأنجاريتى تشجيعاً فى هذا السبيل من الحكومة الفاشية . وقد وصف الأخير بأنه شبيه بيول ڤاليرى . ولكن أوجنيو مونتالى هو أقرب شبهاً . وقد يذكر إلى جانبهم يهودى من أهل تريستا هو أومبرتو سابا . على أنه فى منحاه أقرب إلى الألمان منه إلى الفرنسيين .

هؤلاء هم الأدباء الذين أخذوا يظهرون وإلى جانبهم جماعة ظهروا واحتلوا مكانا ثابتاً . منهم امليو تشكى وماسيمو بونتمبلى وألدو بلازكى وڤيتوريني الذى ألف قصة تسمى « محادثات فى صقلية » يقول النقاد إنها خير ما أخرج فى العشرين سنة الأخيرة ، وألفارو مؤلف قصة « الانسان قوى » وهى قصة ألفت فى عهد الفاشية ، وظن أنها حملة على النظام الشيوعى ، على أن كثيرين من القراء يرون أنه أراد الحملة على النظام الفاشى . ويعتبر ماريو براز من أكبر النقاد الذين يعرفون الأدب الانجليزى معرفة عميقة .

ويرى كاتب المقال الانجليزى أن الجمهور القارئ فى إيطاليا أكثر دراية وحضارة من مثيله بين الانجليز والأمريكيين ، على أنه جمهور لم يعرف بعد مساوئ الحياة الصناعية بأكملها . أما المجلات الأدبية التى تظهر الآن فكثيرة ، منها مجلة « مركوريو » وتظهر فى روما ومجلة «للموندو» ، وتظهر فى فلورنسا .

صندوق وطنى للأدب

ذكرت نشرة الأنباء الفرنسية فى شهر ديسمبر أن الحكومة الفرنسية أصدرت بعد مناقشة فى الجمعية التأسيسية قانونا قضى بانشاء صندوق وطنى للأدب ، الغرض منه اولا تأييد النشاط الأدبى للمؤلفين الفرنسيين وتشجيعه باعطاء مساعدات للعمل وللدراسة ، وقروض شرف وإعانات ، ثم شراء الكتب وجميع الطرق الأخرى التى تكافئ أو تسهل وضع عمل أدبى مكتوب . وثانياً يساعد بالاعانات والقروض أو غير ذلك من الطرق ، على أن يقوم الناشرون الفرنسيون بنشر أو إعادة نشر المؤلفات الأدبية التى يهم نشرها .

ويدير هذا الصندوق الوطنى لجنة مؤلفة من تسعة أعضاء منتخبين لأربع سنوات ، منهم ستة من المعهد الفرنسى ، وثلاثة يمثلون النقابات الخاصة بالمؤلفين . وقد ضم إليهم سبعة أعضاء بحكم القانون ، وهم المدير العام للعلوم والآداب ومستشار الآداب بوزارة المعارف الفرنسية ، ومدير المكتبات، ومدير كوليج دى فرانس، ومدير الميزانية بوزارة المالية ، وعميد كلية الآداب بجامعة باريس ، ورئيس نقابة الناشرين .

ويعين بقرار من وزير المعارف سكرتير عام لهذا الصندوق الوطنى .

وتقوم إيرادات هذا الصندوق على حصة يدفعها دور النشر والمؤلفون وإعانات إضافية سنوية من الدولة والتبرعات والوصايا وغير ذلك من الأموال التى يقرر وزيرا المعارف والمالية تحويلها إلى الصندوق .

ويرى مسيو دوهامل أن إنشاء هذا الصندوق لايقل شأنا عن صندوق المباحث العلمية الذى يعتبر من مفاخر الجمهورية الثالثة ، وكتب يقول إن العاملين فى المباحث الأدبية والناشرين والشعراء كانوا يعتمدون فى الأزمان الماضية على معونة الأمير «وقد بذلت الهيئات الأدبية وبذل الأفراد أقصى جهد فى القرن التاسع لتشجيع الآداب . ما اليوم فالمجهود الفردى فى الاحتضار ، والهيئات الأدبية حاق بها الخراب . إذن لقد جاء صندوق الآداب فى وقته . »

ومن أغراض الصندوق ، فضلا عن تشجيع الآداب ، إمكان نشر بعض المؤلفات التى لا تجد سوقاً تجارية لعدم انتشارها الكافى ، وإن كانت هذه المؤلفات تعتبر فخراً للعقل الفرنسى . فنرى من ذلك أن عمل هذه المنشأة نافع جدا من الوجهتين الثقافية والوطنية .

اليابان ودستورها الجديد

يتطلع الناس دائما إلى أنباء الدول التى حاقت بها الهزيمة فى الحرب الأخيرة ، ولكن هذه الأنباء شحيحة ، وقد ألقت الدول المحتلة ستارا على امورها . ولعل أغمض الأنباء وأقلها ما يأتى عن اليابان التى كانت أمة شرقية عظيمة ، وكادت تنفرد أمريكا باحتلالها . غير أن مجلة « العالم اليوم » الانجليزية نشرت فى عدد نوفمبر مقالا طريفا كان مما جاء فيه :

أبلغت السياسة التى يجب أن يسير عليها جنرال ماك آرثر إليه لأول مرة فى برقية

أرسلت فى ٢٩ أغسطس سنة ١٩٤٥ والقسم الاول من هذه البرقية يكرر تصريحات بوتسدام والقاهرة ، بأن تقصر اليابان على جزرها، وأن يشجع الشعب اليابانى على الرغبة فى الحرية وايجاد نظم ديمقراطية . وجاء فى القسم الثانى أن سلطة الامبراطور والحكومة اليابانية تكون خاضعة للقائد الأعلى ،وأن يجرى على سياسة استعمال نظام الحكومة القائم دون تأييده . والقسم الثالث يقضى بتصفية القوات المسلحة والقضاء على آراء الحزب الوطنى ومحاكمة مجرمى الحرب . والقسم الرابع يحرم الانتاج النافع فى الحرب . وفى البرقية تأييد للآراء التى ترمى إلى توزيع الدخل وملكية وسائل الانتاج والتجارة ، وحل الشركات الكبرى . وهى خطوة أرادها الامريكيون ، والغالب أنها تنطبق على رغبة الحلفاء . وتعتبر آراء الجنرال ماك آرثر فى هذه السياسة قاطعة .ويعاونه فى طوكيو مجلس مؤلف من أربعة أعضاء ،كما يضع السياسة فى وشنطن لجنة مؤلفة من أحد عشر عضوا يمثلون الدول ذات المصالح فى الشرق الاقصى.

والفرق الواضح فى السياسة المتبعة نحو اليابان ومعاملة المانيا بعد تسليمها أن اليابان احتفظت بحكومتها ولو أن هذه الحكومة خاضعة للحلفاء عن طريق القائد الأعلى . فكان هذا النظام مما جعل ادارة اليابان أسهل مما لو غير النظام ، ولا سيما مع صعوبة اللغة . وكانت الحكومة عند تسليم اليابان فى يد المحافظين وقد استمروا فى تسلطهم على الحكومة وإن كان عليهم ان يحسبوا حسابا للآراء الحرة ، وكان سلوكهم مع القائد الأعلى لا غبار عليه .

كانت هنالك ناحيتان لمشكلة إعادة تنظيم اليابان : أولاهما القرارات السياسية ، وهذه قد أخذ فى تنفيذها فى الحال مثل تسريح القوات الحربية وإطلاق سراح المسجونين السياسيين والقبض على مجرمى الحرب ، ووضع دستور جديد ، ومنح الناس حق الانتخاب ، والقيام بانتخابات حرة ، وتوزيع الثروة وخاصة الارض توزيعا عادلا

أما المشكلة الثانية وهى أعقد من الأولى فهى إعادة تربية الشعب بحيث تشرف السلطة على تعويده الحرية، فان العادات السيئة التى يراد أن يقلع الشعب عنها مرتبطة بحياته العامة أشد الارتباط . ولذلك أخذ أولو الأمر فى تدبير المئات من الأشرطة السينمائية وتحريم تمثيل المئات من المسرحيات الوطنية ، ومنع لوقت قصير تعليم الجغرافيا والتاريخ والأخلاق فى جميع المدارس وأخذ فى ابدال المؤلفات الخاصة بهذه المواد ، بل حرمت المدارس لوقت ما من تعليم جوانب من الحساب ، كما حرمت المصارعة واللعب بالسلاح . وعمل على أن تكون الجرائد حرة ، على ألا تنقد الحلفاء ، كما أبيح لها أن تخوض دون تردد فى موضوعات مثل مركز الامبراطور وجرائم الحرب .

وتعرضت السلطات للعقائد ، فهوجمت عقيدة ألوهية الامبراطور والاعتقاد فى روح القبيلة أما غير ذلك من العقائد البسيطة فلم يمس .

وكانت هنالك مسألة تعرض لها أولو الأمر فى حذر وهى مسألة الكتابة اليابانية ، فقد أخذت إدارة الجنرال ماك آرثر تشير باتباع الأحرف اللاتينية،وكان الغرض الذى ترمى إليه القضاء على ارتباط اليابان بماضيها . وكان اليابانيون أنفسهم يبحثون فى هذه المسألة منذ سنوات .

وجاءت اليابان فى شهر مارس الماضى بعثة من المربين الامريكيين تدخلت فى هذا الأمر ونصحت باتباع الحروف اللاتينية. ولكن يظهر أن هذه المسألة تركت الآن لليابانيين أنفسهم . وأخذ الأمريكان فى إدخال الأشرطة السينمائية الأمريكية ونشر المجلات الامريكية ، وأنشئت فى طوكيو عاصمة اليابان مكتبة أمريكية .

ومن المشاكل التى استرعت الأنظار مركز الامبراطور فى الدولة، فقد أذاع الامبراطور خطاب التسليم فى صباح ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٥ وكان مجمل خطابه أن اليابان خاضت حربا عادلة لتحرير آسيا ولكنها أخفقت فى مقصدها. وجاء فى عبارته قوله إنه يبدى «غاية الأسف لدول آسيا الشرقية المحالفة لنا والتى تعاونت بإخلاص مع الامبراطورية فى العمل على تحرير شرق آسيا». وهذا الخطاب كان آخر ما أعلنه الامبراطور بملء حريته، وقد يكون له فى المستقبل شأن عظيم لدى اليابانيين. على أن الامبراطور تعاون باستمرار وفى صبر مع الحلفاء، وكانت سلطته هى التى أنقذت اليابان من كوارث فظيعة لو استمرت فى القتال. وقد أدى التسليم أيضاً إلى حقن دماء آلاف من رجال الحلفاء وتوفير أموال عظيمة وكان من أول أغراض الزعماء المحافظين الابقاء على العرش، وهم فى هذا مؤيدون من أكثر طبقات الشعب اليابانى. ولقد أرادوا الاتفاق على أى شئ حتى نزول الامبراطور عن عرشه بشرط أن يبقى العرش مصونا. وقد زار الامبراطور مركز الجنرال ماك آرثر فى هذا الخريف، كما أنه استقبل رجال الصحافة من الأمريكيين.

ومن الأمثلة على نفوذ الامبراطور وعمله على الاحتفاظ بشئ من الروح القديمة فى اليابان إقامة مسابقة إمبراطورية فى الشعر فالعادة أن يعلن الامبراطور عن موضوع قصيدة يتسابق فى نظمها الشعراء ويكون الموضوع وطنيا، وينظم الامبراطور نفسه قصيدة فى موضوع المسابقة، وفى أول السنة تقرأ خير القصائد مع قصيدة الامبراطور. وقد اختار الامبراطور فى هذه السنة موضوع الثلج فوق أشجار الصنوبر، وفكرة الثلج وفكرة أشجار الصنوبر لها فى نفس اليابانيين ذكرى خاصة، فإن هاتين الفكرتين توحيان إليهم أن يفكروا كيف أن شجرة الصنوبر الصلبة العود التى لا تنقطع عنها الخضرة تنحنى تحت حمل الثلوج دون أن تتكسر. وقدمت فى هذه المسابقة خمس عشرة ألف قصيدة. ونصح الامبراطور شعبه فى قصيدته بأن يقلدوا شجرة الصنوبر التى لا تتغير أبدا وهى تنحنى تحت ثقل الثلوج. وفى نهاية هذه السنة أذاع الامبراطور حديثا أوضح فيه بعبارة حذرة بأنه نزل عن قداسته، ثم أخذ يقوم بعدة سياحات بين شعبه وهو فى ملابس بسيطة، وكان يوجه إلى العمال والموظفين عبارات خجلة، والعجيب أن هذا الأمر لم ينزل بالامبراطور من مكانته، بل زاد حب الناس له، وقد ظهر هذا الحب بارزا، حتى إن الشيوعيين الذين هم الحزب الوحيد الذى يعارض الملكية احتجوا على هذه السياحات لأنها تؤثر فى الانتخابات لغير صالحهم.

ووجه الجنرال ماك آرثر اهتماما خاصا للدستور اليابانى، فأمر بمراجعة الدستور القديم الذى ساعد الاستبداد الحربى، وطلب إلى بعض اليابانيين أن يراجعوه، ولكنهم أظهروا تمنعا ولم يقترحوا غير تعديلات قليلة الشأن فاصدر أمرا لمساعديه بأن يشتركوا فى هذا العمل، فكانت النتيجة وضع دستور جديد فى كل جوانبه، والراجح أن بعض اليابانيين كانت لهم يد فى تعديلاته وبذلك استطاع ماك آرثر أن يعلن أن مشروع الحكومة هو وثيقة يابانية وأنكر وزير الخارجية الأمريكية بيرنز أنه وثيقة أمريكية وقد جاء فى مطلع هذه الوثيقة:

« نحن الشعب اليابانى نعلن بلسان ممثلينا الذى انتخبناهم فى المجلس الوطنى أن إرادة الشعب هى صاحبة السيادة. »

وجاء فى المادة الأولى:

«الامبراطور هو رمز الدولة ورمز اتحاد

الشعب ، وهو يستمد مركزه من سيادة إرادة الشعب . »

وهذا المشروع يجمع بين صفتين : أنه دستور ، وأنه بيان ؛ فقد جاء على سبيل المثال فى إحدى مواده :

« يحترم أبناء الشعب كأفراد وسيكون حقهم فى الحياة والحرية والسعى وراء السعادة فى حدود الصالح العام هو الهدف الأكبر فى التشريع وفى الأعمال الحكومية . »

وفى هذا الدستور ما يدل على عدم التفرقة فيما يتعلق بالجنس والعقيدة ، والرجولة والأنوثة ، والمركز الاجتماعى أو الأصل العائلى ، كما ينص على أن الزواج يكون بموافقة الطرفين ، وأن لهما حقوقا متساوية . ومن نصوصه أيضاً أن للناس جميعا حق العمل .

ويختار النواب بأصوات البالغين ومدة النيابة أربع سنوات . ويوجد مجلس مستشارين ينتخب نصف أعضائه لمدة ثلاث سنوات .

وفى الدستور نصوص تتعلق بحماية حقوق الفرد ، وإنشاء محكمة عليا لها حق النظر فى دستورية القوانين . ولعل أغرب ما فى هذا الدستور هو النص على أن اليابان تنزل عن حق الحرب إلى الأبد .

قد يقال إن واضعى هذه الوثيقة اتجهوا اتجاها صحيحا ، ولكن الزعماء المسئولين كانوا حذرين فى تعليقاتهم ؛ فالدكتور مينوبى الحجة فى المسائل الدستورية والذى اضطهد من العسكريين لرأيه القائل بأن الامبراطور حاكم دستورى ، يرى أن هذه الوثيقة ذهبت إلى أبعد من رأيه حين وصفت الامبراطور بأنه رمز الدولة ، وأن عدم وجود قيود على سلطة مجلس النواب قد تؤدى إلى تشريعات مثيرة . أما المحافظون فمن رأيهم أن الدستور القديم لم يكن بعيدا عن الديمقراطية إذا نفذ بالطريق الصحيح . ويرى الشيوعيون أن هذا المشروع لا يمثل الارادة الحقيقية للشعب ؛ إذ من رأيهم أن المشرعين أضاعوا وقتهم فى رسم هذا المشروع بدلا من العناية بمسائل الطعام والكساء والمأوى .

وقد أقر مجلس النواب هذا المشروع فى ٢٤ أغسطس الماضى بكثرة ٤٢١ صوتا أمام ٨ أصوات من المعارضين منهم ستة من الشيوعيين . وكذلك أقره مجلس الأعيان مع تعديلات بسيطة . والمنظور أن يوضع المشروع موضع التنفيذ فى مايو القادم . فاذا سحب لأمر ما ظل الدستور القديم قائما .

رأى فى الأدب المكشوف

أراد هنرى ميلر الكاتب الأمريكى الذى عاش طويلا فى فرنسا أن يدافع عن جنوحه إلى الاقذاع والفحش فى كتاباته ، فكتب مقالا طويلا فى ذلك نشرت « فونتين » المجلة الفرنسية ترجمته . ويجمل آراءه فى هذا المقال ، أن تعريف طبيعة الفحش ، ومدلول هذه الكلمة لمن أصعب الأمور . فأرنست وسيجل فى كتابهما « إلى الأطهار » يقولان : إنك لا تجد شخصين يتفقان على معنى هذه الكلمة وما يشبهها من كلمات ، ويقول د. هـ. لورنس : إنه لا أحد يعرف مدلولها ويقول تيودور شرويدر الذى وقف حياته على الدفاع عن حرية القول : إننا لا نجد الفحش فى أى كتاب أو أية صورة ، وإنما هو دائماً صفة فى عقل الذى يقرأ أو يشاهد الصورة . ولا يذكر فى سبيل القضاء على الأدب المفضوح غير السبب الذى يلتمس دائماً فى القضاء على حرية الفكر .

وإن ذكر الكتب الشهيرة التى يمكن وصفها

بأنها تحتوى على أدب منضوح ليمدنا بفهرس طويل . وإذا أغفلنا الكلام على التوراة فان أكثر عظماء الكتاب من أفلاطون إلى هافلوك إليس ومن أرسطفان إلى شو ومن كاتيل وأوفيد إلى شاكسبير وشللى وسوينبرن ، كل هؤلاء كانوا هدفا للاتهامات بتنكب الآداب العامة والأخلاق . وفى رأى هنتجتن كيرتز وهو ناقد واسع الأفق أنه من الواجب تربية أولئك الموظفين الذين يشرفون على القوانين الموضوعة للكتب المباحة بحيث يكونون لائقين للعمل الذى يقومون به . ويعرف كيرتز الكتب ذات القيمة الأدبية والعلمية المعترف بها بأنها هى التى يؤيدها جمهور قوى من الرأى الناقد الأمريكى ويتفق على قيمتها . على أن هذا الرأى ليس صحيحاً فى إطلاقه ، فلقد ظلت اناشيد الشاعر أريتينو أربعمائة سنة قبل أن ينزع عنها الناس لعنة المعاصرين . وإن من الكتب المعاصرة ما قد ينتظر مثل هذا الوقت قبل أن يعترف به . ويقول تيودور شرينجر فى شأن الكتب التى تشتمل على أدب مفضوح إنها ليست تستمد ذلك الوصف من مشتملاتها وإنما من تأثيرها المفروض فى شخص خيالى فى وقت مخصوص ربما تقع فى يده مرة ما .

أما هافلوك إليس ، فيرى أن الفحش فى القول هو عنصر دائم من عناصر الحياة الاجتماعية وهو يمثل حاجة ثابتة للعقل . وفى رأيه أن البالغين فى حاجة إلى الأدب المكشوف بقدر حاجة الأطفال إلى قصص العفاريت ، ففيها راحة من ضغط مصطلحات الحياة . وهذه الآراء شائعة لدى شعوب البحر المتوسط . ولكن إليس رجل إنجليزى ، ولذلك اضطهد من أجل آرائه وافكاره فيما يتعلق بالأمور الجنسية . ومنذ القرن التاسع عشر لا يجرؤ كاتب انجليزى على التكلم فى هذه الموضوعات باخلاص حتى لا يضطهد ويهاجم .

وقال ميلر : « لقد اتهمت باستعمال لغة مفضوحة أكثر من أى كاتب انجليزى من الأحياء . » ولذلك كانت آراؤه فى هذا الموضوع جديرة بالاهتمام . ويذكر انه منذ نشر كتابه فى « مدار السرطان » فى باريس سنة ١٩٣٤ وصلته مئات من الرسائل من القراء من جميع الطبقات ، وهى فى مجموعها رسائل تهنئة وأكثر الذين عتبوا عليه للغته المكشوفة مدحوا الكتاب من جهة أخرى ، وقليل جداً الذين رأوا أن الكتاب ممل أو أنه لم يكتب بعناية . وظل كتابه هذا يباع بانتظام . ولا يزال النقاد يتكلمون عنه مع أنه قد مضى على نشره ما يزيد على عشر سنوات وبالرغم من انه حرم فى جميع البلاد الانجلوسكسونية . وكان الأثر الوحيد لهذا الحرمان أنه صار يباع سراً فتحدد لذلك عدد المبيع منه ، ولكنه حصل على خير طريقة للاعلان وهو تناقل ذكره بالكلام . وهو يوجد فى جميع المكتبات الهامة بالكليات ، وكثيراً مايشير الأساتذة على تلاميذهم بقراءته وقد أخذ يحتل مكانا إلى جانب المؤلفات الأدبية الشهيرة التى كانت محرمة من قبل وصارت الآن من الكتب الثمينة . ولقد أثر هذا الكتاب بصفة خاصة فى الشباب على أنه لم يضلهم فى حياتهم بل أنمى فيهم الروح الأخلاقية .

وقد نسائل هل الكاتب الذى يلجأ إلى الوصف المفضوح مرغم على اتباع هذه اللغة ؟ وفى رأى ميلر انه لم يعمد إلى هذه الطريقة إلا لأنه لم يجد خيراً منها للتعبير عن آرائه ، وهذا ما قد يعسر فهمه على غير الأديب . ولقد قيل إن الأديب الفنان بعد أن يصل إلى الفهم ينقل هذا الفهم إلى قرائه . وهذا الفهم سواء أكان يمس الشعور الجنسى أم أية علاقة أخرى ، لا بد أن يعارض عددا من المعتقدات العامة والمخاوف والمحرمات القائمة فى الغالب على الخطأ . ومهما كانت الأعذار التى تنتحل للأخطاء الشائعة فى العامة

مثل عدم التعليم أو معرفة الفنون معرفة سطحية أو غير ذلك من الأسباب، فسيكون هنالك دائما هوة واسعة بين الأديب الخالق وبين جمهوره؛ إذ أن هذا الجمهور بعيد عن سر هذه القوة الخالقة. والنضال الشعورى أو غير الشعورى الذى يقوم بين الأديب وجمهوره يكون مركزه الموضوع الذى اختاره الأديب عن ضرورة، وهذه الضرورة ناشئة عن روح العصر التى هى منبع القوى السرية من قوى الحياة التى تريد لها مخرجا وتعبيراً. وهذا التعبير يكون عن طريق أولئك الماهرين فى اجتلاء الأسرار.

ومن العجيب أن المصورين لا يتعرضون إذا كانت منتجات ريشتهم غير ميسرة لدى الجمهور لمثل التدخل الذى يتعرض له الأديب؛ لأن اللغة وهى طريقة الأديب للتعبير تكون عرضة للخلط العجيب. فقد يبدى حتى المثقفون قلة إدراك فى تذوق الآثار الفنية، ولكنهم لا يجرءون على الأعراب عن رأيهم فى كيف يصلح الفنان خطأه. أما فى حالة الكتب، فان اقل الناس ثقافة، لا يتورع عن إبداء رأيه فيها جهاراً.

ظهرت حديثاً

فى قفص الاتهام للأستاذ خالد الدرة (مطبعة الرشيد — بغداد)

كتيب صغير الحجم فى عشرين ومائة صفحة من القطع الصغير، ألفه مؤلفه « البغدادى » ليصف طائفة من رجالات العراق المعاصرين فى بعض مايدور على ألسنة الناس من أحاديثهم، بأسلوب ساخر مؤلم مسرف فى السخرية والايلام، كأن له عند كل منهم ثأراً لا يجد سبيلا إلى أن يناله إلا « بلسانه » !

على أن المؤلف لم يغفل فى مقدمته عن التنبيه على الدافع الذى حمله على كتابة تلك الفصول بذلك الأسلوب الصريح اللاذع؛ فيقول: « والغريب من أمرى أنى لم أفطن إلى هذه الظاهرة الغريبة فى نفسى التى تدعونى إلى كل هذه السخرية من رجال عصرى، ولكنى أدرك بأنى أسوق هذه الفكاهات بروح مترعة بالألم، مليئة بالرغبة فى إصلاح مافسد، جياشة بالتوق إلى الحرية والانعتاق. فما فوضاى إذن إلا من الفوضى المتفشية فى عصرى ... الخ » ثم ينفى أن يكون بينه وبين أحد ممن تناولهم بقلمه خصومة أو ثأر، بل إنه ليزعم أن ليس بينه وبين بعضهم « معرفة » !

ولقد يخيل لبعض من يقرءون هذه الفصول أن الصور المنكرة التى رسمها المؤلف لبعض من تناولهم فى كتابه هى صورهم الحقيقية على ما هم فى أنفسهم أو على ماهم فى أعين مواطنيهم، ولكن المؤلف ينفى هذه أيضاً، فيقول: « ولا يخال القارئ أن ما ورد فى هذا الكتاب من تهجمات مستندة إلى الوثائق الصحيحة، بل هى فى الغالب مقتبسة من أفواه الناس، ولعل بعضها منقوض من الأساس، غير أننى لا أشك بأنها تمثل أحاسيس الجماهير نحو رجالهم ... »

إذن فلأى غاية أنشأ المؤلف كتابه هذا مادام لايقصد إلى تصوير حقيقة، ولا لإصلاح فاسد، ولا لنيل ثأر؟ أهى السخرية فحسب؟

والمؤلف فيما يصف نفسه — بكل تواضع — محام « فاشل »، وفيما يصفه بعض أصدقائه — فى مقام المداعبة — محام فاشل؛ وفيما يصفه البغداديون — فى مقام الاعتراف بمكانته — رئيس « ندوة الزبانية »؛ وهى ندوة أصدقاء كل « زبنى » منهم له قلم ولسان ولا يعرف لأحد وقاراً، وكان لهم صحيفة تصدر فى بغداد اسمها « الوادى » كتبوا فى صدرها أنها لسان حال ندوة الزبانية! فهو إذن مذهب جديد فى النقد يقوم به الأستاذ خالد الدرة والزبانية من أصحابه!

والكتاب بضعة فصول، كل فصل منها يصور جلسة محكمة قد انعقدت لتحقيق دعوى تتناول رجلا من رجالات العراق، ويقوم بالدفاع عن المتهم فى كل جلسة منها الأستاذ خالد الدرة نفسه، ثم تنتهى القضية باطلاق المتهم؛ ولكن بأى لسان يدافع هذا المحامى عن موكليه؟

هذا نموذج من دفاعه فى قضية كان المتهم فيها مدير الأوقاف العام بالعراق:

المدعى العام: كيف جاز للمتهم أن يبيع عرصات الأوقاف لانسبائه بمقدار كبير وبأحسن المواقع فى الشوارع الرئيسية وبأثمان زهيدة؟

المحامى : يروم من وراء ذلك تجميل العاصمة وجعلها على نسق موحد . والأقربون أولى بالمعروف !

المدعى العام : ولكن هؤلاء الأنسباء قد باعوا العرصات بأثمان باهظة إلى غيرهم ، فأى تناسق حدث لبنايات العاصمة وأى تجميل زين قصورها ؟

المحامى [لرئيس المحكمة] : أرى أن للمدعى العام قد خرج عن الصدد ، وكان الواجب عليه فى هذه الحالة أن يقيم الدعوى على الأنسباء لا على موكلى .

وهكذا يدور الحوار ويقوم أساس الدفاع ثم تحكم المحكمة بالبراءة !

وفى الكتاب إلى ذلك عرض طريف لبعض المذاهب السياسية والآراء التى تصطرع اليوم فى رءوس العراقيين ، يتضمنه ذلك الحوار الذى دار فى الجلسة التى انعقدت لمحاكمة جون بول وكان رئيس المحكمة فى تلك الجلسة هو العم سام والمدعى العام ستالين ، وقام المؤلف بدور محامى الدفاع بأسلوبه وعلى طريقته وشبع مما يشتهى هزؤا وسخرية !

وينتهى المؤلف من كتابه فلا ينسى أن يكتب على الغلاف ثبتا بمؤلفاته ، وهى :

١ — المشموذ (صودر)

٢ — لقتل الضجر (صودر)

٣ — حول المنهج القومى (صودر)

ثم هذا الكتاب ، وأظنه (تحت المصادرة) وكتاب آخر « تحت الطبع » عنوانه « الهاربون من جهنم » .

١٠٠ يوم فوق الأنقاض للأستاذ محمد على العريان (مطبعة حلبى بدمنهور)

مؤلف هذا الكتاب شاب مصرى أتم دراسته العالية فى الجامعات الانجليزية ، ثم عاد إلى مصر فاستقر بها بضع سنين ، ثم اختارته وزارة المعارف عضوا فى بعثتها العلمية إلى انجلترا فى العام الماضى ، فذهب إليها ، وهى — فيما يصف — أنقاض وخرائب ، فى الأبنية وفى النفوس ؛ فلم يقض على أرض بريطانيا فى هذه المرة غير مائة يوم ، ثم عاد مريضا مهزولا قد نهكته العلة فى جسده وفى أعصابه ، مما لقى من الجوع والحرمان المادى ، وما لقى من خراب النفوس وفساد الخلق من أثر الحرب المبيدة التى أشرفت ببريطانيا — فيما يرى — على هاوية الدمار واقتربت بها من النهاية المحتومة ، وإن كانت — فيما يعلم الناس — قد انتصرت فى الحرب وظفرت بعدوها فى المعركة الأخيرة !

وهو يصور فى هذا الكتاب الذى بين يدى بعض ما تهيأ له أن يراه — بين الأنقاض — فى أثناء إقامته هذه القصيرة فى بلاد الانجليز .

أول ملاحظة يلاحظها القارئ لهذا الكتاب ، أن مؤلفه شاب مصرى قد امتلأت نفسه مرارة وحقدا على بريطانيا التى تغصب بلاده حقها فى السيادة والحرية ؛ فهو لا يكاد ينظر إلى بريطانيا إلا من هذه الزاوية ، ولا يكاد يعرف فيها إلا العدو الغاصب الذى يريد أن يستذل أعرق أمة فى تاريخ البشرية ليتخذ أبناءها عبيدا وخولا . وماذا يمكن أن يرى الناظر من هذه الزاوية إلا أمة من وحوش الناس ليس لها مثل عليا ولا فضائل إنسانية !

قد يكون كل ما وصفه المؤلف فى كتابه من أحوال الانجليز صدقا لا شك فيه ، وقد يكون فيه مبالغة ما ، وقد يكون فيه الصدق والتخييل ، وقد يكون كله مما خيل الهوى

والعصبية لشاب يؤمن بمصريته ، فكان هواه وعصبيته منظار عينيه ، فلم يصف ما هو فى الواقع بل وصف ما أراه منظاره الملون — قد يكون ذلك كله أو بعضه ، ولكنه على أى أحواله كتاب شاب مصرى عربى مسلم ألفه عن بريطانيا فى سنة ١٩٤٦ ، فهو على أى أحواله صادق فيما وصف عن رأى ورؤية ؛ إن لم يكن فى مرأى العين ففى مرآة النفس . والنفس أصدق خبرا من العينين !

ليس هذا الكتاب إذن من الكتب التى تلتمس فيها الجغرافيا أو التاريخ الاجتماعى لبلد من البلاد أو شعب من الناس فى زمن من الأزمان ؛ ولكنه كتاب فريد فى بابه لمن يلتمس العلم بأسباب اليقظة العقلية فى شعب مغلوب على أمره يجاهد للخلاص بروحه ومقوماته النفسية وكيانه الانسانى ، فى أزمة من أزماته السياسية الخانقة !

وليس هو قصة يرويها أو مشاهدات متسلسلة يصفها من حيث ابتدأت إلى حيث انتهت؛ ولكنها صور متباعدة فى الزمان والمكان والحادثة ، قد ضمها إطار واحد لتوحى جميعها إلى ناظرها معنى واحداً هو المعنى الذى أراد المؤلف أن يجعله حقيقة ماثلة فى نفس كل قارئ عربى يريد أن يعرف بريطانيا ، أو هو مقدمات متساوقة جعل المؤلف كل مقدمة منها تمهيداً للمقدمة التى تليها لتؤدى المقدمات جميعها فى الخاتمة إلى النتيجة التى يستيقنها ويؤمن بها عن حقيقة بريطانيا .

والكتاب اثنان وعشرون فصلا فى أكثر من مائتين وستين صفحة . يتحدث المؤلف فى كل فصل منها عن يوم من أيامه أو حادثة من حوادثه منذ اختارته وزارة المعارف المصرية لبعثتها العلمية إلى يوم عودته — فى أسلوب تصويرى بديع فيه عذوبة ورقة ، وفيه جد وفكاهة ، وفيه رأى وقصص ، وفيه طرائف من خير ما يثبته الرحالون فى مذكراتهم عن بعض ما يقع تحت عينهم من الصور الجديدة أو تنفعل به أنفسهم من المشاهدات والحوادث .

قد يعيب بعض الناقدين على الكاتب أنه لم يتجرد حين أخذ أهبته لكتابة هذه الفصول ليكون فيما يكتبه أقرب إلى الحقيقة الخالصة ؛ ولكن أكبر قيمة لهذا الكتاب فيما يبدو لى هو أن كاتبه لم يتجرد فكان فيه صادق التعبير عن نفسه وعن رأيه وعن الحقيقة التى ينبغى أن يؤمن بها كل مصرى يؤمن بمصريته ويعتز بنسبه فى أهله !

وددت لو حرص كل مبعوث عربى إلى أوربا أو إلى أمريكا على أن تكون فى يده نسخة من هذا الكتاب ، فلعله خير له من كثير مما يحمل من أمتعة السفر وأسباب الرحلة !

رجالات الحجاز للأستاذ إبراهيم هاشم الغلالى (مطبعة دار إحياء الكتب العربية القاهرة)

متى كان الحجاز لأهله من دون سائر الناس ؟ سؤال سألته نفسى وقد وقع بين يدى هذا الكتاب . من ذا يزعم أن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وأن أبا بكر وعمر وعليا ومعاوية ومن إليهم — من رجالات الحجاز ؟

إنهم كذلك بحكم المولد والمنشأ والمقام ، ولكن كم مسلماً ، أو كم عربياً ، اليوم وقبل اليوم ومنذ بضعة عشر قرنا قد خطر بباله حين تحضره هذه الأسماء الكريمة أن يسأل نفسه أو يسأل غيره عن وطن واحد من

هؤلاء فينسبه إلى الحجاز أو غير الحجاز من بلاد الله ؟

إنهم لأكبر مقاما وإن وطنهم لأوسع أفقا وأرحب جانبا من أن يذكر أو يذكر واحد منهم منسوبا إلى بلد . ولكن الأديب الحجازى ابراهيم الفلالى يأبى إلا أن يضيق الحلقة ، فيحاول كتابا يتحدث فيه عن رجالات الحجاز ، فيذكر منهم محمد بن عبد الله وأبا بكر وعمر وعثمان وعليا والحسن ومعاوية ومن شاء أن يذكر من الأسماء . . .

عاطفة الوطن المحلى أوحت إليه أن يكاثر كما يكاثر كل وطنى فى كل وطن بالأبطال من أهل بلده ؛ ولكن الحجاز وطن لكل مسلم ، ومحمد بن عبد الله والصفوة من أصحابه مواطنون لكل مسلم ولكل عربي فى بلده ، بل هم السادة فى كل بلد عربي وبكل أرض يذكر فيها اسم الله . فهل أصاب الأديب الحجازى هدفاً حين حجر الواسع وضيق الرقعة الفسيحة أم تراه لم يبلغ غرضاً ؟

إن للحجاز منذ قرون كيانه السياسى المتميز بحدوده ، فلماذا لم يخطر على بال أحد من أهل الحجاز منذ قرون أن يحاول فخراً محلياً بمثل ذلك ؟ أرأيت لو أن كورسيكا أرادت أن تباهى سائر فرنسا بأن منها نابليون بونابرت وأنه رجلها ، أتكون قد مجدت البطل الفرنسى العظيم حين أرادت أن يكون لها دون غيرها مجده !

ولكنها عاطفة مشكورة على كل حال ؛ لأنها من دلائل اليقظة القومية التى تلتمس المجد بأسبابه وبغير أسبابه !

وأدع هذه ، فلعل الخطأ كله فى عنوان الكتاب ، أو فى إطار الصورة لا فى الصورة نفسها ؛ فانه فى مجموعه كتاب يستحق أن يقرأ وأن يجد فيه قارئه تاريخاً وفناً وأسلوبا من أساليب التعريف بالخالدين فى تاريخ الأمة العربية حقيقاً بالتنويه والاشادة .

وهو إذن كتاب أدب وفن وتاريخ ، يتناول طائفة من رجالات العرب ، يؤلفه شاب عربى حجازى له اطلاع وبيان وفكر ، وبين جنبيه قلب يخفق بحب بلاده . وقد غاص المؤلف فى بطون الكتب التاريخية باحثاً منقباً يتتبع أبطال العرب ممن نشأوا فى الحجاز ، فجلا صورهم جلاء يستحق الاعجاب . ولم يلتزم فيمن جلا صورهم من هؤلاء الأبطال ترتيب التاريخ ولا خصائص الرجال ؛ إذ كان كل ما يعنيه أن يعرض صوراً حجازية مشرقة يحاول بها أن يثبت أن فى الحجاز رجالا ، وهى حقيقة قطعية الثبوت لم ينكرها أحد قط ولا ينكرها أحد اليوم ؛ وآيتها هذا الدين وهذه اللغة وذلك التاريخ الذى يتغنى بأمجاده اليوم أربعمائة مليون مسلم بين شرق الأرض وغربها ؛ ثم هذه النهضة الأدبية النشيطة بين شباب الحجاز والتى تبشر بالخير القريب إن شاء الله !

محمد سعيد العريان

فى مجلات الشرق

رستقراطية الأدب

مجلة « اليتيم العربى » حمص ــ العدد ٥ ، ٦ يعيب المحرر على الأدب العربى أرستقراطيته التى تنأى به عن تأدية الرسالة التى تقوم الآداب بتأديتها ، فيقول :

« إن الأدب هو صورة الحياة وظلها ، يسايرها أنى مشت ويقيها العثار كلما انحرفت عن جادة الاستقامة المرسومة لها ؛ فإن تقاصر الأدب عن تأدية هــذه الرسالة أو انحرفت ظلاله وخطوطه عن مقارها الثابتة استحال الأدب عن غايته وصار ضربا من ضروب اللهو ووسيلة للعبث وتزجية الفراغ .

« وأدبنا العربى — ماخلا القليل منه — مصاب بهــذه الآفة ، والشعراء المتفوقون عندنا لم يستطيعوا فى جميع ما خلفوه من تراث أن ينطلقوا من إسارة القوى . ولهذا لن نجد سوى خوالج شخصية لا يشترك فى الاحساس بها أبناء الحياة ، ولن نجد لهــا صدى إلا فى نفوس الذين يشعرون بها ؛ وإلا فقل ما عسى أن يشعر الجمهور المتعطش إلى التعبير عن خوالجه وأحاسيسه بما طفح به ديوان البحترى من أماديح للمتوكل تجعله شخصا هبط من القمر وعاش فى السحاب . وقل أى قلب يصهره الحزن يشعر بالعزاء عند ما يرثى المتنبى أخت سيف الدولة أو أمه وبينها وبين نساء العرب ما بين هذا الرثاء وبين الحزن الحقيقى فى البعد ؟ . . . »

الطرافة والابتذال فى الأدب العربى

مجلة « المجمع العربى » (دمشق الجزء ٩ ، ١٠) . يحاول الأستاذ إدوار مرقص نهجاً جديداً فى الحديث عن الأدب العربى ، فيتحدث عن الطرافة والابتذال فيما يخرجه الكتاب والشعراء من فنون الأدب ، فيقول :

« ليس كل ماكان جــديدا فى الأدب يستحق أن يحسب طرفة أو تحفة ؛ فقــد يكون الجديد قبيحاً ، إما لخطأ فيه ، وإما لنبو الطبع والذوق عنه ، وإما لمخالفته الطابع العربى فى كيفية الأداء والترتيب .

« ثم ليس كل ما كان مطروقا فى الأدب يستحق أن يحسب مبتذلا مستهجنا ؛ فقــد يكون المطروق ضروريا لايضاح ما اكتنفه من الكلام ، وقد يكون مقبولا محتملا مماشاة لسياق الحديث فى سذاجته وصراحته . »

وينتهى الكاتب من مقدمته هذه فى معنى الطرافة والابتذال ــ إلى مايسميه «التوليد» وما يسميه « التنزه » . ويعنى بالتوليد تناول المعنى التافه وتزيينه من بعض نواحيه ، أو تناول الفكرة المجملة وتفصيل شئ من زواياها ، أو الخاطر الناقص وتكميل نقصه . ويريد بالتنزه الارتفاع بالمعنى المبتذل إلى مستوى أعلى يضفى عليه نوعا من الطرافة والجدة .

ثم يمضى بعد هذا التحديد لمعنى التوليد والتنزه فى إيراد الشواهد من شعر القدماء على ما يسميه « تنزها » أدبياً فى المحسوسات العلوية كالشمس والقمر والنجوم وما يسبح أفلا كها . . . وفى المحسوسات الأرضية كالتراب والبحر والوحش وما يجرى فى واديها .

هو بحث طيب ! إذ حق لى أن أصفه بأسلوب كاتبه ، فانه فيما أراه ضرب من «التنزه» : موضوع قديم فى أسلوب طريف !

المدارس العلمانية

مجلة «المسرة» بطريركية الروم الكاثوليك (لبنان — الجزء ١٠) . يوالى الأب أثناسيوس فرح البولسى بحوثه عن معضلة المدارس ، ويخص هذا العدد بحديث عن « حقوق الدولة وواجباتها فى شأن التربية بنوع الاجمال » .

وهو يرى أن للدولة حقاً غير مباشر على تربية الأولاد — أى حق الاشراف العام — فلها أن تمنع كل ما ينال الأولاد من سوء تصرف أهليهم وكل مخالفة صريحة لقوانين العدل العامة . ولها أيضاً أن تجعل أساليب التربية بنجوة من كل ما يضر بنمو الناشئة الجسدى أو بتهذيبها الادبى أو بتربيتها الوطنية الحقة . فمن حقها — أو من واجبها — تحريم بعض الكتب والمبادىء المفسدة للحقائق الدينية أو التعاليم الفلسفية الراهنة أو للآداب العامة أو الروح الوطنية الصادقة . . .

وحقوق الدولة — فيما يرى الكاتب — مقصورة على الوجهة المدنية من التربية ، وخاضعة لحقوق الأهل ، وهى إلى ذلك حقوق غير مباشرة ، إذ أن الحق الأول فى التربية لأولياء أمور الطلاب من أهل وأوصياء ومهذبين . والغاية من التربية عنده فردية قبل أن تكون اجتماعية ؛ إذ كان المقصود منها هو « تكوين الرجل الكامل » . وهى غاية تهم الأمة والوطن ، ولكنها تهم الأفراد بالأكثر إذ يتوقف عليها أمر حفظهم ونموهم فى حياتهم .

وينتهى الأب أثناسيوس من بحثه ليدع للأستاذ قبلان الرياشى الحديث عن مستقبل المدارس فى لبنان بين التعليم الدينى والتعليم اللاديني ، ليقرر أن التعليم المدنى الحديث الذى أقرته حكومات العالم واستنبطه فكر العلماء الأحرار فى المدارس العلمانية هو تعليم مضر بالأحداث وبالحكومة والشعب ولا يصح اعتماد الحكومات عليه !

الطب والأدب

مجلة «الأديب» (لبنان — الجزء ١٢ — ٥)

فى هذا العدد من مجلة « الأديب » يعالج الدكتور نقولا فياض عضو المجمع العلمى العربى بدمشق موضوعاً طريفاً من موضوعات الأدب، أو من موضوعات النقد ، بالحديث عن العلاقة بين ما ينتجه الأدباء من آثار ، وبين « نفسياتهم » أو تشخيصهم السيكولوجى ، على ضوء الطب النفسى الحديث . وأحسبه يريد أن يخضع موازين النقد الأدبى — إن كان للنقد الأدبى موازين مضبوطة — لما يقرره

الاطباء عن نفسية الأديب الذى يهم النقاد أن يتناولوا آثاره بالنقد والتشريح ، فان ثمة علاقة لا يمكن تجاهلها فى النقد — بين حالة الأديب النفسية ، أو العضوية ، وبين ما ينتج من آثاره الفنية . وهو فى سبيل بسط هذا الرأى يتحدث عن التدخين والأدباء ، وعن الذكاء والجنون ، ويورد طائفة من الشواهد فى حياة طائفة من الأدباء المعروفين فى شتى أنحاء الأرض ، ويقص آراء طائفة من الباحثين فى حقائق النفس الانسانية ، ثم يتحدث عن النقد الأدبى والطبيب ، وعن الروية والبداهة .

وهو موضوع يحق للدكتور فياض بما اجتمع له من علم الطبيب وإدراك الأديب وتنوع الثقافات أن يعالجه وأن يبلغ فيه مبلغاً ، ولا أريد أن أقول كما يقول فى صدر بحثه :

« وهذا باب آخر ينفتح أمام الطبيب ليفسح له مجال العمل فى ميدان الخدمة العامة . لقد تدخل فى التاريخ فخلع عليه نوراً جديداً بما كشف من أسرار السحر والشيطنة وقراءة الغيب ، وتدخل فى القضاء فغير وجه النظر فى « المسئولية » ، فلم لا يدخل فى الأدب والفن ؟ »

لا أريد أن أقول هذا الذى يقوله ، فانه ليعالج فى مقاله ذاك نوعاً من الرأى لعله أخطر من أن يكون القصد منه « توسيع اختصاص الأطباء ! »

على أن فى المقال إلى ذلك اتجاها إلى فكرة ما لعل من حق الأدباء وأهل الفن أن يحسبوا حسابها ، لأنها تتصل بذواتهم وحرية اختيارهم لأسلوب العيش الذى يستريحون إليه ؛ فقد خيل إلى أن الكاتب الطبيب يؤيد رأى بعض الذين يقولون إن من حق الجماعة أن تعرض على الأدباء وأهل الفن أسلوبا خاصاً من أساليب الحياة تتحقق به مصلحة الجماعة فيما ينتج الأدباء وأهل الفن من آثار ! فهو يقول :

« والقصد من ذلك التدخل فى حياة الكاتب الصحية والعناية بدماغ الأديب أو الفن بحجة أن أكثر العاملين فى حقل الأدب والفن هم ملك الأطباء لأنهم من المرضى ، مرضى الارادة والأعصاب ، والذى يؤيد هذه النظرية ما يبدو من آثار التهتر البدنى والعقلى فى السواد الأعظم منهم ، بما يشكون من سوء الهضم والصداع وتهيج الأعصاب المستمر ، إلى عدم الاستقرار الناتج من السهر والاجهاد وقلة المبالاة والافراط فى شرب المسكرات وفى التدخين وضيق ذات اليد أحيانا . . . »

من لى بأن يعرف أصحاب هذا الرأى قصة القروى والدجاجة التى كانت تبيض الذهب !

أعمدة التلغراف !

ويقص الأستاذ عبد الله المشنوق فى هذا العدد من مجلة « الأديب » قصة « البؤس المكتوم » فيصف حادثة رآها منذ عشرين عاما ، يوم كان مديراً لكلية المقاصد فى بيروت ، حادثة أب مصدور لا يكاد يجد ما يقوم بحاجات أطفاله الخمسة ولا ما يقوم بحاجة نفسه وهو فى الدور الأخير من أدوار دائه للهلك . وعلم الكاتب من امره ما علم ، فسعى باسمه إلى أهل الخير ، أو من توسم فيهم الخير ، فما منهم إلا من اعتذر بلطف أو بغير لطف ، إلا رجلا واحداً لم يكن من أهل اليسار ، فانه معلم محدود الرزق ، ولكن الحادثة مست وجدانه فنزل عن نصف ما تملكه الأب وأولاده الخمسة . ولا يقدر البؤس إلا البائسون !

ويصف الأستاذ المشنوق الحادثة كما رآها وكما سمع حوارها منذ عشرين سنة، ثم يقول: «لست أدرى لماذا انتقل فكرى — ساعتئذ — إلى التلغراف . . . لست أدرى، ولكنى أعلم حق العلم أنى ربطت فى ذهنى هذا الحادث بما يجرى عادة عند ما يرسل إلى أحدنا برقية؛ فهناك محطة مرسلة ترسل النبأ، وهناك أسلاك مركزة على أعمدة تنقل النبأ، وهناك محطة لاقطة تتلقى النبأ. هذا هو التلغراف: المحطة المرسلة هنا هى هذا البائس المصدور وأطفاله الخمسة، والمحطة اللاقطة هى هذا البائس المعلم، وأما أنا، وأما صديق التاجر المعتبر، وصديق الصناعى الكبير، والطبيب المثرى الكبير — أولئك المعتذرون جميعاً — فقد كنا كلنا أعمدة التلغراف!»

الوعى العلمى فى الشرق!

ويتحدث الأستاذ «قدامة» فى باب «مكتبة الأديب» بالعدد نفسه عن كتاب ظهر حديثاً فيصفه بما رآه ويعرضه لقرائه على الوجه الذى أراد، ثم يقول:

«وأحسب أن لو قد نشر هذا الكتاب فى دنيا العرب والاسلام قبل ثلاثين سنة أو قبل عشرين سنة، إذن لحظى بما هو خليق به من إحداث رجة فكرية تزلزل وتبنى فى وقت واحد. ولكن الكتب على ما يظهر، ما عادت تجد صداها فى نفوس الناس، هذه الأيام كما كانت قبل. وهو شىء محزن على كل حال، ودليل جديد على هذه اللامبالاة التى تطبع حياتنا العصرية!»

وهى ملاحظة صادقة ليس فيها مبالغة فيما أراه؛ فانى وإن غيرى من قراء هذه اللغة وكتابها ليشهدون ما تلقاه المؤلفات الحديثة فى العربية هذه السنين من عدم الاحتفال وقلة المبالاة، على ما تبلغ من التجويد والأناقة فى الفكر والبيان والاخراج. لست أعنى قلة الاقبال على القراءة، فلعل قراء العربية اليوم أكثر مما كانوا منذ عشرين سنة أو ثلاثين، ولعل ما تتداوله الأيدى من المطبوعات الحديثة فى هذه السنين يبلغ أضعاف ما كان منذ سنين، وإنما أعنى الاحتفال بالموضوع وحسن الاصغاء للرأى الجديد والفكر الجديد والانتاج البكر. ليت شعرى أمن ضعف الوعى العلمى فى هذا الشرق هذه السنين، أم من ضعف الانتاج، أم هو رد الفعل للأحداث القريبة التى تناولت حياة أهل المشرق أفراداً وجماعات فأخملت فيهم ملكات وأيقظت ملكات؟

لست أدرى! ولكن الذى أدريه أن أية نهضة لا يؤازرها وعى علمى ناضج إنما هى نهضة حالم لا يلبث ان يرتد بعد اليقظة الخاطفة إلى نوم عميق!

الرواية حول العالم

«المكشوف» (بيروت — العدد ٤٤١)

«إليك بعض تحديدات الرواية فى مختلف أقطار العالم:

«الرواية الألمانية: هى كتاب تجد فيه البطلين يحب أحدهما الآخر منذ الفصل الأول ولكنهما لا يستسلم أحدهما للآخر،

« أما الرواية الفرنسية فتجد فيها البطلة قد استسلمت للبطل منذ الفصل الاول ، ثم يحاولان حتى الفصل الأخير أن يتجاهل كل منهما الآخر .

« وأما الرواية الروسية فبطلان لا يحب أحدهما الآخر ، ولا يصل أحدهما إلى الآخر ،

وترى الكاتب يحبر ١٤٥٠ صفحة فى هذا الموضوع مشحونة كآبة وغماً ! »

ترى ماذا يمكن أن يقولوا عن «الرواية» المصرية أو الرواية العربية ، إن قدر للرواية المصرية أو الرواية العربية أن يكون لها مكان بين الآداب العالمية ؟

الأدب العربى الحديث

قرأت فى العدد السابع من مجلة «الغرى» التى تصدر فى النجف إعلانا نشره أديب من لبنان يقول فيه إنه بسبيل إعداد ونشر كتاب عنوانه « الأدب العربى الحديث » يجمع الأصول والمصادر الهامة التى يصح الركون إليها لدراسة الأدب العربى الحديث : خصائصه وفنونه ، وأعلامه فى البلدان العربية وفى المهجر ، ويضم دراسات عن الحركة الاستشراقية فى الغرب وأعلام المستشرقين وآثارهم فى أوربا وامريكا . وهو لذلك يطلب إلى كل أديب من أدباء العربية أو من علماء المشرقيات أن يكتب إليه لمحة وجيزة عن تاريخه ، ومؤلفاته ،

وما قد يكون كتبه من بحوث بإمضاء غير صحيح ، والمراجع التى يمكن الرجوع إليها لدراسة أدبه . . . الخ

وقلت لنفسى وقد قرأت هذا الاعلان : وماذا بقى من الكتاب لمؤلفه إذا كتب إليه كل أديب عربى وكل مستشرق بما يريد من هذه البيانات ؟ هل يبقى له غير عنوان الكتاب وتقسيم الفصول والحذف او الزيادة !

ولكنه على كل حال مؤلف يريد أن يستند إلى أساس . وما أكثر المؤلفين الذين لا يستندون — فيما يؤلفون — إلى أساس !

فى مجلات الغرب

من القـــاهرة

تصـدر فى مصر مجلتان باللغة الفرنسية : « مجلة القاهرة » La Revue du Caire التى تصدر فى القاهرة و « قيم » Valeurs التى تصـدر فى الاسكندرية إلى الآن ، وتريد أن تصـدر فى باريس فى المستقبل . (العـدد الأخير المصرى منهـا يظهر فى شهر يناير سنة ١٩٤٧ .)

فلنبدأ بـ « مجلة القاهرة » نوفمبر ١٩٤٦ . نلاحظ فى فهرس هذا العدد العنوانات الآتية : « شجرة البؤس » لطه حسـين ، ترجمة جاستون ڤييت . ومقال للشـاعر الفرنسى المعروف ليون ـ بول فارج عن الكاتبـة القصصية الفرنسية ذات الصوت البعيد ، كوليت عنوانه : « كوليت والحساسية النسوية فى فرنسا »[1] . وفى هذا المقال القصير البديع يحاول الكاتب فى نجاح وتوفيق أن يشرح لنا فن كوليت وحسن تلك الشخصية الأدبية التى يعتبرها كثير من النقاد أكبر الكتاب المعاصرين ، أو على الأقل ، فنـانة مشوقة جداً . ويكفى أن أنقل بعض أسطر من هذه الصفحات المنيرة لتفهم غرض ليون ـ بول فارج وعنوان مقاله ، فهو يقول :

« إن الفرنسيات يشعرن بأن روح كوليت قريب جداً من روحهن ، يشاركهن فى أصله وجوهره ، وينبئ عن دخائلهن كما تنبئ العرافة الدقيقة الكريمة بأسرار الغيب دون أن تخطئ . »

أما المقال الذى يلى مقـال ليون ـ بول فارج ، فيختلف عنه كل الاختـلاف[2] : يعرض لنا صاحبه كتابا ألفه ثلاثة أطبـاء سويسريين عن التجارب الطبية التى أجراها أساتذة وأطباء ألمـانيون فى بعض معسكرات الاعتقال ، ويقول ا . بالاشوفسكى (صاحب هذا النقد وهو رئيس معمل كيميائى فى معهد باستور فى باريس وكان أسيراً فى معسـكر بوخنڤالد ـ دورا Büchenwald-Dora إن هذا الكتاب ليس دعاية ضـد النازية بل هو : « نص نزيه سجل فيه ثلاثة من الأطباء السويسريين نتائج البحوث العميقة التى قاموا بها فى داخاو Dachau وشتروتهولف Strutholf وهو أول شهادة تصدر عن أطباء من دولة غير محاربة ، فحكمهم إذاً له قيمته الخاصة . »

قرأت أيضا فى « مجـلة القاهرة » بحثـا طويلا جدا (٣٠ صفـحة) بالنسبة إلى الجو الأدبى الذى هو جو المجـلة ، لأنه بحث قد يكون دقيقاً ، ولكن كان أجدر أن ينشر فى مجلة مخصصة لشؤون التربية والتعليم . فى هذا المقال[3] يعرض المؤلف طرقا جديدة فى التعليم قد ابتكرها بعض علماء النفس من الأمريكيين

---

(١) Léon-Paul Fargue, *Colette et la sensibilité féminine française.*

(٢) A. Balachowsky, *Cobayes humains.*

(٣) Jean Dupertuis, *John Dewey et l'école active.*

وقد نقبل القاعدة الآتية « للمدرسة الفاعلة » (كما يسميها جون ديوى)، أى : « يجب ألا تكون المدرسة بيئة متكلفة تعد الطفل لحياة الرجل بل بيئة طبيعية، تشتق من الحياة نفسها؛ لأن أطفالنا يمضون فيها العصر الذهبي من حياتهم. » ولكننا نشعر بشيء من الخوف إذا قرأنا هذه القاعدة الأخرى : « مهما يكن موضوع الدرس يهتم الأساتذة فوق كل شيء باستخلاص العناصر الاقتصادية والاجتماعية وتأثير الوسط الطبيعى وجو الانسان فى النظم والعادات. »

مقال قصير عن الشاعر الفرنسى جيرار دى نيرڤال[1] وشهرية الكتب يختمان هذا العدد الاخير من « مجلة القاهرة ».

مجلة « قيم » رئيس تحريرها الأستاذ ريفيه إيتيامبل René Etiemble أستاذ الأدب الفرنسى فى جامعة فاروق الأول. ويظهر من هذه المجلة أربعة أعداد فى كل سنة. وفى العدد الأخير لسنة ١٩٤٦ مقال قيم جداً أمضاه روبير ليڤيك وعنوانه « مفتاح الاسكندرية »[2]. يجب أولا أن نقول شيئاً عن صاحب المقال. لم ينس القراء أن الكاتب العظيم أندريه جيد قد زار مصر السنة الماضية وجاء معه روبير ليڤيك. وهو أستاذ فرنسى فى أثينا مخصص فى الأدب اليونانى الحديث.

ولما ذهب مؤلف « الباب الضيق » إلى الاسكندرية ليلقى فيها محاضرته، ذهب معه روبير ليڤيك. والصفحات التى نقرؤها فى مجلة « قيم » تعرض لنا تأثير عاصمتنا الثانية فى نفس هذا الاستاذ الفرنسى؛ وفى الوقت نفسه سنحت له الفرصة ليصور لنا حياة شاعر من أكبر شعراء اليونان المعاصرين، وهو كاڤافيس Kavafis. والواقع أن هذا المقال سيظهر مقدمة لترجمة قصائد كاڤافيس. والشاعر اليونانى — كما يعلم القراء — أمضى حياته فى الاسكندرية وتوفى فيها سنة ١٩٣٣. والذى يروق القارئ المصرى فى هذا المقال، هى الأسطر التى كتبها روبير ليڤيك فى وصف مدينة الاسكندر. والشيء الذى أثر فيه هو أن القديم اليونانى ما زال باقيا فى المدينة. ويكفى أن أنقل هذه الأسطر لترى إلى أى حد وصل روبير ليڤيك فى فهم الضمير الاسكندرى : « إن القديم اليونانى لحى يخفق فى الاسكندرية. هذا الحمال إنما هو غلام العهد القديم؛ وهذا السماك الثرثار بين الصور التى تزين جدران حانوته، إنما هو خطيب السوق فى العهد القديم. والصيادون فى حى الأنفوشى الذين يضيئون البحر فى ظلمة الليل بمصابيحهم، إنما يرفعون، دون أن يعلموا، مشاعل عمرت آلاف السنين. »

من باريس

مجلة « فونتين » Fontaine، أكتوبر سنة ١٩٤٦. إقرأ فى هذا العدد مقالا غريبا للكاتب الامريكى هنرى ميلر المشهور بقصص وانتية مسرفة فى الاقذاع. والاقذاع او بعبارة أصح دفاع عن الاقذاع، هو موضوع مقاله فى « فونتين ». وقد اختار هنرى ميلر

(١) Henri Gerbert, *Gérard de Nerval, occultiste et chrétien.*

(٢) Robert Levesque, *La clef d'Alexandrie*

لمذهبه الجرىء العنوان الآتى : « الاقذاع وناموس الانعكاس »(١) وهو يشهد بأن الافحاش لا يوجد فى نفس الكاتب ولا فى الموضوع الذى يوصف به، وإنما يوجد فى نفس القارئ الذى يستكشفه ثم ينكره . ويكفى أن يقرأ هذا البيان، فى أكبر الظن، ليعطى فكرة واضحة عن قصد مؤلف « الربيع الأسود » فى مقاله وفى كتبه أيضا .

ويستطيع القراء أن يرفهوا على أنفسهم بقراءة مقال آخر من نفس هذه المجلة ، وهو مقال عنوانه « الموسيقى وتعبيرها »(٢) لبوريس دى شلوزير . يريد الكاتب أولا أن يمحص معنى كلمة « تعبير » ويريد ثانيا أن يجيب عن هذا السؤال : « هل تعبر الموسيقى عن شىء ؟ » ويعتقد بوريس دى شلوزير ، بإيجاز ، أن التأليف الموسيقى ينقل العواطف من المؤلف إلى المستمع ؛ وعلى الموقع أن يستخلص ما فى الموسيقى ، كما يستخلص عصير الليمون . ويختم الناقد الموسيقى قائلا : « إن الشخص الذى يخاطب المستمع بلا واسطة ، ليس هو المؤلف ؛ إن صاحب هذه المغامرة هو شخص آخر ، هو شخص ليس له كون إلا فى الأثر وبالأثر ، شخص خيالى ، صنعه المؤلف دون أن يعلم ، خلقا آليا ؛ والسبب الوحيد لهذا أن مادة إنتاجه هى الأصوات . »

مجلة « لانيف » *La Nef* نوفمبر سنة ١٩٤٦ . هذا العدد مخصص لمؤتمر الفكر الأوربى الذى أقيم فى جنيف من يوم ٢ إلى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٩٤٦ . ومدينة جنيف هى التى اقترحت هذا الاجتماع الدولى لأسباب عرضها مسيو ا. بيكو A. Picot (نائب رئيس مجلس الدولة فى جنيف) حين يقول فى خطابه الافتتاحى للمؤتمر : « إن مدينة جنيف لم تستطع أن تدعى أنها أثرت تأثيراً أساسياً فى تاريخ الفكر الأوربى أربع مرات فى خمسة قرون . وهى تريد إذاً أن تبقى مدينة حية لخير حضارتنا . » والأربع مرات التى أشار إليها مسيو بيكو هى :

١ — إصلاح كالفان Calvin .

٢ — فى القرن الثامن عشر عاش جان جاك روسو « مؤلف « العقد الاجتماعى » الذى يعارض آراء فولتير ودالامبير D'Alembert المترفة فى الحرية بآرائه الصارمة ، المطلقة ، المسرفة فى الديمقراطية . »

٣ — جنيف ، مدينة مدام دى ستال Madame de Staël التى أنشأت حب الأدب الأجنبى ودراسته .

٤ — جنيف التى أنشأت فى ١٨٤٤ جمعية الصليب الأحمر .

ولنرجع إلى المؤتمر . فقد قسمت أعمال إلى قسمين :

أولا : محاضرات ألقاها نواب الأمم الأوربية .

ثانياً : محاورات حول بعض الآراء التى عرضت فى هذه المحاضرات . وتنشر مجلة « لانيف » نبذاً لا بأس بها من محاضرات أشهر النواب الذين حضروا المؤتمر ، وتنشر أيضا بعض ما قيل فى المحاورات . فلنقف عند آراء بعض النواب فى موضوع المؤتمر ، وهو الفكر الأوربى كما قدمنا .

قال جوليان بندا فى خطابه وعنوانه « يجب أن ينشأ ضمير أوربى »(٣) :

---

(١) Henry Miller, *L'obscénité et la loi de réflexion.*

(٢) Boris de Schloezer, *L'expression musicale.*

(٣) Julien Benda, *Une conscience européenne est une chose à créer.*

« لم يكن عند الأوربيين ضمير أوروبى قط كما يوجد عند الأمريكيين ضمير أمريكى . »

وخالف هذا الرأى الكاتب الفرنسى جان جيهينو[1] فى محاضراته حين قال : « نعم ، وجد عقل أوروبى وما زال يوجد الآن . لقد كاد يخلق وطنا جديدا فى السنين ١٩١٠ إلى ١٩٣٠ : لقد كاد يخلق أوربا . »

ويرى دينيس دى روچمون ، وعنوان حديثه هو : « أمراض أوربا » [2] إنه « لا يمكن تصور تحالف أوربى إلا لأجل تحالف عالمى . »

ولعل بعض القراء يدهشون لتصريح الشاعر الانجليزى المشهور ستيفن سبندر[3] الذى يعتقد بأن من واجب قادة الرأى والعقليين فى أوربا أن يطلبوا وأن يشجعوا زملاءهم الألمانيين ، لأن « هناك موضوعات كثيرة يجب أن نناقشها مع الألمان ، ولا سبيل إلى ذلك إلا فى جو من الثقة والمساواة . » هذه الثقة لا تنال (وهذا مايراه النائب الألمانى كارل ياسبرس[4] وهو عالم من علماء الوجودية) إلا بإرضاء هذه المقتضيات الثلاثة :

ا) الاحتفاظ بتواصل شامل بين الناس.

ب) يجب أن نكون سادة آرائنا وألا نخضعها لأى مذاهب مقرر مهما يكن .

ج) يجب أن نعترف بأن الحب فى آخر الأمر هو المرشد لنا ، ولكن مع شىء من القدرة على البغض إن لم يكن منه بد .

ولننتقل الآن إلى شهريات مجلة «لانيف» ففى شهرية الكتب قرأت لجى . س . لى كليش Guy. S. Le Clech نقداً قصيراً لكتاب لفه بول آرشامبو عنوانه : « إنسانية أندريه جيد » [5] ويقول الناقد إن مسيو آرشامبو « لم يخف أنه يتجه بنوع خاص إلى المسيحيين . ويتخذ فى كتابه كله موقفا كاثوليكيا متسامحا كل التسامح . »

من لندن

مجلة « هورزن » Horizon أكتوبر سنة ١٩٤٦ . فى هذا العدد مقال مترجم من الفرنسية عن كاتب عظيم من كتاب القرن التاسع عشر ، جوستاف فلوبير . صاحب هذا المقال رينيه دوميليل وعنوانه « لم يكن بد للأدب من فلوبير » [6] . والذى نلاحظه أولا فى هذا المقال ، هو كثرة ما يرويه رينيه دوميليل من نصوص فلوبير التى قد لا يعرفها إلا القليل ؛ أى نبذ من رسائل مؤلف « سالامبو » Salammbô ويعتقد صاحب المقال أن « هذه الرسائل من أعجب النصوص التى أبقاها لنا القرن التاسع عشر لأن فلوبير شارك بنشاط فى الحركة العقلية لعصره ولم يكن شاهداً فقط ، يلاحظ ثم

---

(١) Jean Guehenno, *U.S.A. et U.R.S.S. face à l'Europe.*

(٢) Denis de Rougemont, *Les maladies de l'Europe.*

(٣) Stephen Spender, *Mission des intellectuels européens.*

(٤) Karl Jaspers, *L'homme et son destin.*

(٥) Paul Archambault, *Humanité d'André Gide.*

(٦) *The Inevitability of Flaubert*, by René Dumesnil.

بفكر ثم يكتب ، وإنما كان قائداً من قادة جيله والجيل اللاحق . فى تلك الأعوام التى ظل فيها كتاب آخرون يتعلمون ، كان فلوبير يظهر فى طور الأستاذ . » ونجد فى قراءة هذه النصوص المفيدة شيئاً آخر وهو أن فلوبير كان « نموذجا للأمانة الفنية وللجد والمثابرة على عمله اليومى ولصنعته بأرق معانى الكلمة . » كتب لصديقه ماكسيم دى كامب Maxime du Camp فى أوائل حياته الأدبية : « إذا أتيح للأثر الذى أن يكون حسنا ، صادق الحسن ، فأى بأس عليه إذا انتظر الشهرة ستة أشهر أو ستة أعوام أو إلى ما بعد وفاة صاحبه ؟ » بل نجد أكثر من هذا كله فى رسائل فلوبير ؛ فذلك الرجل العجيب ، ذلك الفنان البارع كان فوق هذا كله متنبئاً إذ كتب فى أوائل حرب ١٨٧٠ « جائز أن تستأنف الحروب لأجل الوطنية من جديد . وقبل أن ينتهى قرن واحد ، سنشهد قتل مليون من الرجال فى موقعة واحدة . ومن يدرى ! لعل الشرق كله يكون ضد أوربا ؛ لعل العالم القديم يسلح ضد العالم الجديد . ومشروعات كقناة السويس لعلها تكون نوعا من التجربة أو المقدمة لمواقع منظمة لا نكاد نتصورها . »

ويجب أخيراً أن نقول إن مترجم هذا المقال الذى يملؤه الحب ، والاعجاب ، والجلال ، هو الكاتب الانجليزى المعروف ادوارد ساكفيل ويست Edward Sackville-West .

ويستطيع القراء الفنانون الذين يعنون بالفن المعاصر أن يقرأوا مقالا خصباً عن المثال الفرنسى جان أرب Jean Arp . وهذا المقال هو الفصل الرابع من دراسة موضوعها العام « المثالون المعاصرون » .

من موسكو

« مجلة الأدب السوفيتى » . وصلت هذه المجلة متأخرة جداً ، شأنها فى ذلك شأن كل ما يصل من روسيا . فعلى مكتبى منها ثلاثة أعداد : مارس ، أبريل ــ مايو ، ويونيو سنة ١٩٤٦ .

فاقرأ فى عدد مارس سنة ١٩٤٦ مقالا عن كتاب جديد صدر فى بريطانيا العظمى عن الكاتب الروسى الكبير تولستوى Tolstoy وتلاحظ تامارا موتيلفا Tamara Motyleva صاحبة هذا النقد، أن قصة تولستوى المشهورة « حرب وسلم » التى يقص فيها الكاتب العظيم حوادث الحرب التى سماها المؤرخون « حرب روسيا » بين نابليون والقيصر ، قد لقيت نجاحا مجدداً منذ الحرب العالمية الثانية . ولكن تجد الناقدة فى هذا الكتاب الأخير عن تولستوى لدريك ليون Derrick Leon شيئاً من خيبة الأمل بالنظر إلى القارئ الروسى . وربما كان أقوى ما يوجه إلى الكتاب من نقد أن المؤلف كما تقول الناقدة ، يردد فى تفصيل شديد أشياء يعرفها القارئ الروسى والانجليزى على السواء .

فى هذا العدد نقد لكتاب انجليزى عن كاتب روسى ؛ وعلى عكس ذلك نجد فى عدد أبريل ــ مايو نقداً لكتاب روسى عن الشاعر الانجليزى العظيم شيكسبير . وقد ألف هذا الكتاب ك . س. ستانيسلافسكى C. S. Stanislavsky ، وهو كتاب من نوع خاص ؛ لأن وجهته هى وجهة الممثل والمخرج بحيث يجد القارئ فيه أن « على الصفحة اليسرى نص « عطيل » وعلى الصفحة

اليمنى بازاء كل دور تفسير ستانيسلافسكى » . ولا ينبغى أن ننسى تنبيه القارئ إلى مقال خطير حقا فى العدد نفسه عنوانه « التحيز فى الأدب » (١) وخطورته تأتى عن أهمية موضوعه وهو الأدب والحرية . وصاحب المقال يعرض فى أول مرافعته دفاعا عن مذهبه مايراه تيوفيل جوتيه Théophile Gautier وبودلير Baudelaire من أن « الفن يجب أن يكون له استقلاله التام . » وقد نقل بلزاك Balzac عن الفيلسوف الفرنسى دى بونالد de Bonald قوله : « يجب أن تكون للكاتب آراؤه البينة فى الأخلاق والسياسة وأن يعتبر نفسه مربيا . »

والمشكلة معروفة الأهمية، فيكفى أن أنقل جملة أو جملتين من هذا المقال الخطير لأعطى فكرة ولو تقريبية عن موقف صاحبه، وهو فيما أعتقد الموقف الرسمى فى روسيا السوفيتية :

« لا يوجد أدب غير متحيز — إن الأدب المعاصر إنما هو كله متحيز — ليست المسألة أن نثبت أن كاتبا من الكتاب متحيز أولا ، وإنما هى أن نعرف لأى شىء يتحيز . »

امينة طه حسين

(١) On the Tendentious in Literature, by Evgeni Almazov

فهرس المجلد الرابع

أكتوبر ١٩٤٦ — يناير ١٩٤٧

دراسات أدبية

* كل مقال أمامه هذه العلامة كتب خاصة للمجلة بقلم كتاب أوربيين أو أمريكيين .

(1) A. Lévy-Provençal, *L'héritage d'al Andalous.*

(2) Alexandre Koyré, *Writers and their Critics, A Study in misunderstanding,* by Henri Peyre.

(3) Etiemble, *Jean Dutour et «Le complexe de César».*

دراسات فلسفية

دراسات اجتماعية واقتصادية

دراسات تاريخية

دراسات سياسية

(١) Didier Anzieu, *L'existentialisme.*

(٢) Albert Çamus, *Le Minotaure ou La halte d'Oran.*

دراسات فنية

قصص

شعر

من هنا وهناك

(١) Marcel Arland, *La fusée, Le miracle du dimanche.*

شهرية العلم

شهرية الاجتماع

شهرية السياسة الدولية

شهرية المسرح

شهرية السينما

من كتب الشرق والغرب

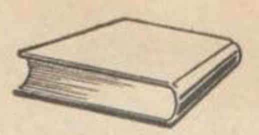
(١) René Sudre, *La renaissance de la science française.*

من وراء البحار

ظهر حديثاً

فى مجلات الشرق

فى مجلات الغرب



مدونة جوستنيان

في الفقه الروماني

ألفه فقيه القياصرة في قسطنطينية

الأمبراطور جوستنيان

ونقله الى العربية امام القضاة في مصر

معالى عبد العزيز فهمى باشا

أخرجته

دار الكاتب المصرى

في طبعة ممتازة

وتجليد أنيق

الثمن ١٥٠ قرشا

البريد المسجل ١٠٠ مليما
وللخارج ١١٢





١٩٤٧
يومية
الكاتب
المصرى
الثلاثاء ٢٩ أبريل ٨ جمادى الثانية ٢١ برموده
MARDI 29 AVRIL
الأربعاء ٣٠ أبريل ٩ جمادى الثانية ٢٢ برموده
MERCREDI 30 AVRIL
مفكرة
الكاتب
المصرى
مفكرات
الكاتب المصرى
تباع
فى جميع المكتبات